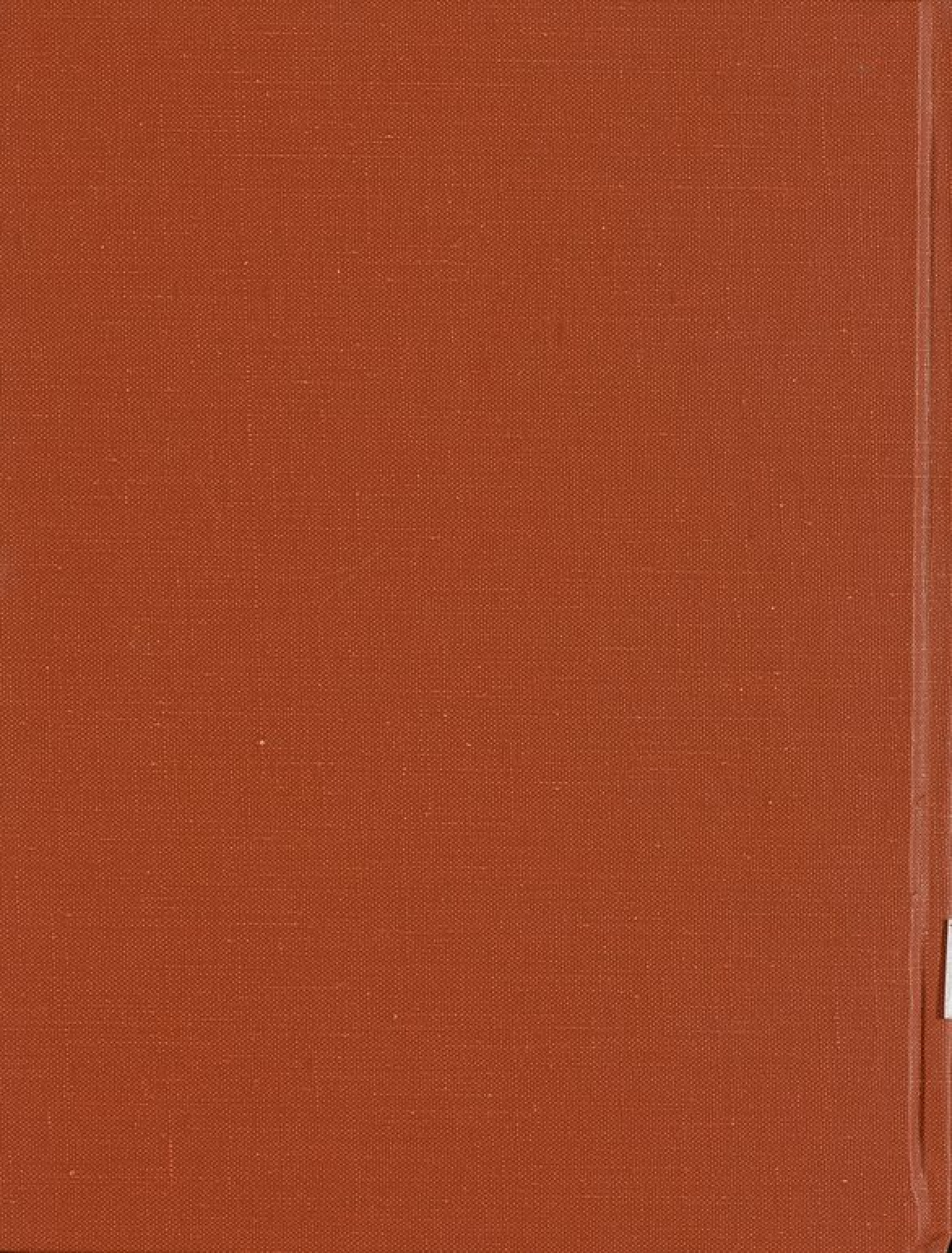
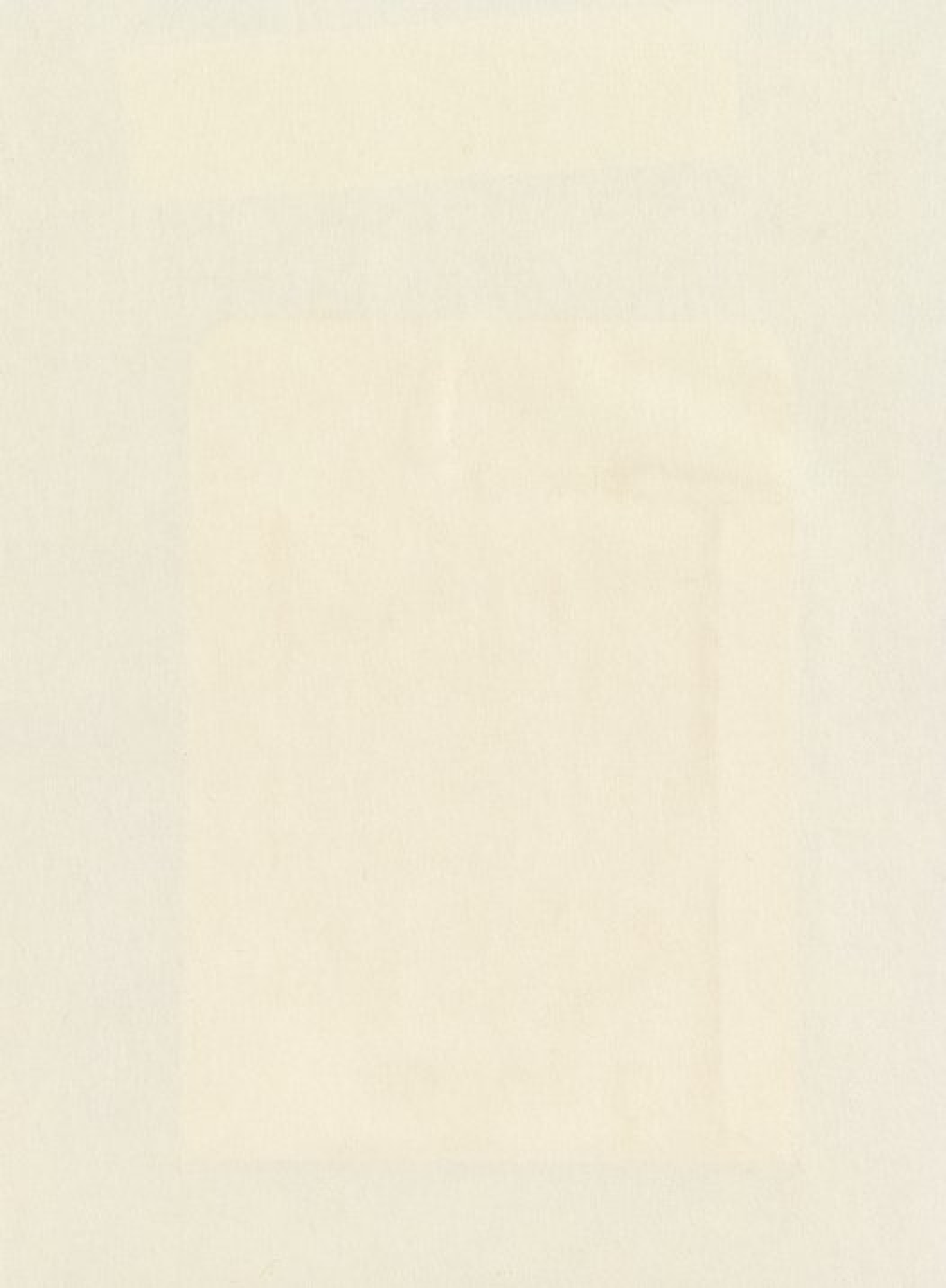
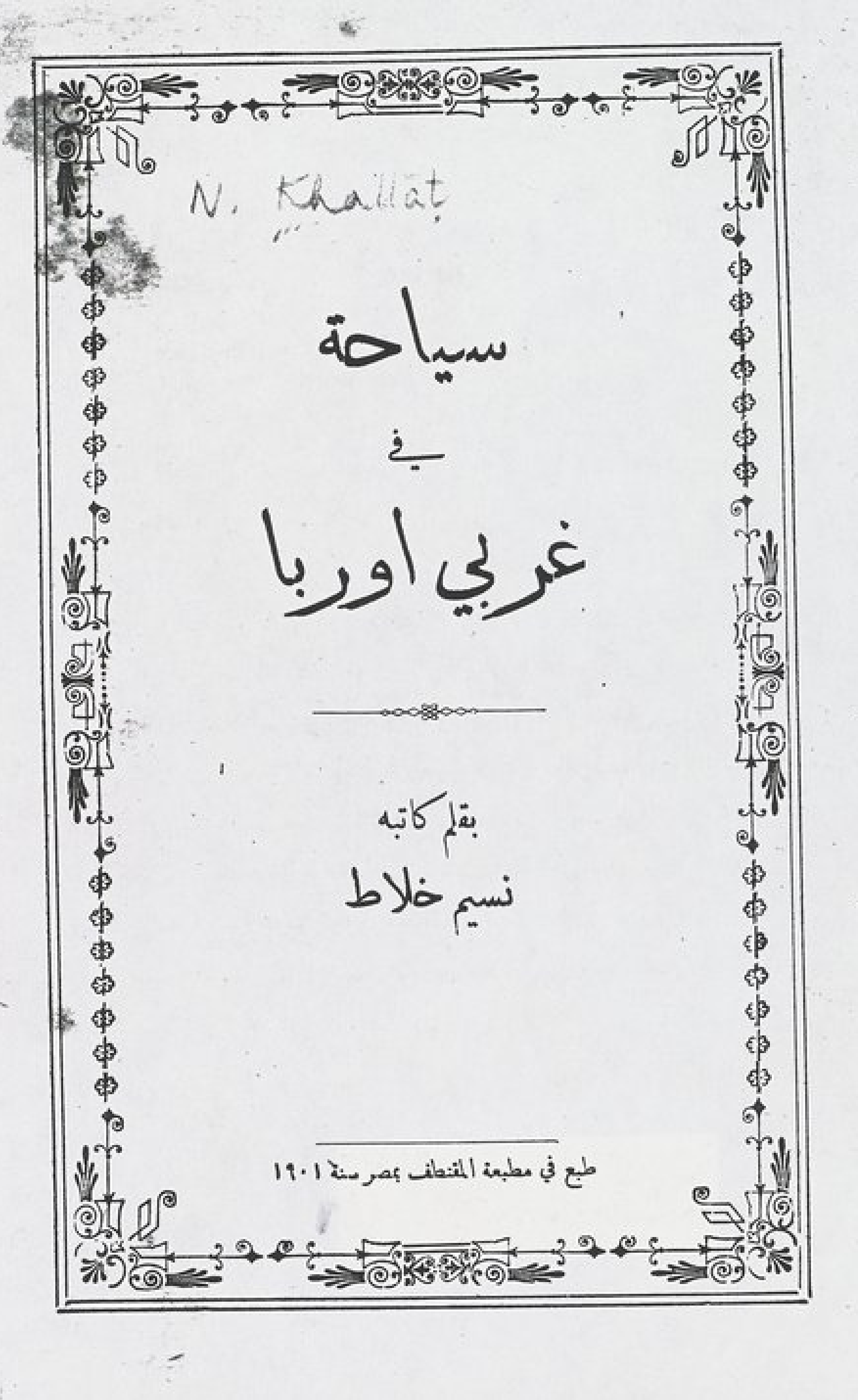










N. Khallat

سياحة

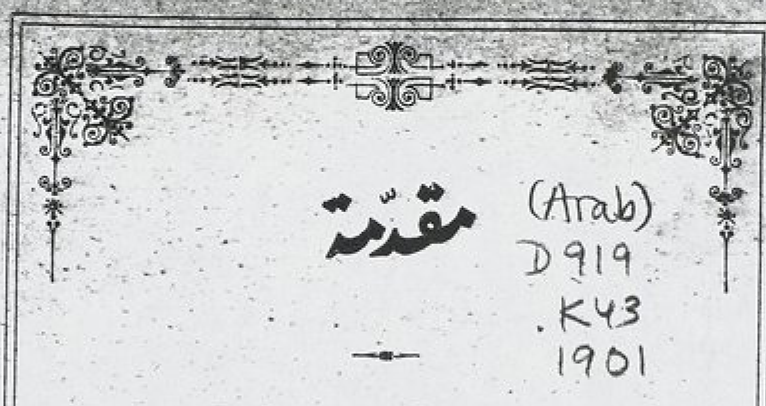
في

غربي اوربا

بقلم كاتبه

نسيم خلاط

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠١



مقدّمة

لقد اكبرتُ تزاحم الخواطر عليَّ وتجاذبها قلمي عند ما جلست اليوم لاكتب مقدمةً لرحلتي هذه حتى غدوتُ من تغالبها محتارًا لا اعلم ايها الاخلق بي اختيارهُ فاتحةً لكلامي بعد اداء الحمد والشكر لمن اظلّني سبحانهُ وتعالى بذيل الطافهِ بالذهاب والاياب الى ان تبين لي ان الاعتذار اولى بي من كل قولٍ اقولهُ اولاً وآخرًا وان الاقرار بالعجز سيكون لا محالة ترسًا يقيني نبال الانتقاد ليس على صحة وصدق ما ارويهِ لاني تحريتُ في وصف وشرح ما رأيت جهد الاستطاعة غير مستعين بما رآهُ وكتبهُ غيري بل على هفواتٍ ولا بدَّ هفوت بها فيما يسمونهُ قواعد اللغة الزاخر بحرها التي لم يسلم منذ خلقت العربية من الوقوع في لجاتها كاتب او شاعر معترفًا باني اذا اصبت على غير عمد فسهمٌ طايش وان اخطأت فالخطا مصاحبي فسهمٌ صائب غير اني ارجو من كل قارىء اديب الرفق بي وبالاّ يخيفني بما لا يأمنهُ هو نفسهُ لو كتب لان العصمة لله

طرابلس في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٠٠



ابتداء السفر

بعد ظهر الاحد الواقع في الثامن من نيسان سنة ١٩٠٠ سافرتُ من طرابلس اريد السياحة فيما يتيسر لي الوصول اليهِ من اكناف العالم الغربي فودعني بحر مرساها برشاش من امواجهِ كادت تبلني من الرأس الى القدم حتى اذا بلغتُ الباخرة الفرنساوية المسماة اكوادور جرت وكان باسم الله مجراها الى ثغر بيروت فوصلتهُ صبيحة اليوم الثاني الواقع في التاسع منهُ فنزلت اليهِ وكان نزولي في فندق انكلترا

مدينة بيروت

اما بيروت ولا بأس بي ان اذكر شيئًا عنها فقد كانت قبيل سنة ١٨٣٢ بلدة صغيرة بين مدن سوريا لا تحوي من السكان اكثر من خمسة او ستة آلاف نفس فلما تقرر اثناء ولاية الحكومة المصرية القصيرة المدة في الديار الشامية وضع المحجر الصحي فيها وكانت طرابلس قد أبتهُ لجهلٍ في منافعهِ اخذت بيروت بالاتساع والتقدم لنزول اهل الجوار اليها طالبًا الاتجار وانتجاعًا للرزق لانها اصبحت بفضل المحجر المذكور اسكلة سوريا فتكوَّن من النازلين في حماها خليط من السكان لا جامعة بينهم غير وحدة اللغة ووحدة القصد والمسعى فالناظر اليهم والباحث عن هيئة اجتماعهم لا يجد فيهم صفة القوم العريقين في العوائد والشؤون بل يرى ان اخلاقهم وازياءهم كأنها مستعارة ممن خالطهم من الطوائف المختلفة التي حلّت بين ظهرانيهم وعلى الخصوص من بضعة رجال من الفرنجة امّوا ثغرهم حتى اتقن بعضهم فيما مضى تقليد ظواهرهم التي يسهل تقليدها بالملبس والقبعة وايلاء العارض والامساك عن التحية وادخال الفاظ اعجمية في كلامهم العربي تقليدًا بوهمك

انهم ليسوا من ابناء البلاد لكن لحسن الحظ لم يثبت اكثر هذا التقليد طويلاً بينهم بل تحولوا عنهُ الى ما هو خير منهُ وابق ذلك لجمعهم بين هيئة الغرب وجدهِ وسماحة الشرق وكرمهِ جمعاً قصَّرت عن مثلهِ كل مدن الشام فترى فيهم الآن الانيس في المعاشرة والمسامرة والمساعد عند الملمة والعالم النحرير والكاتب الاكتب والخطيب المصقع مما يحدو بك الاعجاب بهم والاستغراب من نهضتهم السريعة بعد تلك الحالة التي عرفتهم بها منذ خمسٍ واربعين سنة حينما كان اللحن في كلامهم وكتابتهم واللكنة في لسانهم والقبضة في اكفهم والازورار في احداقهم حتى لم يبقَ لرائيهم او للمؤرخ ما ياخذهُ عليهم سوى ان اغنياءَهم لا يهتمون بانشاء الشركات التي قام عليها وحدها نجح الامم ولا يعنون بالمشروعات الآئلة لخير اوطانهم وخيرهم بل وطنوا انفسهم بالتقاعد عن كل عملٍ ما عدا المضاربة في البورصات والملاعبة بالاوراق ولو لم يسخر القدر لبيروت رجالاً من الغرب يزيّنون جيدها بعقودٍ من المشروعات لظلّت عطلى من كل حليٍ ولكانت احط المدن في سوريا تفاخرها همة واقتداراً

بور سعيد

وفي العاشر من نيسان اقلعت بي الباخرة الى مرفا بورسعيد فوصلتهُ في الحادي عشر منهُ فرأيت على مقربةٍ منهُ تمثال ذلك الهمام الذائع الصيت فردبنند دي لسبس فاتح البرزخ الجامع بين البحرين فاطلت النظر اليهِ والفكرة فيما كابدهُ من العناء والنصب حتى استطاع ان يتمهُ ويهديهُ الى امم الارض هديةً لا يضاهيها هدية منذ خلق الانسان وتذكرت ما اصابهُ من الحطة والقهر في اخريات ايامهِ لغلتٍ في حساب برزخ آخر وهو غير معصوم فاجفلت لوهن اساس الرفعة والمجد العالي وندبت سوء حظ اكثر المحسنين الى الانسان قديماً وحديثاً ولما دخلت الى المدينة لم ارها زادت عمارةً ونفوساً

عما عهدتها منذ ثمان سنوات وذلك بسبب عدم بقاء السفن فيها زمناً يتجاوز ما تحتاجه من الوقت للتزود من الفحم ولقد ادهشني اختلاف اجناس سكانها البالغين نيفاً واربعين الفاً كما اضحكني تعاملهم بكل اشكال مسكوكات الممالك فترى فيها النقود الصينية واليابانية والسيامية والملاقية والعثمانية والنمساوية والافرنسية والروسية والانكليزية وغيرها يتعاملونها دون تردد كانها نقود الخديوية المصرية

الاسكندرية

ثم اقلعت السفينة منها الى الاسكندرية فوصلتها في صبيحة الثاني عشر من نيسان فرأيت قبل الدخول الى مرفإها الكبير امتداداً في عمارها لم اعهده من ذي قبل رأيته شغل جانبيها الجنوبي والشمالي حتى اصبح المرفأ ضمن هلال من الابنية مستطيل الاطراف فظلّت تسير بنا السفينة حتى لصقت البر التصاقاً محكماً فشاهدت على الرصيف اخوتي واصدقائي ثم دخلت واياهم المدينة التي صرفت بها معظم شبابي وبذلت فيها جل تجهودي في معترك الحياة وقضيت

ايام انسٍ كالعرائس بهجةً   يا ليتها بالبين لم تتزوجِ

ولولا الخوف من الرقيب والعاذل لجاهرت بتفضيل السكن فيها ونظمت القصائد في حبها والحنين اليها ولكني الآن في مقام الكلام عنها وعما وصلت اليهِ من التقدم والتعاظم

ان اسماعيل باشا خديوها الاسبق بعد اعتزالهِ الولاية سنة ١٨٧٩ تولاها ابنه توفيق باشا بحكم الارث النازل المستقيم . ذلك ما كانت تقررت احكامه بفرمان عالٍ قبل اعتزال اسماعيل الخديوية ولما كان توفيق باشا من الرجال المجبولين من طينة الدعة والرفق وعدم النظر الى العواقب البعيدة او كان يضمر في نجواه التخلص ولو استراقاً من قيد النفوذ الاجنبي على المالية

المصرية اغفل او تغافل منذ توليهِ القطر عن ملافاة مشكلات كانت تبدو حيناً فحيناً في اهم فروع حكومتهِ لظانهِ ان هذه المشكلات ستأول يوماً الى التخلص من ذلك القيد او اقلهُ الى تخفيف وطأتهِ عن حكومتهِ فاذا بها بعد مرور ثلاث سنوات شبت عن طوق اقتدارهِ على حسمها بالتي هي احسن او على تحويل تيارها الى خدمة ما يقصده حيث ظهرت قوة عسكرية يرئسها رجل يقال لهُ عرابي جاهر اعتباطاً بالسعي لتخليص البلاد من القيد الاجنبي ومن الخديوي واسرتهِ معاً ولما كان هذا المسعى من عرابي وحزبهِ مما يهدد الصوالح الاجنبية ويوقع الخلل في النظام المالي المبذول لاجل احكامهِ في الخزينة المصرية مساع جمة من الدول الاوربية التي لرعاياها ديون طائلة على مالية البلاد ويهدد ايضاً الخديوي توفيق باشا بالخلع عن السدة الخديوية وتعذر دولة انكلترا للتحرش بشؤون القطر السعيد لانها ما انفكت منذ غزوة بونابرت نازعة الى ارصاد الذرائع والاسباب الموصلة الى ما تطمع فيهِ وتطمح اليهِ من السيادة على وادي النيل فوجدت فيما سعى اليهِ عرابي ضالتها المنشودة والسبب الذي يفردها من بين الدول المتناظرة على المداخلة بالقوة لكنها لبثت تنتظر حادثاً يعجّل تلك المداخلة حتى وجدتهُ بحادث مذبحة الاسكندرية الواقع في الحادي عشر من حزيران سنة ١٨٨٢ الحادث الذي اهتز لهُ العالم المتمدن وهلعت لهُ قلوب جالية الافرنج على كثرتها في القطر واوجبت انكلترا ان تأمر اسطولها الراسي اذ ذلك في مرفإ الاسكندرية ان يضرب قلاعها واستحكاماتها فتم ذلك في اليوم الحادي عشر من شهر تموز من السنة المذكورة حيث تهدمت بالضرب كل حصونها ولم يبقَ من نفر في الاسكندرية غير رجل من انصار عرابي يقال لهُ سليمان داود استحسن ان يزيد الطين بلة والضغث على الابالة بحرق المدينة تشفياً على زعمهِ وانتقاماً من سكانها الاجانب وهو لم يورث بهذا الفعل الشنيع ادنى ضررٍ لهم بل اضر بمالية بلادهِ اذ كلفها الى اداء تعويضات للمحروقين يبلغ

قيمتها الاربعة ملايين من الجنيهات المصرية واورثهُ ان يُعدَم صلباً بين انقاض الاحياء المحروقة . وقد زرتها بعيد احتراقها وخراب حصونها فرأيت ما يزيد مساحتهُ عن ميلين مربعين خراباً بلقعاً لا تهتدي العين الى موضع صروحها الباذخة وقصورها الشاهقة ولا تقع الأعلى جدرانٍ متداعية واعمدة مفطرة وعلى اصحاب لها وقوف بينها يسيلون الدمع . فشاهدتها اليوم وقد نفضت عنها غبار الحريق عالية البنيان مشيدة الاركان شامخة القصور متسعة الشوارع مزدانةً باحسن زينة تزينت بها مدينة على طول سواحل البحر الابيض وعرضهِ فدهشت لمرآها بعد تلك النكبة النكباء وقلت تبارك الله ما افعل الامن والعدل واقدرها على العمران واحياء الموات ولكن رأيت قلاعها واستحكاماتها ما برحت لغاية اليوم خراباً يباباً تخليداً لذكرى الحماقة والجهل

زرتُ مجتمع تجارها المسمى بالبورصة وسمعتُ جلبة السماسرة وصرخاتهم فوهمت في اول الامر انهم في خصام ولكام لكنها واخجل الحرفة ناشئة عن مسابقتهم في مضمار البيع والشراء وقد كانت زيارتي الى ذلك المجتمع ايام كان النيل في نقصان غير معتاد وكانت اسعار المحصولات تعلو وتهبط بين لحظة ولحظة على نغم الاخبار ساعة بعد ساعة عن علوّ النيل وانخفاضهِ في حدود مصر بين اسيوط وسنار والخرطوم لما كان يدخل اليهِ التاجر المحتكر كاسباً ويخرج خاسراً او خاسراً و يخرج كاسباً لزعمهم ان التجارة تمشي الآن في منهاج تعاريجهِ وعطفاتهِ مدلولاً عليها بعلامات لا يضل العامل بموجبها اذ جعلوا النيل في هبوطهِ وارتفاعهِ ميزاناً ينبئ عن مصير الاسعار وعن حظ التاجر وقسمتهِ في ميدان الارتزاق وتلك غواية لم يفتضح امرها حتى جاءهم النيل بمائهِ الكافي الوافي بعد ان نادوا بالثبور وعظائم الامور كأنهم لم يعلموا ان وجه الاقدار محجب عن عين المتطلع بنقاب كثيف وان لا دليل صادق فى مهمه الحياة يهدي الى الكسب غير الحكمة والتدرع في الوقاية . ورأيت مع ما اصاب بعض اهاليها من الخسائر انهم قوم على اختلاف

اجنامسهم وطبقاتهم بشوشي الوجه مضيافين ناعمي البال آمنين على ما في ابديهم من حطام الدنيا متساوين لدى المحاكم والحاكم لايمنع هذا بسبب مذهبه او فقره ولا يعطي ذاك لعلة سيادته وغناه الاَّ اني اسفت لما سمعت عن بعض اغنياء وطني المقيمين فيها انهم معتزلون مهام النحلة السورية الآخذة بسعي افاضلها في شوط عمل الخير والفلاح وانهم يضنون على صندوق مبرّاتها بفلس الارملة وهم كما قال القائل

اني اشحُّ بدرهمٍ متصدقًا واجود في قدحٍ بما ملكت يدي

هؤلاء كان الفقر بهم اولى واحرى لانهم ابتاعوا بغناهم العار وبئس ما كانوا يشترون . ولحلول عيد الفصح الشرقي دعيت في يومهِ الثاني المسمى يوم شم النسيم الى دار عيون الاماثل الخواجات جورج ووهبه كرم الكائنة في محلة الرمل ظاهر الاسكندرية فرأيت موائد منبسطة منذ صباح ذلك النهار حتى مسائهِ حوت من كل ما طاب اكلاً وساغ شرباً يختلف عليها الزوار والمدعوون على اختلاف الاجناس وهم وقوفٌ يرحبون بهذا ويؤهلون بذاك الى ان اذنت الشمس بالمغيب فنهضتُ كي اودعهم على وعد العودة فاوسعوني محاسنةً اكاد لا انساها ثم ركبتُ القطار رجوعاً الى الاسكندرية فوجدت مركباتهِ ملأى برجالٍ ونساء عليهم بزة العيد وحلية المهرجان لم اسمع على ما فيهنَّ من الازدحام غير مغنى معبد ورنة اوتار داود

كنت اود ان اطيل الكلام على الاسكندرية وتجارتها وتقدمها الذاتي المستقل الحاصلة عليهِ بفضل موقعها الطبيعي لا بفضل مساعدة من الدولة المحتلة لو لم افرض لقلمي حدوداً لا يتجاوزها عند الكلام على المدن المزمع على زيارتها

مصر

اما مصر فقد عرفتها وزرتها قبل الآن مراراً كما زرت اكثر البنادر الريفية وطفت مراراً بكعبة ازهرها وجوامعها وتكاياها القديمة والحديثة

وعادياتها وآثارها التي نطقت عن حوادث ابعد الاجيال وابدت ما انطمس ذكرهُ من سؤددها العالي المنار وكشفت جانباً من الحجاب الكثيف الذي سدلتهُ الايام دون الممالك التي جاورت مصر او نازعتها الملك وزرت اهرامها وعلوت صهوة اكبرها ونظرت في اعاليهِ قفار ليبيا وتعاريج نيلها ووقفت محتشماً لدى ملوكها المحنطة وامام ابي هولها ومشيت مندهشاً في محارم اصنامها وتماثيلها الهائلة والصغيرة وتأملت طويلاً فيما كانت عليهِ من العمران وضخامة الملك وفيما آلت اليهِ من الحطة والخراب بجور الظلمة الاشرار الذين لم يبقوا على حيٍّ ولا على جماد حتى تجلي لبصري وباصرتي قدرة الانسان وعقلهُ وضعفهُ وجهلهُ في اجلي المظاهر ذلك بالنظر الى هاتيك المشيدات العظيمة البالغة حد الغرابة في العظمة والاتقان والنظر فيما صارت اليهِ عند ما اضاع الانسان رشدهُ في تدميرها لوجه الشيطان وكم فكرت فيما صارت اليهِ الآن من مظاهر الحضارة والعمران بعد تلك الكبوة وكم اثنيت خير ثناء علي من احيا رفاتها ذاك الذي جاء مصر منذ ثمانين او تسعين سنة لا يملك من العلم والدنيا شيئاً غير فكر ثاقب وعزيمةٍ ماضية وجنان ثابت وقسوة قلبٍ راعت نظير ما كانت عليهِ اعيان وحكام القطر من القسوة والبغي في اشد ايامها حلكاً

ان المتأمل فيما وصلت اليهِ ديار مصر خلال خمسين سنة مضت ليعجب من سرعة خطاها في شوط العمران ويتمنى لو اتاح الدهر بمثل المشار اليهِ لكل بلاد اخنى الزمان عليها بكلكلهِ يؤسي جراحها ويرأب صدعها ويسير بها الى ميادين النجاح والفلاح

السفر الى مرسيليا

ولقد كان من منوياتي ان امكث في الاسكندرية الى غاية شهر ايار وان اسافر منها الى دار السعادة ومنها الى جرمانيا على طريق ممالك البلقان ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن اذ في غرة الشهر المذكور ظهرت

اصابة وبائية في ثغر بور سعيد اوجبت تقرير الحجر الصحي على واردات
جميع القطر المصري في الممالك المحروسة وفي كل الممالك المحيطة بالبحر الابيض
الأّ ثغور فرنسا فلما رأيت انهُ لم يبقَ غيرها منفذًا الى اوربا عمدت الى تقصير
المدة التي كنت نويتها من الاقامة فيها خوفاً لئلاً اذا اشتد الوباء يسد في
وجهي باب فرنسا أيضاً فركبت في الرابع من شهر ايار الباخرة الفرنسوية
ملبرن من شركة المسيجري مارتيم وكان عدد ركاب الدرجة الاولى يربون
على المائتين والثانية على ما يقارب المئة وعلى الظهر من مهاجري سوريا الى
امريكا ما يبلغ الثلاثمائة رجالاً ونساء واولادًا وقد اصابني دوار خفيف الزمني
الفراش ولعلي حمدته لانهُ اغناني عن طعام عافتهُ نفسي منذ اول عشاء
تناولتهُ في السفينة المذكورة وكان بين الركاب وفي جوار غرفتي البرنسس
نازلي هانم كريمة المرحوم مصطفى فاضل باشا المتزوجة منذ عهد قريب
برجل تونسي بعد زوجها المتوفى خليل باشا . والاميرة مشهورة بكتاباتها
وآدابها ومساعداتها للعلم والعلماء وباحسانها التكلم في لغات اجنبيةٍ ولم يكن
لي اذ ذاك ما اتلهى بهِ مدة التزامي الحجرة سوى كتاب دفعهُ اليَّ صديق من
الركاب موضوعهُ رحلة المرحوم بولص مسعد بطريرك الطائفة المارونية الى
رومة سنة ١٧٦٨ بقلم العلامة يوسف الدبس مطران الموارنة في مدينة
بيروت فالفيتهُ مؤلفاً اقرب للتاريخ منهُ الى الرحلة افرغ سيادة المؤلف
جهدهُ بالاعراب عن قدم الطائفة المذكورة وعن قدم انتمائها للكرسي
الروماني ما استطاع الى ذلك سبيلاً واورد حكايات بين تضاعيف سطورهِ
تشف عن مثل ما جاء في اساطير الاوّلين كحكاية بقاء القربان المقدس
عالقاً بالهواء اثناء خدمة البطريرك العمشيتي القداس بحضور الحبر الروماني
في رومة وكقصة الرسالة التي جاءت من مريم العذراء الى اهالي مسينا في
ايطاليا — حكايات كان كتاب العجائب او السنكسار اولى بها من كتاب
في رحلة — وعذري لدى سيادتهِ على ما بي من الاحترام لعلمهِ ومعارفهِ في

ادلالي على المغمز علي بميل العصر لوضع الشيء في محله وتمحيص الروايات وعلى الخصوص رواية المعجزات وخوارق العادات كما لا يخفى

في صباح السابع في ايار اي بعد مضي ثلاثة ايام ونصف من مبارحتنا الاسكندرية اطلت علينا جبال ايطاليا وكان الهواء ساكنا والبحر هادئاً فذكرني منظرها جبال لبنان حتى خلتهنَّ لعظم المشابهة اخواناً اشقاء شقهنَّ البحر حسداً واوقفهنَّ على جانبيهِ يتغامزنَ عليهِ الى يوم تغيض البحار وتندك الجبال ثم قابلنا جزيرة سيسيليا فرأينا على قمم جبالها مآزر من الثلج وعلى سهولها وشاحاً مطرزاً بياقوت ترابها وزبرجد نباتها واغراسها الى ان وصلنا الى مضيق ينفرج احياناً ويضيق اخرى رأينا على احدى عطفاتهِ موقع مدينة مسينا فاشرفت عليها عن كثيب فاذا هي بلدة صغيرة كان لها شأن في منتصف القرن الحالي غصبتهُ منها اسكلة برنديزي واضاعتهُ عليها ثم مخرت الباخرة في جون رأينا على يمينهِ الفلكان اتنا رابضاً فوق الماء بشكلٍ هرمي تام المخروطية لكننا لم نرَ على رأسهِ اثراً لنار او لدخان كأن القدم والهرم ابلياهُ بالخمود او اناماهُ ليستريح من شواغل اضرار الجوار بثورتهِ فتذكرت ما قيل

تبارك من توفاكم بليلٍ ويعلم ما جرحتم في النهارِ

ورأيت في ذلك الجون صخوراً مخروطة الشكل او مفرطحة كأنها اضراس منضدة على صفحات الماء منها ما يتقارب كنهدين على الصدر ومنها ما يتوازى كالثنايا وما يتحازى كخيل السباق تعرف جميعها بجزيرات لباري اولها في درجة ٢٨ و٣٨ عرضاً و٢٨ و١٣ طولاً من باريس وآخرها في درجة ٣٩ عرضاً يُستدل من مواقعها واشكالها انها كانت جبال نار اطفأتها الدهور وكان البحر بين درجة ٣٦ و٣٩ عرضاً هادئاً والجو صافياً ازالا عني وعن سائر الركاب وعكة الدوار فاستطعت اذ ذاك ان الاحظ اننا كلما اقتربنا من مدينة مرسيليا تزداد السفينة نظافةً ويتحسن طعامها كأن الربان يخشى

الملام او عقبى الشكوى اذا اتصلت بمقام ادارة الشركة وقد كانت الايام التي مرت بين السادس والتاسع من الشهر ايام سرور وحبور صرفنا معظمها مسامرة واقلها لعباً وقد ثبت وليته لم يثبت لديَّ ان اللعب لمن اشد دواعي التعارف والائتلاف لاني شاهدتُ اللاعبين المختلفين جنساً ولغةً كأنهم اخدان واخوان منذ الولادة حال كونهم لم يروا بعضهم يوماً قبل ذلك الحين وما ذلك الاَّ لان الميسر اصبح كجواز سفر يُدخِل كل غريب الى الجمعيات على اختلاف اقوامها ومشاربها ولغاتها باسرع من لمح البصر لا يحتاج الى اكثر من وضع يدهِ على جيبهِ . حقاً ان ابليس اللعين لم يُفتح عليهِ بخدعة مضلةٍ لبني الناس اشد مكراً وضرراً منها

في الثامن من الشهر او الخامس في السفر شعرنا بدخولنا في منطقة الاعتدال الاوربي فشربنا الماء بارداً في اباريق السفينة بعد ما كان فاتراً في عرض مصر وطاب لنا الدثار الثقيل بعد ما كنا نعافهُ خفيفاً فطبت نفساً لكن اذكاري اهلاً بعدتُ عنهم كان ثقيل الوطأة عليَّ ثم انكشفت لنا جزيرة سردينيا الممتدة من درجة ٣٠ و٣٩ الى درجة ١٥ و٤١ عرضاً وهضاب كورسيكا منبت اسلة الرجل الكبير الذي لم ينبغ نظيرهُ في الاعصر المتأخرة مَن وصفهُ يغني عن ذكر اسمهِ فقرات السلام عليهِ وارسلت تحيةً لما اتصف بهِ من الاوصاف الغراء لا الى ما اتصف بهِ من القسوة والاعتداء على الخلق وظلَّت السفينة تجري الى ان اطلت علينا انجاد فرنسا ورباها البادية لعين الرائي كسور يحيط بشاطيها الجنوبي حتى اذا وقفت السفينة في موقف يدنو من مدينة مرسيليا جاءت اليها جلاوذة الصحة وفرقت بين درجات ركابها ثم اخذ احدهم بتعدادنا والطبيب ينظر في وجوهنا باسماً ضاحكاً ولما انتهت هذه الزيارة الطبية التي لم يشعر بها اكثر الركاب بالنظر لخفتها ولطفها عادت السفينة الى سيرها الى مرفإ مرسيليا الكبير الواسع فخرجنا منها مشياً على القدم لالتصاقها بالبر ونزلت في نزل كران اوتل لوي فاعجبني

طعامهُ ولم البث حتى خرجت منهُ اتفقد ما حولهُ من البنايات الشامخة والشوارع المنظمة فقابلت وانا ماشٍ قصرًا كبيرًا فخيمًا فدخلتهُ دون معارض فاذا هو برصة تجار مرسيليا يهمون بالانصراف لحلول وقتهِ

مرسيليا

في العاشر من الشهر رحت مع صحبٍ الى مستشفى المجاذيب والمختلي الشعور فلم يُسمح لنا بمقابلة عليلٍ منسوبٍ لاحد الرفقاء دون صكٍ من وليّ العليل ومن هناك سرنا لزيارة صديقٍ قرأنا عندهُ عن ظهور الطاعون في الاسكندرية فساءنا الخبر واتجهنا من هناك الى بيت العاديات المختص بمدينة مرسيليا فوجدتهُ وسط روضة غناء زينتها هبات الطبيعة ويد الصناعة بكلما يروق للعين ويزكو للشم ولما دخلتهُ رأيتُ غرفتين حافلتين بتماثيل رجال الاعصر الخوالي رومانًا ويونانًا فاستوقف نظري منهنَّ تمثال روماني خلتهُ بديعًا في صناعة النحت ثم الى رواق حوى شيئًا كثيرًا من ورق البابيروس المكتَّب ومن انصاب مهشمة واصنام مشوهة معزوة الى الامتين المذكورتين ثم دخلت الى ثلاث غرف متلاصقة مغشاة بآثار مصر وموميانها كأن مصر كفلت ان تزين كل بيوت عاديات الدنيا بجواهر آثارها ولما خرجتُ وصحبي من هذا البيت جئنا الى المطعم والاولى ان يسمى بالقصر العالي المعروف باسم روبيون حيث تناولنا الغدا واكلنا الطعام المسمى بول يابس المشهور هذا المطعم بحسن طباختهِ ومن هناك اتينا الى محطة المصعد الموصل الى كنيسة نوترضام دي لاغارد فهالني منظرهُ لاني رأيت جبلاً صخريًا شاهقًا عمودي القوام دون ادنى ميلٍ يعلو اربعة وثمانين مترًا يمتد عليهِ خط من الاعلى الى الاسفل معصب عرضًا بعصائب من الحديد وعلى جانبيهِ حبال مدلاة الى اسفلهِ علقت باطرافها غرفة تسع عشرين شخصًا ذلك اوجب ترددي عن الدخول الى الغرفة والصعود بها الى راس الجبل خيفة خطر

يطرأُ ولو لم يكن بين الرفق وفي الركب اناس اخجل من اظهار الهلع والخوف امامهم لامتنعتُ ورجعتُ عن المصعد قانعاً بالنظر ولما علوت صهوة الجبل الاملس وآمنت نصف الخطر انتبهت الى التطلع من ذلك الموقع المرتفع الى ما انكشف من مدينة مرسيليا الحاوية من السكان بحسب التعداد الاخير اربعماية وثلاثين الف نفس فرأيتها محشوكةً بالمباني المتلاحمة وبالمشيدات دون ادنى فرجةٍ بينها ولما نزلت كما صعدت حسبتني هابطاً من الغمام ثم سرت الى كنيسة مرسيليا الكاندرائية فاستعظمتها ولو لم اسمع يومئذٍ ان في القارة كنائس اعظم لحسبتها سيدة الكنائس ولما لم يبقَ في مرسيليا محل يهمني رؤياهُ عزمت على الرحيل منها في صباح الغد

اراني غير ملوم اذا ذيلت ما رأيتهُ من فُرجها بشرح مختصر عما لاح لي من اوصاف اهلها رأيتهم قوماً يرحبون بالقادم ويهدونهُ السبيل ولو تكلفوا بذلك مشقة السير معهُ مسافةً ويكثرون من الكياسة واللطف في معاملتهِ والاصغاء اليهِ ولو لم يحسن التكلم بلغتهم رأيت حمّاليهم عند نزولنا من الباخرة الى الرصيف حيث كان الزحام شديداً وامتعة الركاب ركاماً يتمهلون او يقفون عند نقلها على المساحب المجرورة اذا صادفوا في طريقهم شخصاً واقفاً او يقولون لهُ بلغتهم تفضل مولاي وخذ قليلاً ان شئتَ ورأيت لسائقي المركبات خلة لم اعرفها في بلادي وذلك اني ما اشرتُ مرةً بطلب سائق وجاءني آخر ولا وقفت امامهم وانا في هيئة مريد الركوب وتسابقوا اليَّ كما يفعلون في طرابلس وبيروت حيث يحيطون بالراكب ويتخاطفونهُ كحبة قوت أُلقيت في حوض سمك بل لا يأتي الواحد منهم الاَّ بعد الفراغ من الاول . لم اسمع في شوارعهم صوت منادٍ على سلعتهِ الاَّ باعة الجرائد فانهم ينادون باسمها دون ضجيج

السفر الى ليون

في صباح الحادي عشر من الشهر ركبت القطار المستعجل الى مدينة ليون فمر على مدن كثيرة مر السحاب الاَّ في مدينتي افينيون وفالانس وبعدهما

سار الى ليون توًّا فوصلها في الساعة الثانية بعد ظهيرة النهار فنزلت في كران اوتل دي ليون فلم البث حتى ركبت المركبة لتجول في احياء المدينة الى ان انتهيت الى جنينة البلدية المشهورة باسم برك ليون فوجدتها جنة غناء شاسعة الاطراف واسعة الاكناف حوت من مرابع الغزلان ومرابض الاسود والضواري ومن وكنات الطير على انواعهِ واجناسهِ الداجنة والكاسرة ما لا يسعني شرحهُ في هذه الصفحات ثم عدت الى الفندق بعد الغروب ولم اخرج من حجرتي تلك الليلة لاني شعرت بصداع خفيف عراني من رطوبة الفلا وفي صباح الثاني عشر من ايار استصحبت دليلاً انكليزيًا ليريني المواقع الاكثر شهرة في المدينة فركبت واياهُ واشرت للحوذي ان يسير بنا ذميلاً كي امتلأ من رؤية محاسنها المستفاض ذكرها ومشاهدة المواضع التي وقعت فيها المجازر الانسانية ايام الثورة الفرنساوية الاولى فرأيت من نظافة الشوارع وعرضها واستقامتها ما اعجبني حتى ادى بنا السير الى كنيسة قائمة على هضبة في العدوة الشمالية لنهر الرون الذي يشق المدينة الى شطرين غير متساويين والكنيسة على اسم سنت ريني فوجدتها قديمة العهد يتجاوز تاريخ بنائها السبعماية سنة وقد ضم حديثًا اليها بنيان وراء حنيتها الشرقية بشكل هلالٍ وضع في قاب قوسهِ المصلوب المقدس وعلى جانبيهِ لغاية طرفي الهلال حوادث الصلب بالنقش النافر. ثم اخذ بي الدليل الى باب في ظاهر الكنيسة رأيت مسطورًا على عتبتهِ العليا بالرقم الروماني سنة ١٥٥٢ فدخلتهُ ونزلت منهُ في درجاتٍ الى مكان مظلم اضاءهُ لي متولي السدانة بمصباح كيما اطل في كوةٍ معصية بالحديد على حجرةٍ ملئها عظام شهداء الكاثوليك الذين استشهدوا على قولهم في فتنة ظهور المذهب الكاويني ثم صعدت من هذا المدفن وسرت الى كنيسة سيدة فلوفيه فرأيتها كنيسة فوق كنيسة فالعليا اخذت من حسن البناء ودقة الهندسة وظرف الهندام مبلغًا انساني ما حسبتهُ بديعًا في كنيسة مرسيليا وقيل لي واظن القول موثوقًا ان ما صُرف عليها حتى الآن

يبلغ الثلاثين مليوناً من الفرنكات واما الكنيسة السفلى فهي مثل العليا الاً في الزينة وحسن الاعمدة والزخرف . وقد ادهشني ما رأيته' فيهما وفي غيرهما من الكنائس التي زرتها حتى اليوم في فرنسا كثرة المنحوتات والتماثيل حتى خُيّل لي ان مساجد المسيحيين اصبحت اكثر قرباً لهياكل ديانا وامون وتذكرتُ خلو المعابد النصرانية البعيدة العهد في كلٍّ من سوريا ومصر من كل اثر للتماثيل والانصاب فقلت لنفسي وما الذي يا ترى حببها لاهالي المغرب هل ذلك لمحض الزينة او لاعتبار ايمتهم ان التماثيل مدعاة الى التقوى ومزيد الخشوع للمعبود فاذا كان الامر مبنياً على السبب الاخير فقد اصاب الوثنيون اذاً فيما كانوا يفعلون ويكون النهي الالهي عن اتخاذ اقل منحوتٍ في غير محلهِ (استغفر الله) ثم رحت من هناك الى بيت عاديات ليون فوجدت في الاروقة السفلى منه' قواعد انصاب رومانية بينها قليل يوناني ووجدت فيها تماثيل كثيرة اغلبها لرجال الاعصر المتأخرة ثم صعدت الى الطابق العلوي المختص بالتصاوير فوجدته' حاوياً على قطع نفيسة اكثرها من اقلام المصورين الفرنساويين وقد استوقفتني صورة لمقتل هابيل رأيته' فيها طريحاً معفراً على الثرى تغشي وجهه' الضاحي كمدة الموت وصفرته' وحوَّاء حوله' تتراوح بين ملامح اليأس والرجاء والدهشة والحزن وآدم واقفاً مكفهر السحنة غضوباً يتلفت ذات اليمين وذات الشمال وقايين يعدو مدبراً يرمق المشهد بلحظٍ خفي — صورة جمعت اقصى ما يستطاع للمخيلة تصوره' لذاك الحادث الاثيم غير المسبوق وقوعه' في اول عائلة انسانية

باريس

ولما اعياني التعب رجعت الى النزل وتهيأت لمبارحة ليون مساء النهار بالقطار الليلي الى باريس فركبتهُ في الساعة السابعة بعد الظهيرة حتى اذا حان مغيب الشمس وتحجب وجه الارض بنقاب الليل الاسود نمت في حجرة القطار

كأني على مهد مهزوز لم افق الأ وقد اطلّت نباشير الصباح واطلال باريس معاً فجلست فيها انشق ريثما نسيها الى ان بلغ القطار محطتها الجنوبية فنزلت منهُ وركبت الى النزل الفخيم المعروف باسم كران اوتل الحاوي ما ينيف على ثمانمائة حجرة للمنامة وعلى قاعات عديدة للطعام والقراءة والاستقبال وادارة مهام هذا النزل الكبير . فعند وصولي اليهِ نفضت الغبار وغيرت ثيابي ورحت الى كنيسة المدلين ماشياً لقربها من النزل المذكور فوجدتها لولا ذكرها في حوادث تاريخ فرنسا ولولا انها من زمنٍ بعيد معبد كبراء البلاد ومرجع احتفالاتهم لما كانت بالشيء السامي لدى الزائر الغريب . ولما كان دخولي اليها ابان القداس حضرتهُ مرتاحاً لوقوفي على حالة لم اعهدها في الشرق وذلك من حيث السكينة والهدوء الشاملتين الكنيسة والمصلين فيها على اتساعها ومن سماعي صلاة الكاهن والبعد بيني وبينهُ لا يقل عن خمسين متراً حالة ولا بد تأتت عن السكينة وعن احكام هندسة البناء حتى ليكاد يسمع فيها همس المصلي ولو كنت في اقصاها ثم انصرفت منها مفكراً بهندسة كنيسة طرابلس الجديدة التي لا يسمع فيها الصلاة الأ لغطاً لسوء الهندسة

وذهبت تواً الى مكان المعرض الدولي فدهشت عند القرب منهُ لرؤياي على جانبي بابهِ الاكبر شبه منارات عاليات مزينات بانواع الزخارف ومموهات بالذهب الوهاج وبكل الالوان الزاهية مرفوعاً عليها العلم الفرنساوي ولما دخلتهُ بعد اداء رسم الدخول علمتُ ان بعض المعارض لم يتم تنظيمها او بلوغها الدرجة المؤذنة باستقبال الزائرين فجلت عرضاً وطولاً وهو كبير شاسع حتى اضناني الكلال لكن لم يفتني ملاحظة تفرّق المعارض على هيئة خالية من قانون المقابلة واحكام التنسيق فانها الأ ما قلَّ منها مبنية باماكن متعاكسة على شكل لا يلوح عليهِ طابع النظام والترتيب ولا ينبئ ان لها مهندساً واحداً لا من حيث اختلاف اذواق الامم في هندسة معارضها بل من عدم ترتيب مواقع تلك المعارض فانك لترى معرضاً وهو عبارة عن قصر

قائم في منحنى قوس وآخر في ضلعهِ المائل وثالثاً وراءه' او امامهُ الى غير ذلك
من تشاكس المواقع وافتراقها واجتماعها ثم تباعدها وتناحيها لغير موجب بادىء
واضطرار مكاني لان البقعة المفرزة لهذا المعرض الكبير كما علمت انما أُخليت
من كل بناء سابق وهي كافية الاتساع حتى ليشقها نهر السين الكبير او يحاذيها
الماخرة بهِ على الدوام والاستمرار بواخر المتنزهين جيئةً وذهوباً. ثم خرجت منهُ
وجئت الى النزل تعباً منهوكاً فآويتهُ ولم اخرج فيما بقي من النهار ثم جئتهُ في
النهار التالي ودخلتُ المعارض المفتوحة الابواب لاستقبال الزائرين فوجدت
اكثرها الأ القليل لا يحوي من المواد المعروضة ما يساوي او يقابل عظمة
البناء واكلافهُ الباهظة ولئلا اكون مخطئاً بحكمي ارجئُ القطع بهِ لزيارة اخرى
كي لا اقع فيما وقع بهِ كثير من الرحالة في شرق البلاد وغربها وعلى الخصوص
في الخطة السورية من العجلة في حكمهم على الديار واهليها دون روية ولا
تثبُت لاني كثيراً ما قرأت رسائل وكتباً وجرائد ورحلات لمن امُّوا هاتيك
الديار اياماً معدودة او اقاموا بها شهوراً فتعرفوا بوصف البلاد وساكنيها بما
ساقتهم اليهِ مخيلتهم او اغراضهم او ميلهم لرواية الغريب من الطباع والاخلاق
والاماكن اوصافاً مختلفة ومتضاربة هم انفسهم لم يتفقوا عليها فالواحد رماهم
بالخيانة واللصوصية والآخر شهد بامانتهم ودماثة اخلاقهم ومنهم من نسبهم
الى الجهل والسماجة ومنهم من وصفهم بالادراك والذكاء . بعضهم قال ان
المكان الفلاني والبلدة الفلانية مكان موبوء وبلدة لا تصلح للسكن لسوء مناخها
وبعضهم انكر ذلك وقال انها من احسن البلاد مناخاً وهواء الى غير ذلك
من تباين الشهادات والاوصاف التي لم يكن باعثها سوى تسرُّع بعضهم
باطلاق الحكم على الكل بخيانة الفرد او الحكم على سوء مناخ بلدةٍ لطروء
توعك على السائح يوماً فيها او من تعمد بعضهم التشنيع في السكان ونسبتهم
الى البربرة والجهل والالحاد في الدين استدراراً لاحسانات البلاد البعيدة.
وقد وجد بين من كتب عن اهاليها من تعمد المبالغة حتى الى درجة المين

في الرواية كيما يكون فيما يكتبهُ جاذب للقراء وفكاهة للسامعين . وقد وجد من هؤلاء وهو في الفضل بمكان من قال في كتاب منشور انهُ اذا وُلد لاحد الطرابلسيين مولود انثى قام البكاء والعويل والبس بيتهُ شعار الحداد . وانا نفسي كم سُئلت مرارًا من رجال اوربا عن عدد زوجات الرجل المسيحي في سوريا وذلك لقصور من كتبوا عنها في بيان ما عليهِ اهلوها من العادات والاخلاق

ولقد ساقني الموضوع الى حيث اطلت الكلام في الجملة المعترضة لكن وجوب التروي في الرواية وتجنب التسرع في الحكم والدفاع عن قومي يوجبان معذرتي ثم رجعت الى النزل كما رجعت امس تعبًا منهوكًا لصرفي ما يقارب السبع ساعات بالتنقل بين معارض متقاربة ومتباعدة مشيًا ووقوفًا على القدم دون انقطاع

في النهار التالي لاح لي وجوب زيارة سفارة دولتنا العلية فلما بلغتها قابلني سعادة غالب بك سركاتب السفارة العارف العربية وادخلني على دولة السفير منير بك فوجدت بهِ شهمًا حازمًا وعالمًا فاضلاً تلقاني بانسهِ المشهور وادناني منهُ واجابني الى ما سألتهُ وتفضل عليَّ بتذكرة الاجازة لحضور البرلمان الفرنساوي و بعد انصرافي من السفارة العلية رحت توًّا لزيارة عائلة صديقي المرحوم سليم دي بسترس فسررت جدًّا لرؤياها بعد بعادٍ طويل وتعرَّفت بنجليهِ النجيبين الكسندر وفلادمير اللذين تزينا حقيقةً بكما تزين قبلهما الوالد من شيم الفضل وسجايا الكرم والذكاء والنبل ولقد يقصر القلم عن ايفاء وصف كمال المخدرتين والدتهما وعمتهما مدام دهان وآدابهما على اني ابثهم شكرًا واثني عليهم جميعًا الثناء العاطر لما اولونيهِ من الجميل بالارشادات النافعة . ثم رحت من هناك الى متحف كرافين حيث التماثيل الشمعية فادهشني ما رأيت من دقة التشبيه واتقان التمثيل حتى كدت لا اميز بينها وبين الاحياء الوقوف والمتفرجين في ذلك الايوان ولقد اضحكتني

سيدة كانت جالسة على مقعدٍ بقرب احدى التماثيل لما حدّقت نظري فيها
لاتبيّنها ان كانت تمثالاً او بشراً حيًا بحملقتها بوجهي وتبسمها لان الكلام
بحسب الآداب الاوربية ممنوع مع من لا يعرفونهُ ولو في هذا الظرف المفضّل
فيه ادباً الكلام على الحملقة كما لا يخفى . ففي قسمٍ من هذا المتحف تعرفت بهيئة
نابوليون الاول وبهيئة رجالهِ العظام وقادة جيوشهِ وندمائهِ وبالامبراطورة
جوزفين زوجتهِ الاولى وحشمها وفي قسمٍ آخر نظرت لويس السادس عشر
في سجنهِ المظلم وزوجتهُ ماريا انطونيت في حبسها الحرج الخالي من الاثاث
الأخرق بالية منتشرة في ارض الحبس كانت لديها بمقام الغطاء والوطاء تلك
التي كان النسيم يدمي خدها والحرير بنانها ورأيت اولادها ممسكين باذيالها
وبصدرها يدافعون جلاّدًا يحاول افلاتهم عنها ليستاقها الى المحل المعد لضرب
عنقها تلك مناظر كادت تستذرف مني الدمع وتستدعيني الى ارسال اللعنة
على جيلٍ بلغت فيهِ اهلوهُ الى هذا الحد من القسوة والقحة والبربرة . ورأيت
في قسمٍ آخر نابوليون الاول مائتاً على فراشهِ في جزيرة القديسة هيلانة
وليس حولهُ غير خادم واحد مكب على اقدامهِ وفي قسم آخر ملك الداهومي
الذي اجتاحت دولة فرنسا بلادهُ واخرجتهُ منها جالساً على دكةٍ وحولهُ
نساؤُهُ وامامهُ جلاّد ممسكًا بناصية رأس مفصولٍ عن جثةٍ مطروحةٍ تحت
رجلهِ . ثم نظرت كتشنر باشا في سفينةٍ راسيةٍ امام فشوده جالساً والى
جانبهِ القائد مرشان ونجت باشا ينظرون في خريطةٍ منشورة على طبلةٍ ينص
على مرشان ورفقائهِ شروط خروجهم من الخطة المجاورة النيل التي افتتحوها
بماضي عزائمهم ورأيت في ايوان مخصوص البابا ليون الثالث عشر الحالي مستويًا
على سدة وحولهُ فريق من الكرادلة وامامهُ راهب يعرض امرهُ وفي قاعةٍ اخرى
الامبراطور نقولا الثاني في مشهد تتويجهِ والى جانبهِ الامبراطورة وخلفهُ امهُ
الامبراطورة المترملة وباقي اعضاء العائلة المالكة وحولهُ في موقفٍ منخفض مبعوثو
الدول وغير ذلك من المشاهد والرجال المماثلة واقعها الاصلي ورجالها اتم تمثيل

وفي مساء النهار المذكور رحت الى الفرجة المسماة فولي برجه فوجدت فيها من المتفرجين ما ينيف على الالفين عدًّا انما استغربت حضور المخدرات فيهِ لاحتوائهِ على تشخيص هيئات واشارات واقوالٍ ملحنة ليس اكثرها من الادب في شيء فعذرتهنَّ كما عذرت نفسي بانهنَّ يحببنَ الوقوف على كل شيء في عاصمة الدنيا في العلم والصناعة والخلاعة . وقد حضرتُ غير مرة في فرجة مولين روج حيث يتناهى المشخصون فيهِ باشارات التهتك وعبارات اقبح المجون والمرقص المائل المرتج لكن لم اجد فيهِ من الحرائر المصونات غير نفر قليل من اللآئي لا يبالينَ بحجاب يمنعهنَّ عن الوقوف على اقصى ما يصل اليهِ التهتك في بلاد التمدن .وقد سألت سيدة انكليزية كانت وزوجها فيهِ على قربٍ مني عما تراهُ في هذه المشاهد فاجابت انها رأت في سياحتها مع زوجها في مصر رقصًا اكثر عيبًا واشد بلاء على الشبيبة ونظرت في اواسط افريقية وفي جهاتٍ من جنوبي امريكا من مشاهد الخلاعة والقصف حتى بين الامم المتحفزة الى التمدن ما يحسب هذا بالنسبة اليها ادبًا محتشمًا ثم اردفت كلامها بقولها ان الحشمة في الناس نسبية لن يتم لها الكمال اصلاً وان اطالة البحث فيها تاريخيًا ربما يفضي الى الظن بانها قهرية لا اختيارية انتهى.وقد رأيت في هذه المراقص وفي غيرها من غرائب حركات الراقصات ما يستوقف النظر ويحير الفكر ويوجب الاندهاش واشدها غرابة ان الراقصة تنهض باحدى رجليها الى ام رأسها ثم تلفت القدم على قذالها حتى تمسي اخمصها على الخد الايمن اذا كانت المرفوعة يسرى وتظل راقصةً على رجلٍ واحدة على وفاق توقيع انغام الموسيقى

وفي السادس عشر من شهر ابار اعدت الزيارة الى المعرض فتثبَّتُّ فيما لاح لي في الزيارتين السابقتين وهو ان المعروضات لا تساوي المعارض اذ قلما تجد فيهنَّ شيئًا يُقَوَّم بجزء من اكلاف البناء فالداخل مثلاً الى معرض اوستراليا لا يجد فيهِ غير رواميز السفن المصنوعة في تلك البلاد موضوعة على

طبلات صفت بشكل دائرة في وسط ايوانٍ متسع لم ارَ فيها اختراعاً جديداً ولا خروجاً عن المألوف في اشكال السفن واذا نظرتَ في باقي غرف هذا المعرض لا ترى سوى ان جدرانها مغشاة بصور فوتوغرافية لمواقع تلك البلاد

واما معرض تونس فقد حوى نموذجات حبوب و بزور اقليمها موضوعة في قناني لكنها مصفوفة صفاً معتنى بهِ اعتناءً كثيراً وجدران مخادعهِ موشاة بصور يدوية وفوتوغرافية من صنع الفرنساويين لان التصوير مكروه في شرع تلك الامارة ولا هو بالفن المأثور والمعروف فيها . بقي شيءٌ واحد وهو اني رأيتُ زمرةً من مغاربة تونس يضربون بالطبل وينفخون بالمزمار وهكذا رأيت المعرض المصري غير حاوٍ الاَّ ما يصنعهُ الاجانب من حلي ومصاغ ومأكل وحلوى لا ما يصنع ويطبخ في قطرها السعيد غير اني رأيتُ على باب معرضها جوقاً من الضاربين على الدربكة والنافخين على المزمار والعازفين على العود وشممت عند الدخول اليهِ رائحة الند وشربت فيهِ القهوة على توركا لكن بثمن غالٍ ورأيتُ على جدرانهِ في الخارج رسوم تماثيل واصنام مصر بقلم الاجانب عنها ولعل المعرض العثماني لا يختلف عن هذه الهيئة كثيراً او انهُ يرجح على ما مرَّ لاستحضار ملتزم مرسحهِ زمرةً من القيان الحسان من اطراف الشام واواسط لبنان لابساتٍ ملابس مهجورة استلفاتاً للنظر واستجلاباً للمتفرجين يُسقى في احدى زواياهُ الضيقة القهوة على توركا والاركيلة بالفحم الحجري فاظنهُ واظن سابقيهِ غير فالحين

وبما ان الجولان بين المعارض المتباعدة وطروء البرد القارس المستولي على باريس من قبل ومن بعد وصولي اليها ألمَّا بي حتى اضكناني خرجت من المعرض على امل الرجوع اليهِ عند الاعتدال في الهواء وسكون الريح الصرصر لافي الشرح عن باقي المعارض

وفي السابع عشر من الشهر رحت صباحاً الى قصر اللوفر الموقوف

للعاديات والتصاوير فدخلت الى الاروقة السفلى منه المعدة للعاديات والآثار القديمة فوجدتها متلاحقة متلاصقة مملوءة الجوانب طولاً وعرضاً بانصاب وتماثيل والكثير منها بالغ حد القدم ففيها الفنيقي وكله عليهِ اثر مرور الدهر وبري المدى لا تستجلي العين صورة حروفهِ والمصري باشكالهِ والوانهِ السمراء والحمراء والسوداء واليوناني والروماني وكثير من آثار الاعصر الوسطى بعضها كامل وغير مخدش وبعضها مهشم بكسرٍ في احدى الاعضاء والبعض مشوه مفقوء العين او مقطوع اليد او الاصابع ورأيت فيها تماثيل يونانية متوغلة في القدم اذ يسبق تاريخها عصر منحوتاتها المألوفة وذلك ان شعور رؤوسها جدائل مرسلة على القذال وحول الجبين تحاكي في شكلها آثار التماثيل البابلية والمصرية ثم صعدت الى حيث مجامع الصور فرأيت جدران رواقاتها العديدة مغشاة باحسن قطع التصاوير المصنوعة بقلم ابرع المصورين يبدأ تاريخ صنعها منذ سنة ١٢٠٠ ميلادية مقسمة على القرون الماضية منذ ذلك التاريخ لكل قرنٍ رواق مخصوص ووجدت رجالاً ونساء من اهل الفن جالسين على منصات عالية او واطئة بحسب مواقع علو او وطوء الصور على الجدران ينسخون ما يختارون نساخته منها . ولعلي اسفت اذ لم يقضِ عليَّ بادنى خبرةٍ او معرفة بهذا الفن الذي يسميهِ الافرنج بالنفيس ليكون المامي فيهِ وسيلةً للتلهي عن شر الصور الحية المتنفسة . ثم خرجت من هذا المتحف مفكراً بشدة تزاحم الافرنج على اقتناء ما يحسبونه نفيساً منها وتغاليهم البالغ حد الغرابة في اثمانها فقد بلغني انهم ساموا شراء صورة لا يزيد حجمها عن الشبرين تربيعاً بمبلغ ناهز الثمانين الف ليرة

وبعد ظهيرة النهار المذكور رحت الى بورصة القراطيس والاوراق المالية لارى رجلاً أوصي بي اليهِ فسمعت قبل اقبالي عليها باربع او خمس دقائق جلبةً كانت تتعالى كلما اقتربت منها ولما اشرفت عليها وجدت ازدحاماً في باحتها الخارجية قضى بان ادافع للوصول الى بابها بالمنكب والايدي سيما

بعد دخولي الى بهوها الداخلي حيث كان الزحام على اشده حتى اني لم اصل
الى الرجل المقصود الذي وجدته جالساً على كرسي مقيد في احدى العضائد
الأ بشق النفس فلما سلمته كتاب التوصية نهض عن كرسيه والح عليَّ
بالجلوس عليهِ لكن لما شعرت باني صرت عليهِ هدفاً لاعين الناظرين نزلت
عنه وودعته على ميعادٍ من اللقاء ومنها سرت الى بورصة التجارة فوجدتها
هادئة ساكنة لا يُسمع فيها غير صدى الهمس ان كان له من صدى تساوي
باتساعها بورصة الاسكندرية ثم رحت منها الى البنثيون حيث مدافن اعظم
رجال فرنسا فلما قابلته قرأت على عتبة بابهِ العليا "هذا مدفن الرجال
الممتن اليهم الوطن" فالفيته عند دخولي اليهِ كنيسة مشيدة الاركان
عالية البنيان لطيفة الشكل والهندام مرسوماً على حيطانها الاربعة صور
مواقع تاريخ كنيسة فرنسا لحوادث جهاد مبشريها ومشاهد استشهاد قديسيها
ومعامع ملوكها المتنصرين والوثنيين وصورة الحفلة التي تنصر فيها كلوفيس
الغوتي. واغرب ما رأيت فيها الصنم الكبير الحجم الذي وضع حديثاً على المذبح
الاول في تلك الكنيسة الممثل الحرية بشخص غادةٍ حاملةٍ بيمينها غصناً من
الغار . ولا خفاء ان البنثيون كان كنيسة قبل الثورة الاولى اخذتها حكومتها
اذ ذاك من جملة ما اخذت من الاملاك المختصة بالعبادة والاكليروس
والحقتها باملاك الامة . فلم انتهِ من التفرج على ما في صحنها حتى اوشكت
الشمس ان تغيب فرجعت الى النزل وبعد تناول العشاء ذهبتُ الى تياتر
مارتن المختص بالمشخص الشهير مسيو كوكلين فدخلته في الساعة الثامنة بعد
الظهر فوجدته غاصاً بالحضور ولولا مساعدة صديق لامتنع عليَّ الحصول على
تذكرة الدخول وفي الساعة الثامنة ونصف ارتفع ستار المرسح وبعد هنيهة
برز كوكلين فدوى المكان وارتج تصفيقاً له وهكذا كان كلما اضحك بتشخيصهِ
او ابكى يقوم له الحضور تكريماً وتهليلاً حتى اذا انتهت فصول الرواية رجعت
الى فراشي مفكراً كيف يكافأ من يبرع في حرفتهِ في هذه البلاد وكيف

يُعرض عمن نجب في بلادنا في امر من الامور

لما اصبح النهار التالي سرت لزيارة متحف الآثار القديمة او التي اوشكت لقدمها ان تبلى ويسمى موزه كلاني فوجدتهُ ديرًا قديمًا اخذتهُ الثورة الفرنساوية فيما اخذت من الاكليروس وجعلتهُ معرضًا للملبوسات ولكل اثر قديم فشاهدتُ فيهِ فردة حذاء لنابوليون الاول وزوجًا من نوعهِ كان لزوجتهِ الاولى جوسفين ضمن محفظة موصدة غطاؤُها من البلور واشياء غيرها لملوك فرنسا واعظم رجالها لا تُشرى بفلس لو عُرضت على مَن لا يُقدّر لها قيمةً ورأيت كثيرًا من صور القديسين واكثرها ايقونات بعيدة العهد والقِدَم معلقة صفوفًا في اروقةٍ احط مقامًا مما لغيرها من الآثار جميعها ملساء بالقلم والشكل البزنطي التام وكلها تمثل قديسين وتشخص حوادث واقعةً في الكنيسة الغربية دون ان يكون بينها صورة لقديسٍ او لحادثٍ شرقي مما رجح عندي ان الكنيسة الغربية لم تعتمد التماثيل والمنحوتات في معابدها الّا بعد الانشقاق ولسوف زداد ثبتًا في ذلك عند زيارتي رومه ومدن ايطاليا ومتاحف انكلترا

وفي الثامن عشر من الشهر رجعت رابع مرة الى المعرض فدخلت الى القصر البديع الذي شيدتهُ حديثًا حكومة فرنسا مستودعًا لآثار الفنون النفيسة وهو المسمى بهذا الاسم فرأيت في فنائهِ المتسع اشكالاً من التماثيل الحديثة المصنوعة من النحاتين الفرنساويين بينها قطع يعجز القلم عن وصف سموّها واتقانها ولو لم يكن عليها مسحة الحداثة لعُدَّت من ابدع المنحوتات القديمة ثم صعدتُ الى الطوابق العليا حيث تُضمد التصاوير اليدوية المرسلة الى هذا القصر من المصورين الفرنساويين ومن مصوري الامم المشتركة في المعرض العام فرأيت للصين حجرًا مخصوصة في القصر حوت شيئًا كثيرًا من مصنوعات مصوريها الممثلة هيئات رجالها ونسائها بالنواصي المستطيلة والاعين المخزرمة الضيقة والشارب الرفيع المتدلي. وفيهِ لليابان مخدع مخصوص حوى ما يحاكي ملامح الصين هيئةً وملبسًا واما الحجر المختصة بالايطاليان

فقد اشتملت على ما يستوقف النظر ويحيّر الفكر لنفاسة تصاويرها والحق يُقال ان الفرنساويين والايطاليان فرسا رهان في هذا الفن النفيس ولهما القدح المعلّى بهذه الصناعة بين جميع الامم . وقد رأيت في القصر لكل دولة من الدول المشتركة في المعرض حجراً مخصوصة لمصوريها البارعين كما يصبح القصر سوقاً تتبارى بهِ اهل هذه الصناعة في مشارق الارض الى مغربها ومن قديمها الى حديثها . ومنهُ ذهبت الى سرايا الانفاليد فدخلتها ورأيت ما لو اتكلف الشرح الوافي عما احتوتهُ لملأت اسفاراً ضخمة لكن ما لا يُدرك كلهُ لا يترك اقلهُ فوجدت في اروقتها السفلى من الالبسة العسكرية القديمة ومن الاسلحة المهجورة ومن تماثيل الفرسان الراكبة والمشاة الزاحفة منهم المدرع بزردٍ من قمة رأسهِ الى اخمصهِ ومنهم من يقي صدرهُ بدلاصٍ ومنهم لابسٌ مغفراً من الفولاذ على شكل قصٍ اضلاعهُ متلاحمة يقي من السهام والرماح ولا يمنع من الحركة الى غير ذلك من ضروب المجنّات والتروس والخوذ والدروع شيئاً كثيراً مما اضاعت الاختراعات الحديثة فضلها وجعلتها اعضاء اثرية في جسم عملاق الحرب . ثم رأيت على طبلات متناسقة من انواط الحكومات الفرنساوية ونياشينها القديمة والمستحدثة عدداً عديداً اكثرهُ يُعزى الى ايام نابوليون الاول . ثم خرجت من هذه الاروقة ومشيت الى كنيسة هذه السرايا الفخيمة العظيمة حيث يوجد فيها رمس ذلك الرجل العظيم الذي جيء برمتهِ من جزيرة القديسة هيلانة في سنة ١٨٤٠ فوجدتهُ تحت قبتها الوسطى العليا في منخفضٍ مستديرٍ وسط صحنها يحيط اعلى هذا المنخفض شبك من المرمر يطل منهُ على قبرهِ الجامع بين غاية الفخامة ومنتهى البساطة فهو كتلة كبرى من البورفير (الحجر السماقي الاحمر او الدلغاني اللون) من معدن لحدي ابنة الامبراطور قسطنطين الكبير وامهِ القديسة هيلانة ومن معدن اعمدة جامع ايا صوفيا وبعض اعمدة كنيسة مار بطرس في رومه اللائي رأيتها بعد ذلك في سياحتي كما سيجيء بك . يحيط بهِ على

الاستدارة تماثيل مجنحة من الرخام الناصع البياض بين الواحد والآخر حزمة مركوزة من اعلام المالك التي غلبها في حروبهِ والارض حول مدفنهِ هذا مفروشة بالفسيفساء مكتوبًا عليها اسماء الوقائع المشهورة التي فاز بها على جيوش الدول ورأيت في احد هياكل هذه الكنيسة قبرًا لاخيهِ يوسف وفي غيرهِ لاخيهِ جروم حتى خلت السرايا باسرها يغشاها سناء مجدهِ اللامع كما خلت ظلهُ الظليل ما برح ليومنا هذا يظلل كل المعالم والمعاهد الفرنساوية دون كل الملوك الذين تعاقبوا عليها ودون من وُصف منهم بالنبل والقداسة وذلك على ما اظن لشدة قابلية هذا الشعب الكريم لنسيان ما طواه الزمان من تاريخهم المجيد او لشدة تأثرهِ بسحر الانتصارات القريبة العهد وانشغافهم بمن اتاهم ويأتيهم بها لاني لم أرَ محفلاً او مجتمعاً منهم سواء كانوا مخلصين الى الجمهورية الحالية ومنكرين على نوع الحكومة الملكية او اشتراكيين او غيرهم من الاحزاب المتعددة الموجودة في البلاد الاَّ وينهضون باسرهم عند ذكر اسمهِ احترامًا و يصيتون بتكريمهِ تهليلاً وعرفتُ انهم يجلون آثارهُ لدرجة التبرك بها لو كان لهم شيء من حاسة الوقار الديني . وقد شاهدتُ عند ما كنتُ حول مدفنهِ رجلاً اجنبيًا عليهِ من هيئة الجلال ما يقضي باحترامهِ لم يرفع عن سهوٍ قبعتهُ صرخ بهِ الوقوف صرخة دوى لها المكان على اتساعهِ وسمعت قائلاً يقول لهُ لو كان في بلادكم رجل مثل هذا الدفين لسجدتم امام مزارهِ . ورأيت من آثارهِ المحفوظة في المتاحف ومن الانصاب والتماثيل المرفوعة لهُ ولرجالهِ وقواد جيوشهِ شيئًا كثيرًا لم يدرك اقلها اعظم ملكٍ قبلهُ تولى فرنسا

ان الفرنساويين قومٌ يعشقون بل يعبدون العظمة الملية مهما اختلفت آراؤهم وصبغاتهم ويجلون من يوصلهم اليها بايّ الطرق سواء كان بالانتصار الملوّث بالدم او بالاكتشافات النافعة او بالمشروعات التجارية الجسيمة ويحبون الكسب و يطلبونهُ بكل الوسائل لكنهم يناقشون عظماءهم الحساب

عن اقل غلط ولا يخجلون فيما لو ذموهم بعد المدح

وفي التاسع عشر من الشهر رحت ثانية الى البنثيون لانهُ لم يسمح لي بالزيارة الاولى ان ارى مدافن عظماء الامة الموجودة تحتهُ ما لم يكن بيدي رخصة من نظارة المعارف فلما حصلتُ عليها وابرزتها للمأمور المناط بهِ الحراسة اخذ بيدي وانزلني على ضوء المصباح في سلم تتصل بدهليزٍ مظلم يؤدي الى تحت الاقبية المقامة الكنيسة عليها فلما وصلت الى النفق الاول بدأ المأمور يريني ويدلني على المقابر واصحابها فكان من اولها رمس الفيلسوف جان جاك روسو وسط قبرٍ لا سواهُ فيهِ وثانيها لحد الفيلسوف ڤولتر وعلى جانبهِ تمثالهُ في قبرٍ آخر ثم اخذ بيدي الى سردابٍ طويل حالك الظلام تتفرع فيهِ حجَر وحنيات تتوسد فيها رمم العظماء على تقاربٍ من بعضها لان الحكومة على ما يلحَظ انتبهت مؤخرًا الى لزوم الاقتصاد في المحل لعلمها بكثرة عدد من يستحق الدفن فيهِ استقبالاً فقربت المقابر من بعضها واوسعت امكنةً لرمم رجالها القادمين ولا بدَّ اليهِ اقلهُ لمدة مائتي سنة انقص الله عدد من يصل اليهِ على ظهور الناس واعناقهم ملوثًا بدمائهم وزاد في عدد من يبلغهُ حاملاً علَم الفضل والرفق بالانسانية . ثم رأيت في احدى حجر هذا السرداب قبرًا لكرنو رئيس الجمهورية الاسبق المتوفى غيلةً من يدِ اثيمة قد حُفَّ مع الممشى الموصل اليهِ على الجانبين بكثيرٍ من الاكاليل المرسلة يوم مصرعهِ من جمعيات فرنسا ومن الملوك والامراء الاجانب واما المرسلة من امبراطور روسيا ومن امراء عائلتهِ فقد افرز لها لكثرتها قبو مخصوص بها . ولحظتُ ان اكثر القبور الموجودة في تلك القرافة المظلمة هي لمشاهير رجال نابوليون الاول. ثم صعدت بعد هذا الطواف بين هذه المدافن الى سطح الارض ومنهُ صعدت على سلم لم اعدَّ درجاتها لكثرتها الى اعلى قبة في البنثيون فاشرفتُ من صهوتها على جانبٍ كبيرٍ من باريس ثم نزلتُ ورحت ثانية الى بورصة القراطيس لاعتفي ممن دعاني لصرف الاحد القادم بضيافتهِ في فرسايل فلم يقبل الاعتفاء . وفي

رجوعي من البورصة مررت بكنيسة نوترضام الشهيرة في تاريخ فرنسا فدخلتها وفي نفسي ان اراها اعظم الكنائس زخرفاً وفخامة فاذا بها دون اكثرهن ظرفاً لكن رأيتها اعظمهن جسامة ذات عضائد ضخمة تحجب الناظر عن مشاهدة اتساعها بنظرةٍ واحدة ولا يحيط بها الزائر الاَّ اذا مشى في كل قسم من اقسامها الثلاثة

ثم خرجت منها اريد زيارة اوتل دي فيل وهي سرايا حاكم بلدية باريس المشهورة بالحوادث الهائلة مدة الثورة الفرنساوية الاولى فلم ارَ شيئاً يليق بشهرتها و بالعظمة والكياسة الفرنساوية سوى اتساعها وضخامة بنائها لكنني تصورت عند وقوفي في الساحة الواسعة التي تقابلها ما كان يوم جاء اليها اوغاد باريس في تلك الجماهير المزدحمة حين ثار بهم ثائر الغضب الوحشي وشط بهم عن اطوار الحلم وسجايا المروءة والانسانية ذلك اليوم الذي جاؤوا اليها شاكين الخناجر ومستلين السيوف ورافعين على عواليهم وهراواتهم رؤوس من ظنوا بهم الخيانة لاوطانهم اولئك الذين لم يكن لهم من ذنب سوى احتفاظهم بالسلطة المقررة وامانتهم لمليكهم الشرعي فقلتُ لنفسي وكأني كنت في غيبوبةٍ هل في الشعب الفرنساوي الحالي مع ما هو عليهِ من العلم واللطف ورقة الطباع وهل في استطاعة حكومتهِ الحالية ما يقي من عودة تلك الايام المخيفة فاجابني هاتفٌ من وراء الغيب يقول دع عنك حسن الظن في الطباع والايام فان الانسان انسان منذ وجودهِ على سطح الارض لا يعصمهُ عن الشر خبرةٌ بسوء عقباه ولا يردعهُ رادع اذا استطاع الى هواه سبيلاً وان البلاد مهما بلغت من الحضارة لا تسلم من الخطر اذا كان نور الدين ضئيلاً وسيف الشرع مغمداً. ثم انصرفت من الموقف اسأل عن مكان الباستيل فقيل لي اصبح قاعاً صفصفاً فاردت الوقوف على اطلالهِ ولو عفت آثارهُ لاناجي صداهُ ولاذرف الدمع على ظلم بانيهِ وعلى جريمة هادمهِ معاً لان الاثنين في نظر العدل آثمان الواحد في سجنهِ فيهِ كما

يُقال اناساً ابرياء والآخر في سفكهِ دون تجريبهِ دماء رجال نيط بهم المحافظة عليهِ والذب عنهُ لان الغاية عندي لا تبرر الواسطة فالباني والهادم اذًا سواء في الظلم والجريمة ولقد ساقتني الهواجس الى تذكر ما لا ينفك عن ذاكرتي من منظر لويس السادس عشر وزوجتهِ ماريا انطونيت في متحف غريفان كروما شعرت بهِ اذ ذاك من انقباض الصدر والتألم لمرأى خدنيّ الغبطة وصنويّ السعادة الانسانية هابطين الى احط دركات الهوان دون ان يأتيا ذنباً غير ذنب النزول من ارومةٍ ملوكية او لانهما لم يحسنا كبح جماح الثورة ابان ظهورها بالضرب على رأسها بما كان ميسوراً لديهما من سياط القوة فما من ناظرٍ كما نظرتُ في ذلك المتحف التمثيلي الاّ ويمسي منكرًا براءة الانسان الاصلية وحنانهُ الطبيعي

ان المطّلع على ما كتبهُ كتّاب هذه الامة والسامع ما يقولونهُ في اجتماعاتهم من تقبيح تلك الحوادث المشومة والتشنيع على فاعليها يظن لاول وهلة انهم ندموا على ما فرط من اجدادهم في تلك الايام ويقول ان من المستحيل على انسالهم حالاً واستقبالاً اتيان مثل تلك الفظائع لكن الخبير بطباعهم لا يرتاح لهذه الندامة لِمَا يرى من ان فيهم رجالاً ما برحوا الى يومنا هذا يتجاسر واحدهم على ضرب واهانة كبير البلاد ورئيس جمهوريتها بالعصا على ام رأسهِ وهو في اجلّ المواقف الاحتفالية. حقًا لم يتفق لامةٍ من الامم ما اتفق لهذه الامة من الجمع بين سمو المدارك والحلم مع النزق والسماجة

ولقد عرفت مدة اقامتي في باريس ان اهاليها جميعًا رجالاً ونساء دائبين على كسب الدراهم كيفما اتفق كسبها سواء كان باللطف او بالقحة فتراهم جائلين في الشوارع يعرضون على المارة وعلى الجالسين في القهاوي الاعيب الاولاد والجرائد وانواع المطبوعات المختلفة بلطف وعياقة فان باعوك غبنوك والاّ اولوك عارضًا مصعرًا وترى خدمة القهاوي والمطاعم

يتقاضونك الاكرام قبل الثمن لكن لا يسمونهُ بالبخشيش الذي طالما عاب الفرنجة بهِ الشرق واذا دخلتَ الى محل من محلات الفرج رأيتَ في بابهِ من يسألك استيداع ثوبك او عصاءك او مظلتك او شيئاً تحملهُ كما تجبر عند انصرافك ان تحفهم باجرة الخفارة عليهِ ويكلفونك عند الدخول الى النوادي والمتاحف والى كل معهدٍ صناعي او علمي او سماوي لمشترى وريقات لا تفيدك اذاحققتَ علماً بالشيء . واذا دخلتَ الى حانوتٍ وكانت صاحبتهُ غادة وداحاً لابتياع حلى او سلعة سامتك البائعة ثمناً يساوي ثلاثة اضعاف ثمنهِ الحقيقي فان شريتَ عوملت بلطفٍ لا مزيد عليهِ والاَّ قلبتْ لك ظاهر المجن . والاعجب من كل ذلك ان من المخدرات (استغفر الله) من يتخذن مراحض في معاطف الطرق وفي بهوات نفس المعرض العام ويدعون اصحاب الحاجة اليها ببدلٍ معلوم قدرهُ عشرون سنتاً فاذا نهض الطالب دون قضاء الحاجة لامساكٍ عارضٍ وهمَّ بالخروج من باب الكنيف ثم احس وجلس ثانيةً على المقعد تقاضتهُ اجرة مرتين فان ابان العذر علتْ وجهها صفرة السماجة لا حمرة الخجل وزوَّدتهُ باشنع الالفاظ — حكاية كنت لا اثبتها لولا النكتة فيها

وقد عرفت ايضاً ان لاهالي باريس موارد للكسب غير قليلة من الغرباء النازلين في حماها ليس في ايام المعارض فقط بل على دور الايام والسنين وذلك لما في موقعها الطبيعي بالنسبة لشمال اوربا من الاعتدال وما في هوائها من اللطف وما في مبانيها المغشاة بالالوان الزاهية من الظرف وما في شوارعها الواسعة المظللة بالاشجار والمجنب بعضها بحدائق مستطيلة ينمو النبات والزهر فيها على رشيش نوافر الحياض وما في غيدها من لطف المعطف وتيه الدلال خصائص جعلتها الكعبة المقصودة على تعاقب الشهور من اغنياء العالم ومحبي الترف واللهو اما انا فقد جئتها والربيع البس جونها الحلة السندسية والزهر ارَّج ارجاءها والهزار تغنى على دوحاتها والقمري

رجَّع بين افنانها حتى كدت لولا البرد القارس احسبني في بلاد الشام تلك البلاد التي لو اعانها القدر والهم سكانها لما فيهِ خيرهم وخير اوطانهم وهم الآن تحت ظل خيرة الملوك في حب العمران لكانت شامةً على وجه الارض ولجرَّ اهلوها ذيلاً من الفخر طالما جرَّهُ اجدادهم في غابر الازمان على ان هذا الخير والعمران على ما رآهُ الحكماء لا يُنال الاَّ بتحكيم النصفة بينهم والاقلاع عما لازموهُ من الخلف والتشيع الباطل اذ لا يغيّر الله ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بانفسهم

وقد عرفت لباريس ولفرنسا عموماً موارد للكسب غير ما يرد اليها من السياح وذلك من صناعة البلور ومعامل الصيني والاجواخ المنفردة بين جميع الممالك باجادة صنعها ومن معامل المنسوجات والمحبوكات الدقيقة التي لم ينازعها لحد الآن فيها منازع لان مصنوعات معمل سفر في الصيني ومعمل كوبلين في نسج البسط والمطارف وحبكها لمن ابدع ما وصلت اليهِ الصناعة في العالم اجمع ولها في صناعة الخزف والقرميد والصياغة والترصيع وما يكثر استعمالهُ بين الناس من صغير المواد الى جسيمها ومن الاعيب الاولاد حتى النظارات العظمى اتقان مشهور وموارد كسبٍ لا تُقدَّر لكن غلاء اثمانها جعل مصنوعات المانيا غير البالغة هذا الحد من الجودة ان تنازعها الرواج في اسواق المعمور لا بل ترجح عليها نفاداً لرخص اثمانها

ولما كان من غرائز هذه الامة الاختراع والاستنباط والبحث عما يؤدي الى ثروتها العمومية رأت حكومتها الدائبة على موازرة رعاياها فيما يعود عليهم بالنفع والربح ان في مزية استجلاب الناس الى عاصمتها وبلادها داعياً لازدياد سكانها وعمرانها فعمدت منذ اوائل الجيل التاسع عشر او بعد مضي ربعهِ الاول الى اقامة اسواقٍ كانت اولاً خصوصية ثم تدرجت بعد مضي نصفهِ الاول الى ان جعلتها عمومية دولية باذلةً دون اتقانها ما عند شعبها من حسن الذوق وبراعة الترتيب حتى اشتهرت باريس باجادة المعارض فلما

جاءها هذا المعرض الاخير الذي تكلفت عليهِ الحكومة ضعف ما كلفها سابقهُ لم تكن لحد ما فارقتها بالرابحة بل ولا هي بالمستوفية خمس قيمة ما صرفتهُ وذلك لان الاقبال عليهِ كان قليلاً وعلى خلاف المأمول لدواعٍ اولها واعظمها قلة او عدم اهمية الاختراعات التي ظهرت بعد آخر معرضٍ وثانيها امتناع الملوك والامراء عن زيارتهِ لعلمهم بخلوهِ من البدائع المستوجبة الزيارة او لدواعٍ سياسية وثالثها غلاء كل شيء غلاء غير مألوف ورابعها الكساد الذي عم جميع المعارض حتى ادى بهم الى الافلاس كما علمت ذلك بعد وصولي الى ايطاليا

وبعد ظهيرة التاسع عشر من الشهر رحت الى منتزه بارس المسمى بوادوبولون فرأيتهُ فسيح الارجاء تظللهُ الاشجار الغبياء متناسقة الوضع يتخللها طرقات منظمة وشعاب متعرجة وصخور صناعية يجري منها ماء زلال وبحيرات تجري فيها زوارق المتنزهين ومقاعد متفيئة بالادواح الباسقة فاستأنست بهِ كثيراً بعد وحشتي في مدينةٍ غاصة بالسكان وارتاحت أذني لهدوهِ وسكونهِ بعد ضجيج يصم السمع ثم عدت الى النزل وبعد العشاء رحتُ الى التياتر المختص بالمشخصة الشهيرة سارا برنار فلم يتيسر لي الدخول اليهِ لان محلاتهِ وكراسيهُ بيعت اوراقها منذ ايام فرجعت على نية ابتياع ورقة ولو قبل اسبوع لا حباً برؤياها وسماعها بل كي لا يقرعني المتفرجون اني جئتُ باريس ولم اسمعها . وفي النهار التالي جئت المعرض صباحاً ودخلتُ تواً الى القصر الحاوي آثار فرنسا القديمة المقابل قصر الفنون النفيسة فاول شيء سعيتُ الى رؤياه كان الجانب المصمودة فيهِ الآثار الكنائسية العتيقة الحاوي صوراً وايقونات وتماثيل وحللاً كهنوتية وادوات التقديس مما يعسر تعدادها لكثرتها ثم اخذت افتش الاقسام الحاوية آثار ما قبل القرن الحادي عشر فلم اجد اثراً للتماثيل فيها حتى ان البروز في وجوه الصور الملساء عن مساواة الجسم لم يظهر في الايقونات الا في آخر القرن العاشر وقد رأيت

عددًا عديدًا من الايقونات القديمة جدًا كلها على الشكل البزنطي التام غير اني وجدتُ تمثالاً واحدًا من الذهب الخالص مكتوبًا على ورقةٍ ملصقة باسفلهِ بقلم ادارة المعرض "انهُ صنع للقديس فوا" وهذا عاش في القرن العاشر والغالب على الظن انهُ صُنع بعد وفاتهِ بسنين لان تقديس الابرار لا يتم كما لا يخفى الاَّ بعد وفاتهم بزمن طويل

لربما يعجب القاري من عنايتي بهذه المسألة فلي على ذلك عذران الاول بيان زمن دخول التماثيل الى كنائس الغرب والدلالة من الآثار الواصلة الينا انها لم تعم فيها الاَّ بعد الانشقاق والثاني حبي توحيد هيئة المعابد المسيحية في العالم النصراني والابتعاد عما يقع من اللبس عند المصلين على تعاقب الايام وازدياد امد البعد عن مصدر المسيحية ان كنائسها والهيا كل الصنمية شيئًا واحدًا . وسترى في ما يلي تأكيد ما وصلت اليهِ في هذا المبحث من تفقدي ودرسي الآثار في متاحف انكلترا ومدن ايطاليا وروما العظمى ثم اعدتُ الكرة على معارض الدول فدخلت الفرنساوي اولاً وامعنتُ النظر فيما حواهُ من نفائس المصنوعات فاعجبني منها آنية البلور البالغ منتهى الصفو والشفوف كما اعجبتني آنية الصيني المصنوعة في غير معمل سفر الشهير حتى كدتُ لا اميّز بين مصنوعاتهِ ومصنوعات غيرهِ ورأيت نسيجًا لتغطية الحيطان موشًّى بازهار وصور وتلاعيب يأخذ بالابصار جمالها ويحار في دقة حبكها وبراعة اتقانها وهو من مصنوعات معمل كوبلين ثم دخلتُ الالماني فلم يشغلني الوقوف فيهِ اكثر من برهة وجيزة جعلتني ان احكم ان الالمان لاتخاذهم قاعدة الجمع بين رخص الثمن والجودة لم تبلغ مصنوعاتهم مبلغ الاتقان ثم النمساوي والمنكاري فاستحسنت مصنوعاتهم خاصة بالترصيع والتمويه ولهم في ترصيع الحلى بقطع رقيقة من العقيق البلوري المشابه الياقوت اتقان لا ينكر ثم الايطالياني فراق لي فيهِ ظرف ولباقة اطارات المرايا واسرَّتها المعدنية البالغة غاية الحسن والجودة ثم الروسي وظننت قبل الدخول اليهِ انني لا اجد

فيهِ شيئًا يُستحسن لما نقرأهُ في صحف القوم وعلى الخصوص صحف الانكليز
من تأخرها في الصنائع وفي كل شيءٍ حسن فاذا بهِ من مصنوعات البلور
والاجواخ والفرو واطقمة الخيل ما تفضل بها على اكثر مصنوعات الممالك
الأ فرنسا وفيهِ رأيتُ الخريطة التي اهداها قيصرها الى بلدية باريس وهي
بقدر الذراع مربعًا حوت رسم مملكة فرنسا وكل اقليم بجوهرٍ كريم غير ما
ترصع بهِ الاقليم الآخر من ياقوت والماس وزبرجد وعقيق الخ وتلبّس ما
حولها وما فيها من البحور باللازورد الازرق مكتوبًا عليها اسم كل اقليمٍ
بحروفٍ من ذهب هدية سنية كلّفت خزانة القيصر مليونًا ونصف مليون من
الفرنكات ثم زرت المعرض الانكليزي فرأيت فيهِ من اثاث البيوت ورياشها
ومن الآنية الفضية الثقيلة ما اعجبني متانتهُ وسقالهُ واضحكني ثقلهُ وضخامتهُ
ثم البلجيكي فرأيت فيهِ ما يضاهي مصنوعات فرنسا لطفًا وخفةً وعلى الخصوص
من الزجاج والمعادن والساعات ثم السويسري فاحسن ما فيهِ الساعات
والانوطة والمصاغات البديعة ثم خرجت من احد ابواب المعرض العام متعبًا
من المشي والوقوف ست ساعات دون راحةٍ

فرسايل

وفي الاحد الواقع في العشرين من الشهر جاءني الصاحب الذي دعاني
لصرف النهار معهُ في فرسايل فرحتُ واياهُ الى محطة السكة فركبنا قطارها
المؤدي الى سن كلو المشهورة في تاريخ آل بربون فوصلناها بعد ما مررنا
بالموقع الذي مات بهِ الشهير غامبتا ومنها سرنا في نفس القطار الى محطة
فرسايل حيث نزلنا وركبنا منها الى قصر كرينو الكبير فرأيتهُ ذا طابقٍ
سفلي فقط ليس عليهِ لبساطة بنائهِ علامة لابهة نابوليون الاول الذي كان
ياوي اليهِ احيانًا ووجدتُ في حجرةٍ نفس المقاعد والكراسي التي شرّفت كما
زعموا بجلوسهِ عليها ورأيت على جدرانها تصاوير كثيرة صنعت في ايامهِ ثم

مشينا للتفرج على ما يسمونهُ بقصر كرينو الصغير فوجدتهُ اصغر من الاول لكن لهُ طبقة علياء كانت تأوي اليها ماريا انطونيت زوجة لويس السادس عشر ابنة امبراطور النمسا تغشَّت كل مخادعهِ بقطعٍ كبيرة من الصور بينها صورتها وفي حجرة اخرى رأيت صورة نابوليون الاول وصورة ابنهِ الدوق رشيستات وفي غيرها نظرت سرير ماريا انطونيت بفراشهِ ودثارهِ ثم خرجنا من هذا القصر وسرنا الى الجنينة القريبة منهُ لنرى الاكواخ التي كانت تنتابها الملكة المذكورة لمناظرة احتلاب البقر واصطناع الزبدة والتي كانت فيها تعمل بيدها على ما قيل هذه الخدمة فوجدت كل شيء على ما كان الّا اهلها والّا الحيوانات الحلوبة فتأثرت لحؤول الاحوال وخلو الديار من لوامع الانس والمجد الباهر . ثم زرت مستودع المركبات المذهبة التي صُنعت لنابوليون قنصلاً وامبراطورًا وعريسًا لزوجتهِ الثانية وبينها مركبة بديعة الشكل والتزويق صُنعت حديثًا للامبراطور نقولا الثاني عند زيارتهِ باريس . ولما اعياني المشي والوقوف رحت والصاحب الى مطعم فخيم في فرسايل فتناولت غذاء عليهِ نفحات ملكية المكان ثم خرجت منهُ للفرجة على قصر فرسايل الكبير فوجدتهُ قصرًا توسط بين الفخامة والبساطة لكن يوجد فيهِ قاعات لم ارَ مثلها في العظمة والاتساع ملبّسةً جدرانها وسقوفها بانقن انواع التصاوير حتى لو فتش الزائر يومًا كاملاً على حائط او سقفٍ خالٍ منها لاعجزهُ التفتيش وجميعها احسن ما جادت بهِ اقلام المصورين في رسم حروب فرنسا الواقعة منذ الجيل الثالث عشر الى التاسع عشر بملوكها واعاظم رجالها واكثرها تمثل نابوليون الاول محاربًا منتصرًا او راكبًا في محفلٍ تحدق بهِ الابصار ورأيت على جدران احدى المخادع صور ستة رجالٍ من علماء مصر وكبرائها منها واحدة لعالمٍ من عائلة السادات الوفائية واخرى للمعلم جرجس الجوهري واخرى للشيخ الشرقاوي . ثم زرت قسمًا من الغرف التي كانت تأوى اليها ماريا لويزا زوجة نابوليون الثانية عند نزولها في القصر المذكور فوجدت فيها

كل شيء كما كان في ايامها من مرايا وكراسي ومساند ومقاعد وارائك ومنصّات وحمام بادواتهِ ورياشهِ كلها تختلف في اشكالها وهندامها عما صارت اليهِ في ايامنا من التحسين الأ في اشكال الثريات وصفاء بلورها فان الفرق اقل من ان يدرك مما دل ان البلور لمن اعرق الصنائع جودةً في فرنسا . ثم خرجت من القصر اندب شقاء الملوك قبل الصعلوك حتى اذا وصلت لموقف المركبة اشرتُ الى سائقها ان يعرج بي على جنات فرسايل لاشتم نسيم الخلاء فشجاني تغريد الطير على هاتيك الخمائل وجذبني شبح كنت اتخيلهُ يتراوح بينها تارةً اتوهمهُ طيف لويس الرابع عشر مشيد القصر وبانيهِ ومخطط هذي الجنان وغارس اشجارها وطوراً اظنهُ خيال نابوليون الاول الخاطف التاج والملك من سلالتهِ واعقابهِ والمزيّن القصر بصور انتصاراتهِ ومفاخرهِ الذاهبين الواحد بعد الآخر والتاركين في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء انملهُ العشر وقد يُظن ان الحامل لي على ايراد هذه الجملة الاخيرة خطرات شعرية لا حالة شعرت بها في تلك الحدائق اقول للظان انك في تيهٍ فلو فطنت لمشاعر نفسك عقيب انصرافك عن مشاهدة آثار تخلفت عن ملكين عظيمين جالا بين الناس جولة مسلّطٍ معتز ثم ماتا بعد ان اضاعا العز والملك عنهما وعن انسالهما لصدقت اني كنت مشعراً بما قلتهُ والسلام

باريس ايضاً

رجعت الى النزل والشمس آفلةً فآويت الحجرة وطفقتُ اتأمل فيما طرأ على مملكة فرنسا منذ قرنٍ ونصف فرأيت اهاليها انقسمت خلال هذه المدة الى شطرين احدهما وهم رجالها المتفلسفون الذين هتكوا بما قالوهُ وكتبوهُ الستار المنسدل على الافهام من جهة العقيدة والملك وثانيهما وهم ملوكها واصحاب السيادة من اكليروسها الذين اساؤُوا الدفاع عن خصائصهم ومزاياهم باساليب ملتوية عجلّت عليهم يوم القضاء حتى اذا جاء الانقلاب سنة ١٧٨٩

كانت الملة باسرها غاضبةً على اهل السيادة وعلى ايمة الدين معاً ولقد كان في الشطر الاول رجال لفظتهم جهنم نسبتهم الى الشيطان اولى منها الى الانسان خلت صدورهم من عواطف الرفق والحنان وفي الشطر الثاني ملوك اساؤوا السياسة في الرعية وسادة عموا عن الصواب واحتفظوا بمزاياهم وترهاتهم ايّ احتفاظ ففي بدء الامر كان الفريق الاول يسترحم انالتهُ بعض الحقوق استرحاماً وكان الفريق الثاني يأباها عليهِ حفظاً لسيادتهِ المطلقة ومزاياهُ الموروثة الى ان اصبح الاول يطلبها اقتراحاً وامسى الثاني يعطيها مضطرّاً لكن بعد ترددٍ مشوم الى ان تقوّى تدريجاً عضل الاول وتلاشت منعة الثاني لدرجةٍ غدا الملك لويس السادس عشر لعظم انكسار شوكتهِ وتخاذل انصارهِ مجبوراً ان يسلّم للاول زمام قيادتهِ وان يصطبغ ارضاءً لهُ بصبغة الجمهورية الحمراء وان يرى صاغراً ولي عهدهِ الطفل موضوعاً على رأسهِ شعارها في نفس قصرهِ من ايدي اسافل لا دين لهم ولا زمام . ولما كان من خلة الاوغاد التمادي في البغي اذا أُتيح لهم الغلبة تطاول هذا الفريق البائع الدين والعدل بابخس الاثمان على لبّة السلطة المشروعة وحكم بالاعدام على الملك المذكور ثم على زوجتهِ الملكة واماتهما ظلماً وعدواناً استئصالاً على زعمهِ لشأفة الملكية من فرنسا ثم جعل دأبهُ ستر الفظائع واراقة الدماء بستار من اسماء الحرية والعدالة والاخوة حتى اصطبغت انهار هذه البلاد وجبالها ووهادها بدماء الابرياء ونقوض كل مشيدٍ فيها لحد ان وقعت في دركات العجز والافلاس . ثم ادّت بي سلسلة التأمل فيما كان للبحث عمن رأب صدعها وجمع شتاتها وضمد جراحها بعد هاتيك الكوارث والاحن التي لو اصابت غيرها من الممالك لهوت بها الى الدرك الاسفل وجعلتها اثراً بعد عين فوجدتهُ بعد التفكر والامعان في نشاط اهلها وانكبابهم على العمل ونبذهم التشيع للمذاهب الدينية حتى ترى الاسرائيلي فيهم صاحب الكلمة العليا وتضافرهم في كلما يعود بالنفع على اوطانهم وفي عدم اذدخارهم سعياً في

اكتساب منقبة حسناء او جهداً في استدرار اعقم الموارد هذه في الاسباب الاولى التي نهضت بالامة بعد كبوتها

ان لي عن هذه الامة كلاماً لا بأس عليَّ من الاجتزاء عن طويله بقليل منهُ يشفُّ عما لاح لي من شؤونها واخلاقها فقد رأيتها قوماً شنشنتهم حب الاختراع والاستنباط كأن الهندسة واللباقة لاصقةٌ بهم منذ التكوّن والولادة ورأيتهم يصدقون في القول والعمل ما دام الصدق ميسوراً لديهم يقتصدون في معايشهم لدرجة لو فتشت بيوتهم لما وجدت شيئاً فوق الكفاف ولو بحثت في مطابخهم لما وجدت اناء فوق الاحتياج يعرفون بالبخل وبالبعد عن الاسراف حتى في مواليدهم فقد يتباعد الزوجان تذرعاً لاقلال النسل وحرصاً على صحة الزوجة و بضاضتها وعلى ما في جيب الزوج من المال — حكاية كنت لا اثبتها لغرابتها لو لم يؤكدها لي ثقاتٌ منهم واجانب عائشون بين ظهرانيهم حتى خيف من تضاؤل الامة وتناقص نفوسها مما جعل مدبريها وعلماءها يضربون اخماساً في اسداس بحثاً في تلافي هذه العلة الوبيلة وفي ما يرجع للوفاق الزوجي المزية الاولى المؤسس عليها الزواج او في ما يرغب الفتيان بالزواج الباكر فلم يهتدوا حتى الآن الى وسيلة تؤدي الى المطلوب فالبعض اشاروا باستئصال شأفة البغايا ليس لان في وجودهنَّ ما يمنع الزيجة بل لان الصبي يوم تنحل عنهُ التمائم يغشى بيوت العواهر فلا يصل الى السن اللائق بالزواج الا ويكون في الصيف ضيعت اللبن عاجزاً عنيناً لا يكره اذا تحجب عن عرسهِ او تحجبت هي عنهُ والبعض قالوا بوضع ضريبةٍ فادحة على من يبقى عزباً الى سن معلوم وآخرون قالوا بان يُعطى مساعدة مالية من خزينة الدولة للوالدين على نسبة عدد ما عندهما من الاولاد الى غير ذلك من الآراء التي لم ينتهوا للقرار على شيء منها وقد راقبت بذاتي مراراً ايام كنت في مدنها الكبيرة وفي عاصمتها باريس خاصة وعددت من الالوف الكثيرة المارّة امامي في الشوارع فلم ارَ من الحوامل

الفرنساويات غير واحدة فقط لكني عددت مئات من الاغراب الزائرات المعرض

وفي صباح النهار التالي راجعت مذكرة الفُرَج المقتضي عليَّ زيارتها فرأيت اسم مرصد النظارة المشيد قصرها في نفس المعرض العام قرب برج ايفل فقصدتهُ وقبل الوصول اليهِ وطَّنتُ نفسي ووضعت نصب عينيَّ عجزي عن شرح دقائقها الاَّ ما كان ظاهرًا منها يهون عليَّ البيان عنهُ لاني لم اعتد منذ الصبا وصف المرئيات حتى اضعتُ اليوم في كبري مفتاح القياس والمكيال وصرتُ اهاب الدنو من وصف علوٍ وطول وعرض لاَ عند الاضطرار الاتم واعتصار القريحة فاذا وُجد بي قصور بهذا الخصوص فالمعذرة مرجوَّة

دخلتُ المعرض العام هذه المرة دون دليل او رفيق واتخذتُ ادلتي الخفراء الوقوف في فسحاتهِ ومعاطفهِ الكثيرة حتى اذا وصلتُ الى قرب برج ايفل وجدتُ هنالك ايوانًا بشكل نصف دائرة اديت في حانوتٍ عند احدى طرفيهِ رسم الدخول ثم ولجتُ بابًا ومنهُ الى آخرٍ حتى انتهيت الى خزانة مظلمة لاح لي ان فيها نسوةً يلحنَ بقوارير في ايديهنَّ ملئها سائل يلمع ابيض في الظلام يكلفنني همسًا وانا في ذلك الخندس الحالك شراء قارورةٍ من هذا السائل فابيتُ لاني خبرتُ عيافة القوم باكتساب الدرهم ثم أُصعدت ومن صادفتهم من السياح الى مخادع عليا فاذا بها مظلمات كالاولى لكنها تختلف في محتوياتها ففي واحدة منها رأيت فوهة بركانٍ بنارهِ ولهيبهِ وفي الثانية هيئة البحار المتجمدة في القطب الشمالي وفي الثالثة صورة بحيرة نارية تموج بمعادنها المصهورة وغليانها وفي غيرها غيرها من المرئيات الطبيعية ورأيتُ على كل بابٍ من ابواب هذه الفُرَج امرأة تحمل قمطرًا ملئهُ كتب صغيرة تدعو كل داخلٍ الى شراء واحدٍ منها فاشتريت كثيرًا ولم آسف لضياعها او نسيانها في حجرة بحر الظلمات واخيرًا أُدخلنا الى مخدع واسع بنار بالكهربائية ولما تم اجتماع المتفرجين وتم جلوسنا على مقاعدٍ يعلو بعضها بعضًا كيلا تتعذر

الرؤية على احد أُطفئت الانوار وامسينا في ظلام دامس ثم اطلق النور الكهربائي من انبوبة مخبوءة على ستار ابيض يغطي صدر المخدع فكنا نرى عليهِ بفعل الفانوس السحري تارةً بقعة مجهولة من الارض وطوراً الاحياء السابحة في نقطةٍ مكبرةٍ من الماء اربعة آلاف مرة تلك التي لا ترى بالعين المجردة نراها بحجم الحيتان الكبيرة منها الطويل المتمعج والقصير المتوثب والمدور الدائر وغير ذلك من الاشكال السابحة في بحرٍ خضم من نقطة الماء ثم جيء بنا الى غرفةٍ مظلمةٍ رأينا في جانب منها ونحن سكوت في الظلام اشباحاً بشرية منها ما هو عريان ومنها ما هو متشح بشبه قميص من الملس الرقيق تخطر جيئةً وذهوباً بصورة توهم الناظر حضور الارواح ومن هذه الغرفة دخلنا الى غرفٍ غيرها رأينا فيها امثال هذه المناظر على ضروبٍ شتى حتى انتهينا الى غرفةٍ تمنطق دائرها بنطاق من المصابيح الكهربائية المختلفة الالوان وفي صدرها آلة بيانو استقبلنا الضارب عليها بانغام شجية فرقصت تلك المصابيح على الحانها بانطفاء بعضها مختلفاً وانارة بعضها متفقاً حتى اذا انتهينا من الفرجة عليها صعدنا الى طبقة عليا اطلت فيها علينا النظارة العظمى التي طال اشتياقنا الى رؤياها وانتظارنا ان نرى القمر فيها على قيد باعٍ منا فوجدنا اسطوانة ممتدة افقياً على امتداد بهوة القصر الكبرى محمولةً على اعمدةٍ من الحديد يبعد الواحد عن الآخر مسافة تسع خطواتٍ فحسبتُ طولها لا يقل عن ستين متراً وقطرها لا يقل عن متر وثلث المتر يرتكز طرفها الواحد علي نصف قنطرةٍ معكوفةٍ من حديد ذات لوالب وادوات رافعة وخافضة وآلات من النحاس الاصفر والحديد نازلة صاعدة من عنق الاسطوانة مماسة رأس القنطرة المعكوفة بشكل مظلة مما لا افقه سرها والطرف الآخر على ادواتٍ واوضاع تخالف تلك الادوات والاوضاع شكلاً ومكاناً ثم انزلونا الى مخدع كبير واجلسونا على مقاعد يعلو الواحد منها عن الآخر ووجهتنا صدر المخدع فلم نلبث ان أُطفئت الانوار واطبقت علينا

الدجنة فرأينا على اتساع مربع صدر المخدع صورة هلال ابن ليلة ثم انحجب وطلع هلالاً ابن ليلتين ثم انحجب وطلع ابن ثلاث وهكذا الى الليلة الرابعة عشرة فرأيناه بدراً كاملاً ورأينا على وجهه تجعدات وتضاريس كثيرة ونتوات بارزة قليلاً ومهاوي مظلمة وهيئة يدل صفوها على خلوه في الهواء والماء ثم خرجتُ من هذا المخدع الذي أُلقيت على صدره صورة القمر بالجرم الذي رُؤي بالنظارة مكبراً عما يُرى بالعين المجردة مائتي ضعفٍ اقول من فاته الحم عليه بالمرق ثم نزلنا الى محل رأينا فيه صخراً متجعداً صلداً اصم ناعم الملمس قاتم اللون لا بل اسوده لا يقل ثقله تخميناً عن الف اقة ليس له من شبه بين صخور الارض ومعادنها سقط من الجو في تاريخ كذا وفي الارض الفلانية وفي قربه في ذات المحل رأينا حجراً بلونه وبجميع اوصافه لكنهُ صغيراً لا يزن تخميناً اكثر من خمس عشرة اقة سقط مثل الاول في تاريخ كذا وفي محل كذا

وفي النهار التالي نهضت من الفراش على نية الصعود الى برج ايفل للاشراف على العاصمة وضواحيها فدخلت المعرض العام مع رفيق حتى اذا وصلنا الى ساحة مارث الواقعة في الجهة القبلية من المعرض اديت رسم الدخول ثم جلسنا في احدى مصاعد البرج فارتفعنا الى الطابق الاول منهُ باقل من دقيقتين ولما استويت عليه اخافني ما كان يعصف يومها من الريح فانثنيت عن متابعة الصعود الى اعاليه وقنعتُ بما اشرفتُ عليه وبما رأيتهُ من قاعات فسيحة تسع الالوف ومن مراسح للاجتماعات ومن حوانيت تجد فيها كلما تطلب ومن مطاعم بالغة حد الاتقان في طعامها وادواتها مما حسَّن اليَّ طلب الغذاء في احداها فتناولتهُ ولذذت به لكنهُ كان غالياً ثم مشينا في اروقة هذا الطابق البالغ مربعهُ على ما اظن ستة آلاف واربعماية ذراع ولما لم يبقَ من شيء اراهُ فيه نزلت بالمصعد (والاصح ان يُسمى عند النزول بالمنزل لو لم يصطلح الافرنج على تسميته في حالتي الصعود والنزول بالمصعد)

وتفقدتُ عضائدهُ الاربع فوجدتها من المتانة والظرف وسمو الهندسة فوق
وصف الواصفين . ومنهُ جئنا الى قصر الازياء فمن بعد اداء رسم الدخول
وشراء كتيبٍ على بابهِ يصف المناظر الموجودة فيهِ دخلنا الى رواق
المنسوجات والملبوسات القديمة فرأيت على المنصة الاولى خرقاً على وشك
البلاء من ثياب الرومان في القرن الاول للميلاد وعلى المنصة الثانية مثلها
في القرن الثاني وعلى الثالثة للقرن الثالث وهكذا الى الرابعة ورأيتُ على
المنصات الخامسة والسادسة آثاراً من الملبوسات البزنطية وعلى السابعة
وجدتُ ذات هذه الآثار مشوبةً بآثار ملبوسات عربية وهكذا على الثامنة
والتاسعة الى غاية الحادية عشرة وفي الثانية عشرة رأيت آثار الملابس الصليبية
المعروفة بالصليب على صدورها وظهورها ثم انتقلت الى منصات القرون الوسطى
والى ما بعدها فرأيتُ ان الخرق والملبوسات البالية او التي كادت تبلى حتى
اوائل الجيل التاسع عشر متقاربة في النسيج والشكل ففي جميعها بحر القماش
ابيض مغشى بزغبٍ في لونهِ والتزهير اكثرهُ قاتم اللون على اختلافٍ فيهِ
بين اسود واحمر قاني او غامق وبنفسجي وبني ومناويش مع تشابه في القماش
من حيث البساطة في الحياكة والسذاجة في الحبك وقلما رأيتُ ثوباً كاملاً
بل هي خرق اوشك يفنيها البلى ملصوقة على صفائح حفظاً لها من الدثور
اكبرها ممزق الاردان واصغرها قطع بقدر الكف ترجح باثمانها لو بيعت
اليوم على ديباج حلل الملوك المرصعة باكرم الجواهر . ثم مشيتُ الى اروقة
اخرى كبيرة وصغيرة منارة بالكهربائية رأيت في كل منها تماثيل من
الشمع تمثل ما كانت عليهِ رجال الرومان ونساؤهم في اعصرهم وفي بيوتهم وما
كانت عليهِ حجر سراي امبراطورة بزنطية من اشكال الرياش وانواع
الزينة وكيف كان ملبسها وتاجها واستقبالها الزائرات من رعاياها وما كانت
عليهِ ماريا مدسيس الاميرة المالكة من مفاخر الامارة وكيف كانت في
ايامها تجلس على اريكة وتصغي الى راهبٍ واقف بحضرتها يعالي عليها ترهاتهِ

وخزعبلاته لاعتقادها انهُ من المنجمين وما كانت عليهِ اجتماعات ومحافل اهالي القرون الوسطى بملابس رجالها ونسائها واسلحتها وسفنها واقتاد خيولها الى غير ذلك من الظواهر المعيدة لانظارنا حالة اهالي الازمان السالفة بجميع هيئاتها واوضاعها حتى وصلتُ الى غرفة واقعة في منتهى جناح ذلك القصر رأيت فيها جوزفين زوجة نابوليون الاولى لابسة حلة بديعة من الديباج الوهاج وعليها ما يخطف الابصار في الحليّ اللامعة والجواهر البراقة واقفة امام مرآة وحولها وصائفها يساعدنها في التزيين وخلفها زوجها نابوليون ينظر اليها كمن ينتظر تمام تبرجها ليصطحبها الى محفل التتويج معهُ ثم خرجتُ من القصر وانصرفت من المعرض وجئتُ الى قهوة في احدى الشوارع وتناولتُ جريدة قرأتُ بها خبراً يؤكد خلاص مدينة مفكين من الحصار الذي وضعتهُ عليها جمهوريتا الترنسفال واورنج في جنوبي افريقية وما كان من عظم مسرَّة الشعب الانكليزي بهذا الخلاص والتماس كروجر رئيس جمهورية الترنسفال الصلح على وجه لا يحط بمقام بلادهِ ولا ينقص من استقلال الجمهوريتين

لقد جلست ثاني مرة ارقب المارَّة في الشوارع فاعجبني ما رأيتهُ في الرجال على اختلاف طبقاتهم في الملبس ان كثيراً منهم يمشون ممسكين بجرائد يقرأونها ومن سائقي المركبات على كراسيهم فيها مكبين على قراءتها حتى يأتيهم راكب واعجب من هذا اني وجدتُ في من حادثتهُ من اصحاب هذه الحرفة الماماً بسياسة البلاد فمنهم من اجابني على سؤالي عما يراهُ في حالة الحكومة بقولهِ " اني لا احب هذه الحكومة لانهُ يتولاها رجال لا همَّ لهم غير الشهرة " وسألتُ آخر فقال " ان رئيس الجمهورية محالف لليهود " وثالثاً قال " ان الرأي لاصلاح الحكومة انما قالهُ مسيو دروليد المنفي الآن في اسبانيا " فقلت لهُ وما رأيهُ قال " اذا لم يكن الرئيس منتخباً بالصوت العام لا شرع في الامة " ورابعاً قال " انا كنا قبل سنة ١٨٧٠

تحت حكم يلوح عليهِ صبغة الاستبداد فاصبحنا منذ ذلك التاريخ تحت حكم اللصوص " وخامساً قال " لقد بعد عنا عهد الحكم الملكي المطلق حتى امسينا لا نعرف شيئاً كثيراً عنهُ غير ما نقرأهُ في المؤلفات المتضاربة بحسب اهواء كتبتها لكنَّ الحكومة الامبراطورية لقرب عهدها منا ما برحنا نذكرها بالخير ونظنها احسن حكومة تناسب بلادنا " فعلمتُ من هذه الاجوبة ومن غيرها ان لسائقي المركبات بحثاً في السياسة فما بالك بالطبقة العليا البالغة في معارفها واقتدارها واطماعها في القبض على اعنة الاحكام المبلغ الذي عرفتهُ العالمون أليست هذه الحكومة والحالة كما ذكر جالسة على طبقٍ يستر وقيداً يخشى في كل يوم التهابهُ بقبسٍ عارضٍ او بشرارةٍ من مثل فشودة التي اطفأتها محالفتها مع روسيا . ولقد سألت رجلاً عاقلاً من الترنسوبين عما يراهُ في محالفة هذه الدولة قال انّا نعلم نفعها لروسيا اكثر منهُ لفرنسا لكنّا رضيناها ونرضى عنها كي نفقأ بها اعين الدول المحيطة بنا الطامحة الى اذلالنا . وقال ان هذه المحالفة سيطول امدها لعدم وجود او طروء اسباب توجب الخلف بيننا وبينها ومن الراجح البين ان عقدها لا ينفك الاَّ اذا تولتنا حكومة اضاعت رشدها ثم سألتهُ عن انكلترا فقال لقد شطت هذه المرة عن محجة سياستها في محاربتها جمهوريات افريقية الجنوبية وجهاً لوجه وكان من عادتها تسخير الامم لحروبها او الاقدام وحدها على حرب هين مضمون الغائلة والنهاية كحروبها في آسيا ومصر والقبائل الهمجية او كانت تعتمد الصبر في ترقب الفرص لنيل ما تريد فاخطأت الحز في هذه المرة اما عن عدم الحيطة والتدبير او عن تهورٍ في طمعٍ لم يكن لما قبلُ على ردّهِ ومعظم اللوم واقع على وزير مستعمراتها مستر شامبرلين الذي كان من المفروض عليهِ ان يدرك قبل احتكاكهِ بالجمهورتين مقدار ما عندهما من الاهبة للحرب وما في شعبهما من الغرائز والسجايا الحربية فلو ارتكب خطاءهُ هذا وزير مسؤول في حكومة من حكومات الدنيا لكانت الحقتهُ بالقارظين ولكن انكلترا تصبر على اغلاط

رجالها اعتقاداً ان الخطاء يقوّم طريق المخطىء الى الهدى وعلى ايّ الاحوال هي الظافرة في النهاية بعد ان تسام من النفقات والانفس ما يغل يدها ربع جيلٍ على الاقل ولا بد لها في آخر الامر من اصلاح في داخليتها وفي قوتها البرية ولا ينكر انها استاقت جيشاً عرمرماً مع ذخائرهِ ومؤنهِ الجسيمة مسافة سبعة آلاف ميل على متن البحار تعجز عن سوقهِ اعظم مملكة على وجه الارض في تلك المدة الا ان قواد جيوشها دون قواد الممالك الاخرى لا بل دون البوير دربة ومعرفة ومهارة في فنون الحرب وهذا القصور في قوادها ليس هو بالشيء الحديث بل هو ملحوظ منذ اوائل الجيل التاسع عشر ولا يستثنى منهم القائد وليتون الذي كادوا يؤلهونهُ بعد واقعة واترلو حيث لو لم يأتهِ بلوخر في اشد معمعانها لتمزق جيشهُ شذر مذر ثم قال ان اغلب خسائر الانكليز في محاربة البوير كانت من اقتحام قوادهم الثواني المواقع الخطرة والتهور على مسؤوليتهم فيها حبًا باكتساب فخر الانتصار الموموق لدى قواد الانكليز على نوعٍ خاص لعظم ما يناله المنتصر من الرفعة والاجلال والمال.

ثم سألتهُ وهل يظن باحتمال وقوع حرب بين فرنسا وانكلترا فقال الحرب بينهما من ابعد الاحتمالات وابعد من ذلك وقوع حرب بين الدول الاوربية فالسلم على ما ارى مضمون لامدٍ طويل رغماً عما يرى الآن في افق الصين من الغيوم المدلهمة لان في جسامة المطلب ما يكفل سرعة الحسم والنهاية القريبة

ولقد شاهدتُ القوم في باريس يخطئون الممالك المتحدة الامريكانية لتطوحها في المشكلات الخارجية اذ كانوا وما برحوا في غنًى عنها لان بلادهم شاسعة الاكناف مترامية الاطراف تسع امثال امثالهم امماً وشعوباً وهي على زيادة مستمرة لانها غدت بفضل نوع حكومتها منتجع اهل الارض وملاذاً للهجرة اليها وان ما دام غاية ما يسعى اليهِ التمدن انما هو غبطة الناس واسعادهم ودفع الظلم عنهم بالوسائط المشروعة المعقولة كما يُدفع اليوم الايذاء عن الحيوانات البكم وتجار المظلومة منها هكذا كان يجب عليها ان

تخلص المساعدة للانسان لا ان تتخذ اغاثتهُ ذريعة للفتح ووسيلة الى التسلط كما فعلت في كوبا وما برحت فاعلة في فيليبين وكان الاخلق بها صرف ما عندها من القوى الهائلة الى ما يعود على خير الجنس البشري عموماً لا التلهي عن هذا الواجب الاقدس بفتوحات لا طائل تحتها وصرف ما تدّخرهُ من المال الطائل في غير السبيل المخصص لهُ من لدن العناية . هذا ملخص ما يقولهُ عقلاء الفرنسيس وقد لاحظت انهم الآن اميل منهم قبلاً الى الراحة والمياسرة الاَّ في مسألة الالزاس واللورين فانها ما فتئت الكابوس الملازم صدورهم اناء الليل واطراف النهار

وقد عجبتُ مرةً من اخلاد جماعة الرفق بالحيوان الى السكوت ومن عدم نهوضهم للمحاماة عن انفع الحيوانات الداجنة الى الانسان لاني لم أرَ فرساً مركوباً او جاراً مركبة الاَّ وقد بُتر ذنبهُ كانهُ عضوٌ اخطأَت الطبيعة في وضعهِ في اقفية الخيل او ان راكبهُ يقوم مقام الذنب في دفع اذى الذباب عنهُ حتى خشيت مع الاستمرار على البتران تأتي مواليدهُ بحسب ناموس الوراثة المكتسبة مبتورة الذنب ويصبح الذنب للفرس كما اصبح على رأي داروين للانسان عضواً اثرياً . غير اني مدحت من اصحاب الخيول اعتناءهم بها لاني لم ارَ حيواناً مركوباً او يجر مركبة الاَّ وهو قويٌ ممتلي الجسم لا كالحيوانات الخاوية البطون الهزيلة المشدودة من الصباح الى المساء بين طرابلس واسكلتها .

وقد مدحت من بلدية باريس شدَّة اعتنائها باصلاح الطرقات فانها لا تغفل لحظةً عن اصلاح اول صدعٍ يظهر فيها بل تبادر دون تريث الى اصلاحهِ وكانت طرقاتها منذ عهدٍ قريب مبلطة بالحجر فلما انتبهتْ لما يسببهُ وقع الحافر ودوران العجلات من الصوت والدوي المزعج والغبار الناشيء عن تفتت الحجر عمدت الى اصلاح كل قطعةٍ تتهدم من الطرقات بتبليطها بالخشب المهندم القطعة منهُ تساوي فتراً مربعاً حتى اصبح الجانب الاكبر من طرقاتها مفروشاً خشباً وارتاحت الآذان والاعين من القرقعة والغبار

اما النظافة في باريس في غاية ما يستطاع وما يُرجى منها فترى ابداً الشوارع والارصفة العريضة على جانبيها المزدحمة بالمارّة كانها غُسلت منذ لحظة فلا تجد فيها حصاة او قشرة او متسولاً او كلباً شارداً لو فتشتَ النهار بطوله ولا تسمع فيها صوت منادٍ او بائع او لجب خصام الاّ اصوات بائعي الجرائد والاعيب الاولاد واذا نظرتَ الى المركبات الرائحة والغادية رأيت للرائحة الجانب الايمن وللغادية الجانب الايسر وقايةً من التصادم وترى في كل مصلّبٍ من الطرقات بوليساً واقفاً في وسطهِ ممسكاً بوتدٍ ابيض يوقف بالاشارة فيهِ فريقاً من المركبات و يطلق السير لفريقٍ آخر كلاًّ بنوبتهِ منعاً للتعارض واشارتهُ هذه مطاعة من الجميع ومن رئيس الجمهورية ايضاً وترى لكل كنيسة او منتدى او مكتب عمومي او ملعب او تياتر حتى الحوانيت الكبيرة بابين الواحد للداخل والآخر للخارج كيلا يختلط الحابل بالنابل ويتعسر المرور

اما العبادة في باريس وفي امهات المدن التي زرتها في فرنسا فمعظمها مقصور على النساء لاني لم ارَ في زياراتي الكثيرة الى الكنائس ابان القداس ايام الاحاد والاعياد والشهر المريمي سوى النساء وقليلاً من الرجال كأن المروق من الدين الذي غشي الامة اواخر القرن الماضي ما برح لهُ بقايا تخطر بين الرجال وتبعد بهم عن المعابد وقد لحظت ان اكثر الفرنساويين يميلون للتنكيت على الاكليروس كلما لاحت لهم فرصة وقد سمعتُ من قوارص الكلام بحقهم ما كنت اجلّ تمدنهم عن مثلهِ ومع ذلك فالطغمة ما فتئت نافذة الكلمة مرعية الجانب رغماً عن كما اصيبت بهِ من النكبات وما انفكت تجاهر على ما في اكثر ايمتها من الفضل والعلم بعجائب ومعجزات بعض قبور الاولياء والمناسك وتحض المؤمنين على التداوي بترابها والاستشفاء بآثارها

ولقد كنتُ اريد اشباع الكلام في امر الدين والعبادة في فرنسا لو

لم ارَ ان ابقاء البحث فيهِ يساقني الى مقامٍ حرجٍ اكون بهِ اما مغاضباً لدعاتها في الشرق او غير وافٍ حق البيان فلهذا رأيتُ الاختصار اولى بي من التحرش فيما لا يعدل بايمتها الروحانيين عن نهجٍ طال بهم انتهاجه والاكتفاء بالتمني لهذا الشعب المجيد الارتياح للتعاليم المسيحية الحنيفة والتفيوء بظل آدابها السماوية

وفي الثالث والعشرين من الشهر اعدتُ الزيارة الى قصر الازياء في المعرض العام فساقني النظر في ملبوسات النساء جيلاً فجيلاً الى الحكم بانها لم تحسن في ايامنا بنةً عما كانت عليهِ في الاعصر الخوالي لا بل رأيتها انحطّت كثيراً من حيث البساطة وحسن الملابسة الطبيعية لان النساء الباريزيات على ما بهنَّ اليوم من التفنن بالازياء لا ترى فيهنَّ اذا امعنت الفكرة وتجردتَ عن استحسان المألوف الاّ قواماً معوجّاً لاحتمالهنَّ باليسرى اذيالاً تكنس الارض وخصوراً استدقت بالمشد حتى شابهت اعناقهنَّ واقداماً بالضغط حاكت اقدام الرضيع فلا ان مشتْ مشتْ منتصبة القوام ولا ان جلستْ جلستْ على وضعٍ طبيعي لكبس المشد على صدرها — حالة لو حُكم عليهنَّ بها لثارت البلاد انتصاراً لهنَّ وتسابق العلماء والخطباء والجرائد والمطابع لتخليصهنَّ من هذا العذاب الاليم . وقد رأيت بين امثلة الملبوسات المعروضة في هذا القصر ثياباً لبستها جداتهنَّ في سالف الايام كانت تفي لو عولتَ عليها بحق العياقة واللباقة وواجب الراحة معاً لكن اينَ من يسمع واين من يعي فالرجال سكارى بالقبعة السوداء الطويلة التي لم يفتح على الانسان بواقٍ لرأسهِ اشنع منها شكلاً وابشع منها منظراً ولولا الاعتياد على رؤيتها لحسبتَ الوجه في وسط الجسم بعد ان خلق على رأسهِ والنساء غافلات عما يكابدنهُ من كرب المشد وضغطهِ بما يعالجنهُ من ابراز صدورهنَّ واندلاق اثدائهنَّ تلك هيئة عمّت حتى لترى المزيلات اللائي لا ثدي لهنَّ مرتفعات الصدور مندلقات الثدي تحت القميص بسر القطن المندوف

وفي النهار التالي ذهبتُ مع رفيقٍ لي الى ملعب الهيبودروم فدخلناه في زحام لا مثيل لهُ ولما وصلتُ الى الكرسي بعد شق النفس بدا لي الملعب بشكل بيضاوي تحيط دائره مقاعد يستعلي الواحد منها عن الآخر وهي تسع ما يزيد على عشرة آلاف جالسٍ فابتدأ اللعب في مشهدهِ الوسيع برقص الخيل ووثبها على ضروبٍ شتى ثم لعب البهلوانية على الحبل الى ان حان وقت ظهور الضواري ولعبها فامتد شبك من قضبان الحديد حول الطرف الاقصى من بهوة الملعب صُفّتْ ضمنهُ على الجانبين مقاعد من القطيفة حتى اذا صار ايواناً مستكمل الفرش دخل رجل لابس حلةً سوداء وقفازاً ابيض قابض سوطاً له طرقات مسموعة ثم اخذ يتخطر وحدهُ في ذلك الايوان الى ان نادى بعالي صوتهِ الاسد فدخل عليهِ اثنان واحد من بابٍ عن يمينهِ والآخر من بابٍ على شمالهِ ثم وقفا امامهُ وبعد ان حيياهُ باحناء الرأس انصرفا كلٌ الى مقعد يقابل الآخر ثم نادى النمر فدخل اثنان كما دخل الاسدان وجلس كل واحدٍ حذاء اسدٍ ثم الدب الابيض ثم الاسود ثم الفهد على النمط المار ذكره واخيراً أُدخلت اربعة كلاب لكن لم يكن لهنَّ كراسي في هذا المحفل السامي ولما تم عقد هذا الاجتماع المأنوس اخذ الاستاذ في ملاعبة الضواري على اشكالٍ شتى متفقاً ومفترقاً الى ان دخلت مركبة يجرها الكلاب الاربعة فامر الاستاذ عندئذٍ الدبة والفهد ان يركباها فامتثلا وبعد استوائهما عليها سحبتها الكلاب حول الايوان ولما توسطتهُ امر الاستاذ راكبيها ان ينزلا منها فنزلا ثم امرهما بالاضطجاع فاضطجعا ثم نادى بالدبة البيضاء والسوداء وباقي الضواري واضجعها بعضها على بعض بشكل هرم ختم قمتهُ بالاسدين ثم تسلق الاستاذ هذا الهرم ونام على رأسهِ العالي وبعد ذلك أُزيح الشبك وانصرفت الكواسر الى مرابضها وبدت العاب على الخيل لم تكن من الغرابة في شيء كان اللاعبون فيها من الرجال والنساء وعددهم لا ينقص عن ثلاثمائة نفس وعند النهاية خرجنا من ابواب الملعب الصدر بالظهر والمنكب بالمنكب

في النهار التالي الواقع في الخامس والعشرين من الشهر عاودنا البرد والمطر فشعرتُ كأني في شتاء سوريا وشكرتُ القدر اني وُلدتُ في بلادٍ ان جاء الصيف فيها كان صيفاً واذا جاء الشتاء كان شتاء لا يتعديان حدودهما كما يتعديانها في هذه البلاد التي يرقص البرد والحر فيها يداً بيد في النهار الواحد مرة او مرتين او حيث يجبر الساكن فيها وقايةً لصحتهِ ان يحتمل ابداً على عاتقهِ ثوباً ثقيلاً يلبسهُ ويتجرد منهُ على وفاق التقلبات الجوية . لكن علمي بانهُ لم يبقَ لي بهذه العاصمة سوى ايام قلائل اوجب خروجي من النزل وذهابي لزيارة المكتبة الفرنساوية العظمى فلما دنوت منها وجدتها قصراً منيفاً ولدى دخولي اليها طفقتُ اخرج من قاعة وادخل اخرى انظر الى ما في رفوفها من الكتب المرتبة اقساماً بحسب اعصرها ولغاتها وموضوعاتها وفنونها ونظرتُ في سائر القاعات رجالاً ونساء يستنسخون كتباً او يراجعون مسائل في علوم الاولين والآخرين وفي فنون شتى على حسب اهوائهم حتى انتهيت الى القسم الذي جمعهُ الشهير مازرين خلال القرن الثامن عشر فوجدتهُ حاوياً كتباً قديمة العهد في اللغات الحية والبائدة مصفوفة في محافظ يعلوها زجاج شفاف مانع لليد وغير مانعٍ للنظر ولما وصلت الى محفظة مسطورٍ عليها " الكتب المجموعة في القرن الرابع عشر " دهشتُ لرؤيتي كتاباً مفتوحاً موضوعاً في تلك المحفظة بين مجلدات ذلك القرن ولكني لم اتبين اذا كان مكتوباً على كاغدٍ مقهور او على رقٍ فقرأت في الصفحة اليمنى منهُ الجملة الآتية

" انا لله وأفوض امري الى الله ولا حول ولا قوة الا بالله لم يبقَ صافٍ ولا مُصافٍ ولا مَعين ولا مُعين وفي المساوي بدا التساوي فلا امين ولا يمين " ونظرت تحت هذه الجملة وفي نفس الصفحة صورة بيتٍ وامام بابهِ رجلٌ معتم عمامة خضراء يهمُّ بالدخول اليهِ وحول هذا البيت رجال بعمم خضرٍ وبيضٍ عليهم هيئة الاسلام في الملابس والملامح واللحى ثم قرأت في الصفحة اليسرى هذه الجملة

" منّي النفس وعدِيها واجمعي الرقاع وعدّيها فقالت لقد عددتها لما استمدتها فوجدت يد الضياع قد غالت رقعةً من الرقاع فقال تعساً لكِ يا لكاع " ونظرتُ تحت هذه الجملة صور رجالٍ ممتطين الخيول وعلى رؤوسهم العمائم كما في الصفحة اليمنى وعليهم هيئة وملامح الاسلام والصور جميعها بالوانٍ مختلفة فاندهاشي كان لاني رأيت التصوير في كتب الاسلام القديمة وعهدي بهِ محرَّم واظن الكتاب جاء من الاندلس وهو ما برح موجوداً في المكتبة الفرنساوية العظمى في القسم الموقوف من مازرين موضوعاً في محفظةٍ على المنصة الشمالية في الجانب المختص بالكتب القديمة فعلى من شاء المزيد ان يراجع

بعد ظهيرة هذا النهار ذهبتُ الى المحل المسمى بالقرية السويسية وهو من توابع المعرض فلم اجد بهِ شيئاً يستحق الذكر الاَّ ان القوم يشبهونهُ باحدى قرى تلك البلاد تشبيهاً تاماً من حيث الصخور النائتة والشلالات المنحدرة من اعالي الهضاب وادارتها نواعير في سفوحها ووجود اهالي من هاتيك الديار بملابسها وهيئاتها وعوائدها مع بقرها وغنمها وسائر حيواناتها الحلوبة الى غير ذلك من اشكال بيوتها واكواخها كما يستغني الناظر الى هذه القرية على زعمهم عن مشقة السفر الى هاتيك البلاد والمرابع الانيسة .

ثم دخلت منها الى المعرض العام لاتصالٍ بينهما ولعل هذه الزيارة هي الزيارة الثامنة الى المعرض فرأيت جميع المعارض الدولية قد تم ترتيبها وتنسيقها وصمد معروضاتها وادارة ما فيها من الآلات البالغة الى يومنا هذا غاية الانقان فرأيت في مستودعاتها والاجدر ان يُقال في ساحاتها الوسيعة المقبوة بالبلور المضلَّع من تحف المصنوعات ما لا يحيط بهِ قلمي وعلمي ومن الآلات الحسنة التركيب والسبك والدقيق سر اختراعها ما يوجب الافتخار بعقل الانسان رأيت فيها الطواحين تطحن والدواليب تدور والآلات تتحرك والمناخل تنخل والمناجل تحصد ورواميز السفن تجري دون ان يُرى لها محرك لان محركها البخاري الكهربائي تبطن الثرى ولم يظهر لهُ من اثر على وجههِ

ومن نفائس الحلى ما يزري بعقد مارية ومن الرياش ما يرخص غوالي مفروشات قصور كسرى والريان فعرفت اذ ذاك اني لم اصب كل الاصابة في قولي السابق عن خلو المعروضات من النفاسة والاهمية غير اني سمعت اليوم تكرارًا شكوى العارضين من الكساد

وفي مساء النهار المذكور ذهبتُ الى الاوبرا كي لا يُقال اني جئت باريس ولم ارها واحضر التشخيص فيها فوجدتها بناء حسنًا فخيمًا مزدانًا ببدائع الزخرف والزينة وهكذا وجدتُ ملبوسات المشخصين وازياءهم من الطراز الاول في الحسن واللباقة الاَّ اني لا اخجل اذا قلت اني لم اطرب لمغناها الملحن ولا الى القائها الموقع على الانغام لا بل اتجاسر واقول ان اذني الشرقية لم تجد اتفاقًا تامًّا بين موسيقاها وبين انغام مشخصيها الاَّ في النبرات والوقفات ومع ذلك لا انكر على مَن الف حضورها وسماعها من اهلِ فنها خاصةً مزية التلذذ بها والارتياح اليها لكنني انكر على كل شرقيٍّ لم يألف سماعها وفهم القائها الملحن اذا ادَّعى الرضى عنها والطرب من مغناها كما ادعاهُ غير مرة شاب متفرنج لا يعرف من الفن غير التصفيق بالايدي

ولما اصبح السادس والعشرون من الشهر ذهبت الى حانوت خياط كنت بالامس فصَّلت عندهُ ثيابًا كي لا أُعاب باني جئت الى عاصمة الازياء والملبوسات وخرجت منها بلا خلعة فلما البسنيها للتجربة تباعد عني قليلاً ثم دار حولي ثم تقرب مني ببطء واخذ يرفع يدًا وينزل اخرى وينهض رأسي ثم يطأطئهُ ويشكل دبوسًا وينزع آخر حتى كدت ازهق كما ازهق روحي عند التفصيل فانهُ وضع زاوية تحت ابطي وجيبًا هندسيًا فوق صلبي ثم اخذ بالقياس وصار يمر القياس والادوات المذكورة على العضو الواحد طولاً وعرضًا فقد قاس بين الرسغ والكعب وبين الركبة والفخذ وبين الكتف والذراع لا اقل من عشر مرات وانا واقف صابر حتى اذا انتهى من عملية التشريح على الوجه المشروح سألتهُ وما الداعي الى كل هذا العمل

الشاق فاجابني فوراً ان لم يكن كذلك فبأيِّ شيءٍ تَفضُلُ باريس غيرها .
ولما خرجت من حانوت الخياط استعنت بما بقي لي من القوة على السير ماشياً لاني لم امشِ على قدمي مدة اقامتي في باريس الاَّ داخل الدار او من المركبة اليها لعدم معرفتي الطرقات والمحلات وهبني عرفتها فان لي بتباعد المزارات ما يجبر على الركوب والاَّ اكون مضيعاً نهاري عدواً بين محل وآخر . فمررت بساحة الكونكورد وكنت قبل اليوم طرقتها مراراً دون ان تناجيني المسلة المصرية الواقفة في منتصفها وهي المنقولة من مصر اليها سنة ١٨٣٦ كما ناجتني الآن بلسان حالها تسألني وكأنها علمت بمجيئي من ارض آبائها عن حال اخواتها الباقيات في تلك الديار وتقول هل علمتَ اني أُحضرت ذليلة الى هذا الموقف واني ما برحت باكية على اغترابي وانجلائي عن موطنٍ انتصبت فيهِ ايام كان مباءة الدولة الشماء والمملكة العظمى وهل علمتَ اني ما انفككت عن النواح من حادث ابعادي عنهنَّ والشكوى من ظلم التمدن الحالي والاعتراض على عدلهِ المزعوم كيف اباح اختطافي واستئساري وقد تظاهر بمنع الاختطاف والاسراو ليس في استعباد الاثر والمتاع ما في استعباد النفس من المغبة والظلم لها فاطرقت ولسان حالي يقول . ما دام لكِ عمرٌ يطاول الاجيال لا بد من يوم تأتيكِ صروفهُ بما يفرج عنكِ وينسيكِ الغربة اما انا فلست بالباقي الى حين الصيحة الكبرى وتبدلّ الاحوال ثم ودعتها وركبت الى جنان بوادوبولون لانفض غبار هذه الهواجس وكان الهواء بارداً والشمس تتخايل من وراء الاغصان ففطنت لما فيها وفي كل شوارع باريس وغيرها من شوارع مدن فرنسا من شجر الدلب الثخين والعريض الاوراق وتذكرت ما يقولونهُ في سوريا عن سوء جوار هذا النوع من الشجر وحسن جوار ما كانت اوراقهُ دقيقة فعجبت لاختيارهم الدلب على سواهُ

ولما رجعتُ الى النزل وجدتُ كتاباً من سفارة دولتنا العلية يتضمن بطاقة تجيز لي الحضور الى جلسة البرلمان الفرنساوي المعين وقوعها في الثامن

والعشرين من الشهر فعزمت على تأخير سفري من باريس الى التاسع والعشرين منهُ واصبحت في السابع والعشرين اتفكر فيما هو باقٍ عليَّ من مناظر باريس فخطر لي الذهاب ثاني مرة الى كنيسة نوترضام الكبرى لاراها وهي في احتفال القداس فوصلتها وكان يوم الاحد في ابان الوعظ فلم اجد فيها سوى صفٍّ او صفين من تلامذة الراهبات ونسوة قلائل واقل منهنَّ رجالاً مما كاد يثبت ظني ان القوم في اشد التراخي عن الصلاة والعبادة غير انهُ قيل لي بعيد هذه الزيارة من اناس يغلب عليهم على ما اظن الميل الى تزيين فرنسا بكل شيءٍ حسن حتى بالتقى والعبادة ان المصلين لا يأتون الكنائس ولا يغشونها الاَّ قبيل الظهر فالذاهب اليها كما ذهبتُ صباحاً لا يلتقي بهم . قلتُ لنفسي ان صح ذلك على خواصها وكبرائها فهل يصحُّ على عامتها ؟ ثم قصدتُ متولي السدانة في الكنيسة فوجدتهُ كما وجدتُ غيرهُ في الكنائس بقيافةٍ سويسية وعلى رأسهِ قبعة مستعرضة يميناً الى شمال فقلت لهُ أمن الممكن ان ارى خزانة ذخائر الكنيسة فقال يمكن ذلك الاَّ في ايام الاحاد فقفلتُ راجعاً من حيث اتيت على امل العودة بعد يوم

ولما اصبح الثامن والعشرون في الشهر تهيأْت لحضور جلسة البرلمان بعد ظهرهِ وللسفر في غدهِ الى انكلترا ثم ذهبت برفق صاحب المروءة الخواجا ايوب تيان الى مكتب كوك وقطعت اوراق السفر الى اكثر امهات مدنها ذهاباً اياباً وبعد تناول الغداء ركبت الى مجلس النواب (لهذا المجلس الكلمة العليا في حكومة فرنسا على نوعٍ خاص وليس لمجلس اعيانها المسمى بالسنات ما لمجلس السادات في انكلترا من الكلمة والنفوذ) فرأيت بالقرب منهُ جمهرةً من الناس وقوفاً للاستطلاع على اخبارهِ ولدى وصولي الى بابهِ ابرزتُ بطاقة الاجازة فأُدخلتُ الى الرواق المخصص بالاجانب وهو غير وسيع وجلستُ على مقعدٍ من القطيفة الحمراء وحولي من الرجال والنساء عدد لا يتجاوز الثلاثين على مقدار المقاعد الموجودة في الرواق ورأيت الاروقة المحيطة باعالي

المجلس وهي المخصصة بالفرنساويين غاصةً بوزراء فرنسا السابقين والاسبقين وبعلية قومها فلم البث حتى جلس مسيو ديشنل رئيس المجلس على كرسي الرئاسة وهو مرتفع في نقطة ملتحم جانبي مقاعد النواب البادية لعين الرائي بشكل نعلة الفرس واعلن افتتاح الجلسة بقرعهِ جرساً من الفضة فرأيت عندها النواب تتسلق المقاعد المستعلي الواحد منها على الآخر كقطيع من الانعام على هضبةٍ من المخمل الاحمر ثم بدأ البحث يدور عن مسألة هي من اذناب مسئلة دريفوس فرأيت من القيام والقعود وسمعت من الضجيج والضوضاء ومن مقاطعة الكلام والخطاب فوق ما حسبتهُ وعكس ما رأيتهُ على وجوه التماثيل المنصوبة على مدخل المجلس لان الناظر اليها ينظر على هيئاتها من الرزانة والهدو والهيبة والوقار ما لا يرى اقلهُ في ملامح اعضاء هذا المجلس العالي لا بل يرى عليهم من امارات الوقاحة وعلائم الخفة ما يجعلهُ غير مصدق عينيهِ اذ لا يمكن للسامع او العارف بعظمة فرنسا وعظمة اعمالها وسمو مداركها وعلومها الاّ ويعجب من هذه السماجة والقحة في رجال اعظم مجالسها وقد سمعتُ مرة الرئيس يلحُّ بالتزام السكوت والامتناع عن مقاطعة كلام خطيبٍ فقال عضو من الاعضاء تنكيتاً "ان الرئيس يمنعكم من التنفس والسعال" فاجابهُ عضو آخر "ومن البصاق ايضاً" فلبثت على مقعدي صامتاً الى ما بعد مضي ساعتين من الغروب وخروج ناظر الحربية من المجلس وروحهُ في الحناجر لشدة ما قاساهُ من مهاترة الفئة المعارضة ولما هممتُ بالخروج من الرواق وقبل مفارقتي عتبتهُ سمعت ان الناظر المذكور قدَّم استعفاءهُ الى رئيس الجمهورية

مدينة لندن

ولما اصبح النهار التاسع والعشرون من الشهر تهيأت للسفر من باريس فركبت المركبة واشرت الى سائقها ان يمر بي على قربٍ من كنيسة مدلين حيث أُنشئ بقربها على ما بلغني امس مقبرة للكلاب فرأيتُ مكاناً لا يمكن ان

يكون مقبرة غير اني وجدتُ قبرًا لكلبٍ قيل مات عزيزًا على صاحبهِ يعلوهُ
نصب منحوت عليهِ صورة الكلب حاملاً طفلاً على ظهرهِ يحاول تخليصهُ من
حادث مخيف ولما وصلت الى محطة النور (الشمال) برفق الشهم التيان
الذي اولاني بارشاداتهِ منة لا انساها ركبت القطار المستعجل وسرتُ على
بساط الريح فوصلنا الى مدينة اميان بعد ساعةٍ ونصف والى ثغر كالي في
الساعة الرابعة بعد الظهر كأن المسافة بينها وبين باريس اربع ساعات وخمس
دقائق فلم نمكث غير ما يقتضيهِ انتقالنا من السكة الى الباخرة من الوقت ولم
نعتم حتى سارت بنا الباخرة وكان البحر هادئًا والهواء عليلاً على غير المعتاد
في بحر المنش الفاصل بين القارة وجزائر بريطانية وقبل دنو الباخرة من
شاطىء دوفر جاءت جلاوذة الرسومات تلصق طوابع على امتعة الركاب دون
ادنى تفتيش غير سؤال صاحب المتاع بهذا اللفظ " اعندك تبغ " ثم نزلنا
من الباخرة على رصيف ثغر دوفر وسرنا توًا الى القطار الذي كان ينتظرنا
على قربٍ منهُ فوجدناهُ مذهبًا بحجرٍ متسعة تلمع في رياشٍ مفضض حتى اذا
تم اجتماعنا سار بنا يقطع الفيافي بسرعة اشد مما لقيناهُ في قطارات فرنسا
ولما وصلنا الى لندن في الساعة السابعة ونصف بعد الظهر نزلت بحسب التوصية
في نزل سيسيل الكبير الفخيم الحاوي مئات من الحجر في طبقاتهِ الست التي
يرقى اليهـا بسبعة مصاعد . ثم ذهبتُ بعد العشاء الى ملعب أمبير فوجدتهُ
غاصًا بالمتفرجين ورأيت من خفة اللاعبين ومهارتهم على اختلاف الانواع
ومن حسن ملابسهم وغلائها ما ارخص عندي امثالها في باريس

وفي النهار الثاني من وصولي الى لندن اي في الثلاثين من ايار ذهبتُ
صباحًا لزيارة صديقنا القديم العهد والايام مستر انطون صيفي فاستقبلني
استقبال اخٍ وحباني بارشادات خبير صرف معظم عمرهِ في انكلترا واصحبني
بواحدٍ من كتابهِ ليريني الامكنة الجديرة بالزيارة على طريقنا من مكتبهِ
الاقرب فالاقرب فدخلنا اولاً الى بورصة الغلال في مارك لين الشهير

فوجدتها ذات قسمين الواحد للغلال باصنافها والآخر للبزورات وانواعها وشعرتُ بسكتة وكساد قيل لم يرَ مثلهُ قبل حرب الترنسفال ومنها رحنا الى كيلدهول وهي قصر بلدية لندن فشاهدت اولاً الآثار القديمة الموجودة في قاعاتها السفلى ونظرت كثيراً من آثار اليونان والرومان والمصريين والاثوريين والكلدان ورأيت على الاخيرتين خطوطاً بالحرف المسماري البابلي فقرأتُ بعض ترجماتها التي لم يبرح مشكوكاً بصحة بعضها لعدم تمام الاستظهار على احكام تلك اللغات البائدة ثم وقفتُ لدى منصاتٍ منضدة موضوعاً عليها محافظ تحوي خطوط مشاهير شعراء الانكليز وعلمائهم ودهاتهم وساستهم المتوفين منذ قرن ثم صعدتُ الى الطبقة العليا فرأيتُ مكتبة كبيرة لم اعثر فيها على شيءٍ عربيٍ لان كتب هذه اللغة توجد كما بلغت في المكتبة الكبرى المختصة بالامة التي ازمعت زيارتها بعد ذلك ورأيت في ايوانات هذه المكتبة رجالاً ونساء يطالعون او ينسخون كتباً موضوعة امامهم على طبلات متباعدة ومتقاربة ورأيت فيها اطلساً كبيراً مصنوعاً في اواخر القرن الخامس عشر

وفي النهار التالي الواقع في اول شهر حزيران ذهبتُ لزيارة كنيسة مار بولص الكبرى المعدودة ثاني كنيسة في اوربا فوجدتها لا تختلف في الشكل والهندسة عن كنائس فرنسا الكبيرة الا في علو القبة الوسطى والاتساع وخلوّها من تماثيل القديسين والاستعاضة عنها بتماثيل رجال بريطانيا العسكريين والملكيين واساقفتها المشهود لهم بالعلم والتقى والجهاد في سبيل نشر الدين المسيحي بين الامم وقد شاهدتُ اثناء جولاني في شوارعها ان كل ظواهر بناياتها وجدرانها مدهونةٌ بلونٍ اسود قاتم فسألت وما السبب لاختيارهم هذا اللون على غيرهِ من الالوان الزاهية أُجبت انهُ لم يكن عن قصدٍ بل جاءهم عفواً وكرهاً من الدخان المتصاعد ليلاً نهاراً من مداخن المعامل ومطابخ بلدٍ حوت من السكان ما ناهز الستة ملايين نفساً ثم انتبهت الى

يديَّ وعنقي واكمام قميصي فوجدتها قد صُبغت بالدهان الفاحم كما صُبغ بصاقي وما حواهُ المعطس نعم اني لحظتُ شيئاً من ذلك عند ما كنتُ في باريس وفي مدن فرنسا الاَّ انهُ لم يكن قاتماً لهذه الدرجة حتى رحتُ اظن ان في دخان الفحم الحجري ذرَّات اثقل مما في الفحم الخشبي لا تلبث بعد تصاعدها حتى تنهال على المدن وسكانها باسرع مما تنهال ذرَّات الفحم الخشبي فعلى مَن اراد ان يظهر في هذه البلاد طاهراً نظيفاً ان يغير قميصهُ وان يغتسل ثلاثاً في النهار والاَّ عُدَّ من فعلة المناجم

لقد اعجبني ما رأيتهُ من تغلب الجمال في نساء هذه المدينة لاني رأيت اكثرهنَّ هيف القدود طويلي الاعناق ناصعي البياض المشرَّب بالحمرة غير انهُ لم يرضني منهنَّ كثرة التمايل والتبختر والتيه المستهجن لدى كل محب للسذاجة

اني اختبرتُ شيئاً في سفري من باريس الى انكلترا كنت اسمع واقرأ عنهُ بخصوص انفة الانكليز من الاغراب وابتعادهم عمن لا يعرفونهُ ابتعادهم عن مجذومٍ وإباءتهم القيام لهُ باقل مواجب الانسانية واللطف الاجتماعي وذلك ان اتفق ركوبي في محطة باريس في مركبةٍ وجدتُ فيها اربعة رجالٍ من الانكليز عليهم مسحة الترف وبزَّة الغنى ولما كان لي من التأملات فيما حولي من المناظر ما يشغلني عن طلب الحديث معهم لم انتبه الى انهم صم بكم الاَّ بعد مضي ما يقارب الساعتين من ركوبنا في حجرةٍ واحدة حتى خلتهم لسكوتهم اصناماً مسنَّدة او اعداء جمعتهم الاقدار في هذا المجلس الحرج ثم لاحتْ مني التفاتة فرأيت رجلاً منهم ممسكاً بلفافة تبغ مطفأة وامامهُ رجلان يدخنان بلفافتيهما فلا الرجل المريد شعلةً للفافتهِ يجسر على طلبها ولا هما بالعارضين عليهِ قبساً ففكرتُ اذ ذاك ان اتحقق مغزى ما رأيت بعرضي عليهِ علبة الثقاب فتناولها مسرعاً كأني افرجتُ كربتهُ واشعل لفافتهُ ثم رد العلبة اليَّ وكافأني بهز رأسهِ دون ان يرمقني باحدى زوايا عينيهِ فلما وصلنا الى ثغر كالي وكنتُ غير خبيرٍ واجهل اين يكون النزول من المركبة

ومن اين يكون الوصول الى الباخرة المعدّة لحملنا الى شاطئ انكلترا بلاد صحبي في القطار سألتُ الرجل الذي ظننتني نلتُ الحظوى عندهُ باعطائي لهُ علبة الكبريت بقولي لهُ اهنا محل النزول ام انتظر فما كان لي منهُ غير الاعراض جواباً فاستخرت الله في امري ونزلتُ مع النازلين بعدما اسمعتهُ واسمعت رفقاءهُ بجهير الصوت ما معناهُ " لقد اخطأ فالي وظني بمروءة اهل البلاد الذاهب الآن اليها "

وفي الصباح التالي خرجتُ باكراً من حجرتي كي اتناول طعام الصباح كأن المعدة في انكلترا غيرها فيما سواها تراقب مواقيت الطعام مراقبة المشوق المستهام فاخذت وانا مار في حجرة القراءة ثلاث جرائد مختلفة الاسماء ودخلتُ بها الى بيت المائدة فرأيت ما ادهشني من امتلاء اعمدة تلك الجرائد الطويلة العريضة باخبار السباق الذي جرى بالامس في دربي وقد افرغ فيها رجال القلم وادباء البلاد منتهى ما عندهم من قصائد الثناء على فوز فرس البرنس أُف ويلس في السباق المذكور والتغني بمحاسن الامير المشار اليهِ لامتلاكهِ هذه الفرس وقرأت فيها من صور الرسائل وخطابات التهانئ المرفوعة لجنابهِ لا الى الفرس من عظماء المملكة ما يوهم انهُ انقذ البلاد من تهلكةٍ او انهُ اكتشف دواء للطاعون او أُوتي حكمة سليمان مما صغَّر وحقك عندي كبر التمدن العصري وحط من مقام ترفعهِ عن السفاسف لان اية مزية لصاحب الحصان او الحمار اذا كانا اسرع عدواً من حمرٍ وخيل الجيران واي اثرٍ صالح ينجم للمملكة عن سبق فرس الامير . وقرأتُ ان القوم احاط بالفرس قبل السباق وبعدهُ اكراماً لصاحبهِ واجلالاً للحيوان وشغفاً بهِ حتى قالت احدى المصونات كما روتهُ جريدة الديلي كرونيكل انها تمنت لو وصلت الى الفرس وقبلتهُ . فانظر الى اين يصل الانسان اذا اضلتهُ العوائد والاوهام وتأمل في التمدن الذي تخيَّل لك تمامهُ قبل الحلول في كعبتهِ كيف اجاز التهليل والتكبير يوم سبق فرس الامير وكيف القى

العثرات دون نتائج مؤتمر السلام الملتئم باقتراح من زعموا انهُ اكثر ملوك الارض طمعاً واستبداداً واعلاهم في القوة كعباً

ثم اذا كان في السباق مدعاة للحصول على احسن الجياد وتحسين مواليدها والتنافس فيها اكثاراً لايجاد اجود انواعها وتعميماً لانتفاع البلاد منها فقد شطوا سواء السبيل لان اي نفع للخيول الاصيلة المطهمة والاعوجيات السوابق في بلاد وعصر سادت فيهِ خيول البخار والكهرباء وزيت البترول فالخيول لا شغل لها كما خبرت ورأيت في جميع البلاد سوى جر المركبات والمساحب الثقيلة وهذه تقوم بها حيوانات لم ارَ عمري اضخم منها كعباً واغلظ حافراً بطيئة الحركة لا يعمل فيها وكز المهماز ولا سوط الضارب قد كان في الاعصر الغابرة وفي الجاهلية خاصة حاجات للسباق وتنافس بالجياد لما لم يكن لها غير الغارات شغلاً والغزو معاشاً فهل يريدون اليوم الرجعة اليها ولو على خطر الرجعة الى مثل حرب البسوس

خرجت من النزل اقصد زيارة تاور أف لندن (برج لندن) فكانت المسافة بينهُ وبين النزل ثلث ساعة ركوباً وكان مرافقي كاتب الخواجه صيفي فدخلناهُ بعد تأدية الرسم فرأيت بظاهرهِ دليلاً على قدمهِ قيل انهُ بدئَ ببنائهِ سنة ١٠٧٨ ميلادية فنظرنا اولاً في المحل المسمى ركاليا المتخذ خزانة لامتعة وجواهر ملوك انكلترا المجموعة منذ القرن السادس عشر فرأيت فيهِ التيجان المرصعةُ بالماس الكبير الحجم والاكاليل المزدانة باليواقيت والصولجانات والوسائد والآنية الذهبية والامتعة الثمينة ومثال الجوهرة اليتيمة المسماة كوه نور وعلى جانبيها حجرين من الماس الكبير وجميع اشكال نياشين الدولة مرصعة وغير مرصعة ثم دخلنا الى مستودعات الدروع والمغافر والاسلحة القديمة فرأيت شيئاً كثيراً لكنهُ اقل مما جُمع في مستودعات باريس عدداً ووجدت آثاراً يميل الى رؤيتها الرحالة ومستقصي الآثار كالبردة التي كان لابسها القائد ولينتون يوم وقعة وترلو الشهيرة وقرمة الخشب التي كان يُضرب عليها

اعناق اعاظم المملكة ولا يزال عليها خدوش من حد الحسام وصبغة قديمة من الدم الانساني ثم صعدت من هذا المستودع الى طبقة عليا اشتملت على السجون فرأت على جدرانها خطوطاً كثيرة خطها السجناء حفراً بالمدي بينها اسماء رجال ما برح التاريخ الانكليزي يذكرهم بعلو الهمة والشيم الغراء

ولما انتهت الزيارة وخرجت من البرج خلتني خرجت من قرون مضت الى تحت سماء القرن الحالي وعند رجوعي الى النزل شكوت الكلال لكني تقاويت بعد العشاء وذهبت الى ملعب الهامبرا فدخلتهُ وقد صعب عليَّ الوصول الى مكاني لشدة الزحام فوجدتهُ عظيماً في كل شيء في الزخرف والاتساع وفي براعة اللاعبين وعيافة الراقصين وبهجة الملابس وفي مناظر السينوماتوغراف الفن الحديث النشأة فرأيت بها مواقع حرب الترنسفال هجوماً ودفاعاً ومحاصرةً رأيت العساكر تمشي طلائع والفرسان سرايا تارةً تعدو ركضاً وآونة ذميلاً والمدافع محمولة على عجلات تجرها الابقار في مقاطع الانهار وبين الشعاب والاعلام يرنحها الهواء والبنادق تدوي والدخان معقوداً حتى ظننتني في ساحة القتال ورأيت فريقاً من انفار العساكر الراجعة من افريقية الجنوبية بعد انفكاك الحصار عن مدينتي لادي سميث ومفكين يسلمون على عيالهم ويقبّلون اولادهم ويلقون بامتعتهم عن ظهورهم مناظر كنت اقول اني دهشت لها لولا اني بعد وصولي الى مصيفي في اهدن وجدتها قد سبقتني اليهِ وعم استعمالها فحق الدهشة اذاً من سرعة انتشار هذا الفن على ما فيهِ من الحداثة في اطراف الارض حتى اعالي جبل لبنان في برهة لا تتجاوز السنتين منذ اختراعهِ ولا بأس على ما بي من عدم الالمام بالفن من التطفل على ملخص شرح سر هذا الاختراع وذلك انهم يستعملون آلة فوتوغرافية عادية تتناول بسرعة كلية عدداً كبيراً من الصور الفوتوغرافية المقصود رؤيتها تدار في خزانتها المظلمة بدولابٍ سريع الدوران متصلٍ بلفةٍ من الجلاتين الشديد والسريع التأثر تبرم على وفاق سرعة دوران الدولاب حتى انهُ حال وقوع الصور

الدائرة امام هذا الجلاتين تنطبع عليهِ الصور وتتجه على التعاقب السريع
بقوة الفانوس السحري وسناه ضوء الكلس الشديد الاضاءة من فوهة الآلة
الى الحائط الابيض المراد توجيه المناظر اليهِ . ثم خرجتُ من الملعب قبل
نهايتهِ خوفاً من ضيق الصدر لشدة الزحام لكن بعد ما تحققت وشاهدتُ
ما عند هذه الامة من سجايا اجلال رجالها وعظمائها اذ كنتُ ارى الحضور
وعددهم عظيم من الرجال والنساء ينهضون عن كراسيهم عند ظهور صورة
رجل من كبرائهم على ستار المرسح بالقلم الكهربائي و يهتفون تهليلاً لهُ فيرتج
المكان على رحبهِ بتصفيق الاكف

وفي النهار التالي اصحبني مستر صيفي برجلٍ من اصدقائهِ ممن لهُ دخول
وشغل في بنك انكلترا لكي يدخلني اليهِ ليس لان الدخول في مهام الشغل
معهُ ممنوع بل المنع على من يريد الاطلاع على شؤونهِ وخباياهُ بلا توصية
فادخلت اولاً الى الايوان العمومي وفيهِ زهاء ستين كاتباً على منصاتهم
يتشعب من هذا الايوان فروع لاقلام ونظارات كثيرة ثم صعدتُ الى
طبقة عليا ذات اتساع يضاهي سفليها مشغولة بآلات المطابع المخصوصة بالبنك
منها ما يطبع البنك نوط و يطرحها فوق بعضها علي رفوفٍ موضوعةٍ على منصة
احد النظار قيمة كل ورقة منها الف ليرة سترلين وقبل وصول الورقة الى
الرف تجد الآلة القاصَّة تفصلها عن اخواتها وتضبط اطرافها والآلة العادَّة
تعدها دون ادنى مداخلة ليد بشرية ومنها ما يطبع السفاتج ذات القيمة ومنها
ما يطبع سندات القرض الاهلي المقرر حديثاً لنفقات حرب الترنسفال جميعها
تفصّل وتقص وتعد وتلقى علي الرفوف المعدَّة لكلٍ منها كما في مطبعة البنك
نوط دون مساعدة يدٍ ثم دخلت الى قاعة مجلس ادارتهِ فوجدتها واسعة
وغالية الاثاث لكن لم يكن ثمة من جالسٍ فيها ثم نزلتُ بسلالم متعاكسة
ومتعاطفة الى مخازن الذهب فنظرتُ كأني دخلتُ الى الكنز المرصود من
تبر يلمع على مفارشٍ من الحديد ومن سبائك وهاَّجة وركاز برَّاق حتى اذا

وقفتُ امام هرم من تلك السبائك طلب اليَّ محافظ الخزانة ان احمل واحدة منها فحملتها لكن بعد اجهاد القوى ثم أُدخلتُ الى مخادع متلاصقة كنت ارى في كلٍّ منها شيئاً غير ما رأيتُ من كنوز البنك حتى انتهيت الى محل رأيت فيهِ آلات تفرز الدينار الكامل الوزن عن ناقصهِ بصورة تستوقف النظر وذلك انهم كانوا يلقون بقراطيس من الذهب فيخرج من مصرف الآلة ديناراً ديناراً الى آلةٍ تزنهُ فرداً فرداً فان وُجد كاملاً انصرف من تلقاء ذاتهِ الى قابلةٍ في اسفل الآلة واختفى عن النظر واذا وجد ناقصاً انصرف الى آلةٍ قطعتهُ نصفين وسقط في درجٍ مخبوء . ثم ارانا ناظر هذا القسم مبدأ الحركة الدائمة لهذه الآلات وافرغ تأهيلاً بنا ثلاث قابلات كان يتساقط الدينار الوازن اليها خلال وقوفنا وجمعها في وعاء كبير وقال لي احملها اذا استطعت فقلت لهُ اذا كان حملها الى صندوقي فوسائط الحمل كثيرة واجعل ذلك تذكاراً لزيارتي البنك فاغرب في الضحك ثم انصرفت الى قسمٍ آخر رأيت فيهِ مسبك السبائك ومصب الزبُر كل ذلك برفق مستر هوبس صديق الخواجا صيفي

ولما خرجت من البنك ابديت الشكر الجزيل لنيابة الادارة والى صديق الصيفي وذهبت برفق كاتبهِ الى مكتب اللويد الشهير في العالم والفريد في نوعهِ لان المرجع والثقة والمعول عليهِ في تعيين درجات سفن الممالك والمورد الذي يُعرف منهُ آناً فآناً ما يصيب كل البواخر والسفن في ايّ جهة من الجهات من مصائب الانواء والعوارض والغرَق والجنح والتعطيل ويُعلم من اخبار وصول السفن والبواخر الى الثغور المقصودة واخبار تأخرها عن الوصول واسبابهِ . فلما صعدتُ اليهِ وهو في طبقةٍ عليا وجدتُ قاعةً كبرى يحيط بها غرف كثيرة لنظارات متعددة مشغلة جميعها بكتبةٍ ورؤساء اقلام ورأيتُ شيخاً ذا لحيةٍ طويلة لابساً برنساً احمر جالساً على اريكةٍ مرتفعة في طرف القاعة يصرخ من حين الى حين بعالي صوتهِ اخباراً عن

يدخل المكتب والاولى ان يسمي بالقصر و يعلن عن اصحاب الحاجات والحوادث

ثم نزلتُ منهُ وذهبتُ الى البرتش ميوزم (بيت العاديات البريطاني) فوجدتهُ قصرًا منيفًا وبناء فخيمًا ذا طابقين كبيرين السفلي منهُ يحتوي على التماثيل والانصاب والآثار القديمة منذ عهد التاريخ ففيهِ من اصنام مصر في كل اعصرها ومن تماثيل فراعنتها عدد لا يضاهيهِ فيهِ متحف من متاحف الدنيا غير متحف القاهرة المعتنى بهِ منذ عهدٍ قريب او منذ أُغلقت دون اختطاف عادياتها الابواب وتمنعت بفضل الاحتلال عن ايدي اهل الغرب. ولا يخفى مقدار ما علم عن الاحقاب الغابرة عند ما ازاح حجر رشيد الموجود في هذا المتحف اللثام عن القلم الهيروغليفي وفك خطوط الآثار المصرية التي استمرت تسعة عشر قرنًا طاسمًا لدى اهل التاريخ ورأيت فيهِ من آثار الاثوريين والماديين والكلدان والفرس شيئًا كثيرًا لم يحوهِ بيت من بيوت العاديات فهنا ترى المنحوتات الاثورية الفخمة المكتَّبة والمكتبة القرميدية المسطورة على صفائح الاجر بالقلم المسماري وهنا ترى لعظماء اليونان والرومان من انصاف التماثيل ما يسمونهُ بالافرنجية بوسط عددًا يستغرب الرائي حصول هذا البيت عليهِ لانك لا تسمع بفيلسوف او شاعر او بطل او خطيب في الامتين المذكورتين الأ وترى لهُ تمثالاً كاملاً او نصفيًا اصليًا كان او مقلدًا (اي منسوخًا عن اصيلٍ يوجد في غير هذا المحل) وفيهِ ترى شيئًا نزرًا من آثار اجدادنا الفينيقيين الذين طمس الدهر الأ ما قل على ذكراهم كما طمس على مجدهم الباذخ لم اتبين عليها رسومًا وخطوطًا واضحة اما لبعد العهد او لخساسة الحجر الأ على الواح قليلة لا كما رأيت منها فيما بعد عند زيارتي الاستانة في متحفها الشاهاني حيث رأيتُ فيهِ آثارًا فينيقية استخرجت من صيدا ومن حواليها ومن امريت وجهات طرطوس واضحة الرسم والنقش. وترى في هذا المتحف البريطاني شيئًا قليلاً من آثار ترواده لان معظم

المكتشف منها مؤخراً بسعي شليمن أُودع في متاحف الاستانة وبرلين. وكم تمنيت ان ارى لعاد وثمود وطسم وجديس وللعصر الجاهلي في جزيرة العرب اثراً بين هاتيك الآثار فلم اجد واعياني التفتيش ثم صعدتُ الى الطابق الاعلى فرأيتُ فيهِ اروقة تناهت بالاتساع وفيها رفوفٌ من الارض حتى سقوفها مرصوفة بكتبٍ من اكثر اللغات تنقسم من حيث مواضيعها ولغاتها الى اقسامٍ شتَّى ما لو بقي الانسان السنين الطويلة ينظر الى ما على كل كتاب فيها من العنوان والموضوع لما احاط بجزء من محتويات قسمٍ من اقسامها فاكتفيت بما رأيت واجتزأتُ بان اسأل احد نظَّار المكتبة عن القسم الشرقي فدلني على مخادع متلاصقة متقاربة حوتْ رفوفها وقماطيرها كتباً وصحفاً في اللغات الهندية وفروعها واللغات الصينية ولهجاتها والملاقية واليابونية والفارسية والسيامية وغيرها ولما لم ارَ ما طلبتُ سألتُ ناظراً آخر ان يدلني على القسم الموجودة بهِ كتب اللغات السامية فاخذ بيدي واوصلني الى بابٍ وقال اقرع عليهِ ومضى فلما قرعتُ انفتح وظهر امامي شاب وسألني عما اريد فقلت لهُ المكتبة السامية فقال حبًّا وكرامةً ثم مشى امامي الى ناظرها وقال دونكهُ ومضى فسألت عندها الناظر وكان رجلاً عليهِ ملامح اللطف ومهابة العلم عن الكتب العربية القديمة فما ذكرتُ لهُ ذلك حتى ابرقت اسرتهُ سروراً لانهُ من طلبة هذه اللغة كما علمتُ ذلك بعد هنيهةٍ وقال اليك ما تطلب ثم مضى وجاءني بمصحفٍ مكتوبٍ على رقٍّ بماء الذهب مؤرخاً بحسب استقراء عمدة المكتبة الملوكية سنة ١٣٠٤ ميلادية قرأت بهِ ما ترجمتهُ "كتبهُ ابن الوهيد (ولعلهُ ابن الوحيد) بامر ركن الدولة الذي تسمَّى بالملك الظافر احد مماليك سلاطين مصر" فلما رأيتهُ قلتُ لهُ اهذا اقدم مصحف في المكتبة قال لا نخرج من الحجرة وجاءني بمصحفٍ على رقٍّ فتحتهُ فاذا بهِ مكتوبٌ على رق بالحرف الكوفي يظن انهُ كتب في اواخر القرن الثاني او اوائل الثالث للهجرة وذلك من ملاحظة الاحرف الكوفية لان علماء فن التاريخ

تعقبوا تكيُّف هذه الحروف وكل حروف الالسن جيلاً فجيلاً فعلموا ان صور
الحروف تتكيف تدريجاً حتى تنتهي الى صورةٍ غير صورتها الاصلية فما كان
كوفياً بحتاً عرفوا انهُ كان المستعمل في التاريخ الفلاني من مقابلتهِ على غيرهِ
من الكتب والصحف المكتوبة بذلك العهد وما رأوا في صور حروفهِ اختلافاً
او بعض اختلاف عما سبق حكموا بانهُ كُتب بعد العهد السابق وربما عينوا
بالحصر تاريخ كتابتهِ عملاً بقاعدة المقابلة بين خطوط الاعصر. وعندهم لهذه
المقابلة كتب وصفائح كثيرة وصلت اليهم من الاحقاب الخوالي هذا اذا لم
يكن ثمة من تاريخ واضح على نفس الكتاب او على الاثر. ثم اراني كتاباً
لتيدوروس ابي قرّة اسقف حرّان مكتوباً على رقٍ مؤرخاً سنة ٦٣٦٩ لادم
وسنة ٢٦٤ للهجرة وسنة ١١٨٨ للاسكندر بقلمٍ نسخي يظهر على صور
حروفهِ قرب عهد الولادة من الحرف الكوفي لتشاكلٍ في الحروف واتصالٍ
بين افقي القلمين فلما تصفحت بعض صفحاتهِ علمتُ بعد العناء والامعان في فك
حروفهِ ان موضوعهُ بحث ديني ليس من مصلحتي الاشتغال في ايراد ملخصهِ
الآن على اني وجدتُ بالناظر المذكور انيساً اديباً انساني بلطفهِ وحشي من
ازورار احداق قومهِ وتقطب وجوههم ولما ازف وقت اغلاق المكتبة خرجتُ
مودعاً بعد ان تبادلتُ واياهُ بطائق الاسماء وقرأت اسمهُ مستر اليس

وفي مساء النهار ذهبتُ ورفيق لي الى نادي مضام تسو وكان المطر
هطالاً وغايتي ان ارى تماثيلها الشمعية المحكى عنها انها اتقن صنعاً من مثلها
في محل كرافين في باريس فلم اجدها كما ذكروا بل رأيتُها دون تلك في دقة
التشبيه وفي انتقاء تمثيل الرجال والنساء الأوقع ذكراهم في السمع والأحب
رؤياهم الى العين لما لهم في حادثات الايام من الشأن المذكور وقد ادركتُ
ان متحف كرافين قد اصاب واحسن في تقسيم تماثيلهِ اقساماً جمع كل حادثٍ
برجالهِ على حدةٍ لا كما هو الحال في نادي مضام تسو حيث ترى في قاعة
واحدة طويلة عريضة رجال الاعصر الخالية ورجال التاريخ بجانب بعضهم

كأنهم عائلة واحدة وهم كما لا يخفى اباعد في الجنس والبلاد والمواقع والازمان لا صلة بينهم ولا لحمة تجمعهم

وفي صباح الثاني من حزيران خرجت من النزل وقصدت برفق كاتب الخواجه صيفي المحل المعروف بمستودع الامانات المؤسس منذ ثمانية وعشرين سنة لقبول الامتعة والذخائر الثمينة التي يحرص عليها المرء ويخاف عليها من اللصوص في بيتهِ وفي صندوقهِ بمقابلة اجرة سنوية يقوم بها المودع الى المستودع فعلى ما كان قيمتهُ الف ليرة ثلاث ليرات وعلى ما فوق ذلك بحسب النسبة فلما دخلناهُ رحَّب بنا وليُّ المحافظة واصحبنا بمأمور يرينا محتويات المحل فانزلنا في سلَّم وجدنا في اسفلها سرداباً ضيقاً يُطل من كوى فيهِ على اثني عشر نفقاً الواحد لصيق الآخر فنظرنا في احدى الكوى وهي مشبكة بالحديد الثخين دهليزاً مستطيلاً ضيقاً مناراً بسرج كهربائية ليلاً نهاراً يحوي على جانبيهِ لغاية آخرهِ صناديق من الحديد بشكل دروج كبيرة وصغيرة على نسبة حجم الامانات المودوعة ورأينا ارض هذا الدهليز وسقفهُ حديداً مطروقاً ثم اخذ المأمور يشرح لنا الوقايات المتخذة لحماية المستودع من اللصوص والناقبين والنار ملخصها انهم احاطوا المحل ظهراً لبطن بخنادق وفراغات يملئونها ماء حالما يرون ناراً تدنو منهُ بمضخات سريعة العمل يمسي بها المستودع باقل من لمح البصر ضمن غلاف كثيفٍ من الماء ثم حكى لنا عن سمك حديد الدروع حكاية تروّع كل لصٍ وتجعل المحل في العين امنع من جبهة الاسد وفوق ذلك ارانا الحرَّاس وقوفاً حولهُ اناء الليل واطراف النهار

ثم ذهبنا منهُ الى محطة جسر التيمس حيث ركبنا القطار الى قصر البلور (كريستل بالس) فوصلناهُ بثلاثة ارباع الساعة كأنا مشينا على حساب ثلاثين ميلاً في الساعة (وهي اقل سرعة في سكك حديد انكلترا) اثنين وعشرين ميلاً طولاً مستقيماً من احدى جهات هذه المدينة العظيمة ولم نبلغ طرفاً منها او نشرف على نهايةٍ لها . وقد لاحظت ان ساكنيها لا يستبعدون المسافات

فلو سألتَ عن محل لاجابوك انهُ قريبٌ ويكون منك على مسافة اربعة اميال لان كبر المدينة والعادة كما لا يخفى قصّرا عليهم الابعاد فالطالب الوقوف على ما فيها من المناظر والمشاهد وهي المدينة التي لم يتفق في تاريخ الانسان تكوُّن مثلها كبرًا لا يلقى اشد كلفة ومشقة عليهِ من تعاقب الانتقال من المركبات الى سكك الحديد ومنها الى المركبات دواليك دون انقطاع . فلما وصلنا الى موقع القصر دخلنا في ممرٍ طويل تحجب سقفهُ وجانبهُ الايمن بالبلور المقلم حتى انتهينا الى بناء سلالمهُ من الخشب صعدنا فيها الى ايوان نقاضونا بهِ اجرة الفرجة ثم دخلنا منهُ الى باحة القصر فرأيتُ منظرًا ساميًا وبديعًا جامعًا بين الفخامة وحسن الهندسة والباحة مسقوفةٌ بالبلور المضلَّع ومفروشة ارضها باخشابٍ مموهةٍ بطلاء صلب ذات اتساع لا يطلب المزيد صفَّت على جوانبها تماثيل مشاهير رجال انكلترا وبعض عظماء اوربا والاعصر الماضية بينها امثلة اهم اصنام معابد اليونان والرومان والمصريين . وربما ينتظر القارئ ان اقص عليهِ عما كان فيهِ من معروضات الامم سنة ١٨٥٠ فتلك قد ذهبت ولم يبقَ غير ظرفها الخالي المحتفظ بما كان عليهِ من الزينة والزخرف والمبقى عليهِ ليكون منتدًى للاحتفالات العظيمة فقد راق لعيني موقعهُ بين غياض ورياض لم يقع نظري على ابهج منها منظرًا في كل انجاد انكلترا واغوارها وقد لذ لي المقام فيهِ بعد غمّة لندن وظلماتها وتمنيتُ لو كان لي ان امكث فيهِ اسبوعًا ولو لهوتُ عما قصدتهُ بالمجيء الى اوربا والوقوف بالذات على سر ما قرأتهُ في بلادي عن عظائمها لاني ولا اخفي عليك قد شعرتُ من تعبي في الطواف والجولان ان بين حب نفسي الوقوف على الاشياء و بين قوى عضلي بونًا شاسعًا وتفاوتًا عظيمًا لا استطيع التوفيق بينهما . وقد ظن اهلي ان السياحة تكسبني صحة ونشاطًا ولم يعلموا ما أتحملهُ من مشاق الاستقصاء والاحاطة ولو بنزرٍ قليل من ظواهر المشاهدات فضلاً عن خفاياها بين قوم يتيهون على الايام ولا يهم اكثرهم

غير كسب المال كيفما لاح لهم كسبهُ (اللهمَّ ضمن حدود القانون واللطف)
لا يلبون ان ناديت ولا يجيبون ان سألت . ولقد يقال ان في الكتب
المسماة بالدليل المعروضة لمشترى الزائرين عند ابواب كل نادٍ ومنتدًى
وملعب ومتحف ما يغني عن السؤال اقول لقد خبرتها فلم ارها تشفي غليلاً
او تهدي ضلولاً لانها كثيرًا ما تعمل الحبة قبة والشك حقيقة والحقيقة
شبهة بحسب اهواء كتبتها وهي لا تخلو من الاسهاب المملّ في غير موضعهِ
ومن الاختصار المعيب عند الحاجة الى الاسهاب . ان ذكرت الانساب ادعى
كاتبها لامتهِ الفضل على العالمين وان تعثر في ذكر امةٍ غير امتهِ حاول
ما استطاع اغماط فضلها . ولما كان قصدي من السفر المشاهدة بعيني والسمع
باذني والحكم بما اعطيتهُ من الادراك لا الاعتماد على روايات وريقات وصحف
هذا حالها (ولئن ملأَت جعبتي تخجيلاً من بائعيها) فلو استرشدتُ بها
وجعلتُ عليها معوّلي ونقلت عنها لكنت غنيتُ عن مشاق السفر وجلستُ
في غرفتي وألفت رحلة وقلت لصحبي دونكموها رحلة جبت البلاد لاجلها
لكنني قصدتُ على ما بي من العجز ان اروي عمّا رأيتُ وسمعتُ وخبرت لا عمّا
قرأت وانا على مقعدي حتى لا اكون كاذبًا عند نفسي او خائنًا عهد الصدق
مهما تجشمتُ من التعب والعنا . ولما حان وقت الظهيرة جلست في احدى
المطاعم الانيقة فتناولتُ غذاء خفيفًا ثم نزلت الى مخادع القطر السفلى فشاهدت
اسرابًا منوعة من القرود واسماكًا سابحة في الحياض وحيتانًا مصبرة على
الاسرَّة وحشرات محنطة في المحافظ وغير ذلك من المخلوقات حتى اذا اذنت
الشمس بالمغيب رجعتُ الى النزل المعهود معجبًا بحسن هندسة هذا المعرض
حتى اني فضلتهُ ولئن كان صغيرًا على معرض باريس الخالية مواقع بناياتهِ
ومشيداتهِ العظيمة من لطف التنسيق واحكام المقابلة

ولما اصبح الثالث من الشهر وكان احد العنصرة سررتُ لرؤيتي الشمس
اول مرةٍ في لندن لكن لم يطل السرور حتى تحجبت بجلباب من الغيوم

فجلست في حجرتي ادوّن ما مرَّ بك من السطور فاذا بالباب ابنا صديقي الخواجا جورج كرم وكنتُ اذ ذاك انتظر مجيئهما لاني كتبت لهما ان يوافياني الى النزل ففرحتُ لرؤياهما وسرنا الى كنيسة مار بولص العظمى لحضور قداس الكنيسة الانكليكانية العليا فوجدتُ صحن الهيكل المتوسط فيها غاصًا بالمصلين فجلسنا مع الجالسين على مقاعد يتلو بعضها بعضًا وانصتُ لما يقرأهُ ويقولهُ القس المصلي الواقف امام المذبح فاسمعتني اذني منهُ نغمة صلاة الطقس الشرقي ونظرتُ الى ملبسهِ الكنائسي فرأيت عليهِ مسحة الشكل الغربي وكان الارغن الكبير يضرب على وفاق الحان المرتلين رجالاً ونساء غير اني لم البث فيها لختام القداس خوفًا من تواطوء صقيع البلاط وصقيع لندن على رجلي واعصابي وكان الخليق بالقوم وهم في اشد البلاد بردًا وصقيعًا ان يفترشوا ارض الكنيسة خشبًا اذا لم يفترشوها لغناهم عنبرًا وقاية لصحتهم وارجل الملكة التي تنتاب هذا المسجد العظيم عند كل احتفالٍ رسمي .

ثم خرجنا منها وركبنا الى كيوكاردن وهو بستان وسيع تناسقت اشجارهُ وتشاكلت ازهارهُ وتغنى الطير بين خميلاتهِ فاطربني شجوهُ وكنت مذ فارقت ارباض باريس لم اسمع لهُ تغريدًا فجلسنا على كراسي تحت ظل ظليل وحاجب الشمس يبدو مرة ويغيب اخرى ووجه السماء مكفهرٌ يهددنا بما في خزانة سحبهِ من مواطر السيل وما في غمدها من سيوف البروق اللامعة فخلوت بنفسي اذ ذاك لحظة تجلّت لي بها قدرة الانسان على مغالبتهِ الطبيعية وتحويلهِ بجهدهِ البلقع روضًا والغامر عامرًا وقلت لو صُرف عشر معشار هذه العناية في غير قطر — في قطرٍ حباهُ خالق الكون كما في وسع الطبيعية من بديع المحاسن فكيف لا يصبح الجنّة الموعودة ؟ ثم انتبهتُ فاذا بي موجع الرأس من البرد والزمهرير فاشرتُ على رفاقي بالانصراف ثم سرنا نطوي الارض مشيًا على القدم حتى انتهينا الى حافلةٍ ركبناها لغاية موقفها ثم مشينا منهُ الى احدى محطات سكك الحديد الموصلة الى شرين كروس فلما وصلتُ

الى النزل حسبتُ انا قطعنا مسافة ثلاثة وعشرين ميلاً معظمها مرورًا
تحت الارض في سرادب مظلمة وذلك في خطٍ يعاكس خط الوجهة التي
سرت عليها بالامس الى قصر البلور فتأمل اتساع المدينة واقرإِ السلام وحيي
ربوع الامن والعمران

اني عرفتُ بعد البحث الدقيق والاستقراء التام ان عظمة انكلترا وفرنسا
وسائر اوربا انما هي قائمة على اساس تربية الولدان فالحكومات جبرًا والزامًا
رضي الوالد او لم يرضَ تأخذ من ناهز من الاولاد السنة التاسعة او العاشرة
من العمر ذكورًا واناثًا الى المكاتب والمدارس كلاً بحسب طبقتهِ وحرفة
والديهِ هذا اذا لم يكن في استطاعة الوالد تربية ولدهِ وتعليمهِ حسبما يشاء
ويريد ففي هذه الطريقة عمّت التربية وانتشر التهذيب انتشارًا منع ان
ترى ولدًا شاردًا في الازقة والشوارع وجعل الجيل المربَّى هذه التربية ان
يحسن تربية الجيل التالي وهو في الاحضان دون كبير عناء وقبل ان تهبّ
عليهِ ريح المفاسد حتى اذا حان دخول الولد الى المدرسة اتاها حافظًا عن ابيهِ
وامهِ اوليات الصدق في القول والعمل وخصال الرفق بالضعيف ومبادىء
العدل والامانة ونبذ التشيع الاَّ في حب الوطن واعتبار المواطنين انصارًا
واخوانًا على السراء والضراء بلا سؤالٍ عن مذهبهم ودينهم . فهذا الاساس
يا أُهيل الشرق هو اساس ملكهم وعمرانهم والجالب ثروتهم والباسط يدهم
على اكناف الارض هذا هو ركن ودعامة نجحهم لا سواهُ فلا تتلهون بنسبة
انحطاطكم الى حكوماتكم لان حكومتكم هي منكم فان احسنتم احسنتْ وان اسأتم
اساءتْ لانها ليست بعنصرٍ منفردٍ او قوة هابطة من عالم الارواح بل هي رجال
منكم ومن جيلكم وقومكم لو سهرتم على تربيتهم صغارًا لحسنت اعمالهم كبارًا .
وقد عرفتُ ايضًا مقدار ما عند الامم الاوربية من حب التضافر على ما يرفع
شأن بلادهم والتهالك فيما يرفع الشنار عنها وان اختلافهم الداخلي في الآراء
وتفرقهم احزابًا وطرائق في نزعات السياسة يتلاشى بين اقدام طارىء

يطرأ على الصالح العام وعرفتُ انهم سريعو النهوض لردع الظالم عن ظلمهِ ولو كان وليّ امرهم بطرق ثلاث اولها بالاجتماعات المحلية المسماة ميتن وثانيها بالخطابات على المنابر وثالثها بالصحف والجرائد . ومن مآثرهم انهم يجلون من يحسن صنعاً ولو كان من احط الناس منزلة لا يبخسون لهُ حقاً ولا ينكرون عليهِ منقبة بل ينصبون لهُ الانصاب في الساحات و يتفننون بمدحهِ ابد الدهر وقد حضرت ليلة في احدى المراسح الكبيرة الجامعة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء فشاهدتُ فيها ما لا انساهُ من نهوض الجمع المحشور عن كراسيهم اكراماً لمحسنٍ ذكر اسمهُ عرضاً في سياق الرواية وهتافهم باصواتٍ دوت كالرعد تهليلاً برجل آخر لم يكن لهُ من مزية على ما اظن غير تأليفهِ كتاباً قرّع بهِ اهل بلادهِ وجيلهِ على معايبهم . فالامم التي تعترف بفضل رجالها وتكافئهم بالمدحة والهبات السنية وتبوئهم اعلى مناصب البلاد لهي امم حية لا يخشى عليها اذا تعس مهرها يوماً في جائحة من الجوائح

يسوقني الحديث والحديث ذو شجون الى ذكر تربية الاولاد في قطرنا السعيد فانَّا بعد ان نحل عنهم القماط ونزيح عنهم التميمة نسلمهم الى الازقة حيث يتعلمون من معاشرة اترابهم الشوارد اشنع امثولات السباب والشتيمة واخبث اساليب الحيلة والكذب والنفاق حتى اذا اتم الولدان اذدخار هذه الخلال الذميمة ادخلناهم الى الكتاتيب حيث يجلسون الى معلميهم واشياخهم كاصنام مسندة لا يُعرف ان فيهم نسمة من الحياة الأ عند ما يصيتون بقراءتهم متفقاً ويسمعونها ليس الى استاذهم بل لاهل المحلة لشدة ما يعلون باصواتهم فتمرُّ عليهم طوال الايام والسنين حتى يختم التلميذ النجيب منهم قرآنهُ او زبورهُ او انجيلهُ فيخرج من ذلك المكتب عالماً نحريراً لو استقرأتهُ او استكتبتهُ لوجدتهُ لا يعرف الالف من المأذنة او سألتهُ عن الخالق لاجابك انهُ غفور رحيم وعن المخلوق لقال ان مَن كان على غير مذهبهِ ودينهِ فهو ملحد كافر يحل اخذهُ بالقوة او بالحيلة — اوَّليات تلقوها في احضان

الامهات الجاهلات وفي معاطف الطرقات زادها تمكيناً في اذهانهم سوء آداب معلميهم وشيوخهم . وقد يوجد بين مواطني من عرف ما للعلم الصحيح من المنزلة الرفيعة فارسلوا بولدانهم الى المكاتب والمدارس التي انشأتها الدولة العلية والرسالات الاجنبية والتكايا الاهلية يعلمونهم بعض العلوم الهينة وبعض اللغات لكن اذا امعنتَ النظر علمتَ انهم دخلوا هاتيك المدارس عطلاً من حلي الادب التي لا تُنال في غير بيوت ابائهم احداثاً وعلى صدور امهاتهم اطفالاً فيصبح غاية ما ينالونهُ في تلك المدارس ان يتعلموا التكلم ركيكاً في لغة اعجمية وان يحفظوا قاعدة النسبة في الحساب فان وليتهم خطة خانوا واذا انطت بهم كتابة الدفاتر غدروا بقاعدة النسبة والتكسير لمرام في النفس كما شاهدتُ غير مرة وما ذاك الا لان كثيرين منهم يدخلون المدارس كذابين مخادعين منافقين معجبين بانفسهم تلك عيوبٌ رسخت فيهم منذ المهد بحيث يستحيل على الاستاذ والمدرسة استئصالها فاين منا اللحاق اذاً بالاقوام الراقية اوج النجاح بفضل تربية الامهات

سرايا برلمان انكلترا

وفي اليوم الرابع من حزيران كان اليوم الثاني في عيد العنصرة خرجتُ من النزل في صحبة اصحاب للتفرج على سرايا وستمنستر مقر مجالس انكلترا العالية المسماة برلمان فعند ما دنوت منها رأيت تمثال كرومول المتوفى سنة ١٦٥٨ وهو منصوب حديثاً في عرصةٍ بقربها وكان لنصبهِ في ذلك المكان قال وقيل لخلفٍ في اهليتهِ لان بعض الشعب انكر عليهِ استئهال الكرامة بالنظر لما كان عليهِ من القسوة والعنف في السياسة والبعض اوجبها لهُ لانهُ كان مؤسس حرية البلاد ورادع السلطة عن التطاول على الحق الشعبي . ثم دخلت السرايا فرأيتها بناء كبيراً بسيط الزينة الا في الصور المتقنة والتماثيل البديعة الممثلة اهم حوادث انكلترا واعاظم رجالها ثم استطرقت الى قاعة

مجلس السادات فوجدتها تزيد بالطول على العرض تحيط جهاتها الثلاث مقاعد يعلو بعضها بعضاً والجهة الرابعة يتوسطها العرش الملوكي وعلى جانبيهِ متكئات الجانب الايمن منهُ لامراء الدم الملوكي والشمالي لوزراء الدولة . ثم مشيت من هذا المجلس الى مجلس العموم بممشى غير طويل تغشى جانباهُ وسقفهُ بالصور فوجدتهُ كالاول لكنهُ اوسع قليلاً بلاصقهُ مخدع تام التربيع يختلف اليهِ النواب عند اعطاء الرأي ورأيت على حيطانهِ الاربع صفوفاً من الارقام لكل عضوٍ رقمٍ يختص بهِ ينزعهُ عند الاقتراع على الرأي اذا كان رأيهُ سلباً ويبقيهُ اذا كان رأيهُ ايجاباً ونظرت في الايوان الحائل بين المجلسين اربعة تماثيل من المرمر احدها للشهير كلادستون واسفت لاني لم ادخل المجلسين المذكورين ابان التئام الاعضاء وانعقاد الجلسات فيهما والسبب في ذلك تصادف وقوع عطلة العنصرة

وستمنستر ابه مدفن الكبراء

ثم نزلت من السرايا ومشيت خطوات قلائل الى وستمنستر ابه فوجدتهُ كنيسة عالية البنيان تشابه البنثيون في باريس الآن هذه مدافنها وتماثيلها موضوعة على وجه الارض وتلك تحتها ذات ثلاث هياكل ملئت جوانبها بقبور مشاهير انكلترا او بتماثيلهم وفي وسطها كشك مستعلي قديم العهد والايام صعدت اليهِ بسلَّم فرأيت اجداث ملوك انكلترا القدماء كلها من الخشب بينها جدث يتجاوز قدمهُ الثمانمائة سنة ثم نزلت منهُ وطفت حول الكنيسة فرأيت لحوداً كثيرة لاصقة بجدرانها وتمثالاً للشهير دزرئيلي الملقب باللورد بكونسفيلد مخطوطاً عليهِ هذه العبارة "وضع هنا بقرار البرلمان" فاجللت امةً تضع تمثالاً في كنائسها وبين آثار ملوكها وتماثيل عظمائها لرجلٍ نبغ فيها من ارومةٍ يهودية وقد مات مشكوكاً بنصرانيتهِ

هايد برك

ثم خرجت من الكنيسة متعباً كليلاً وجئت الى مطعم بقربها تناولت فيهِ الغداء وبعد الاستراحة قليلاً ركبت الى هايد برك وهي الغوطة المشهورة باتساعها وبكونها متنزهاً ومنتدى للاجتماعات الكبيرة التي تضيق عنها الفسحات الوسيعة حيث يلتئم فيها احياناً ما يزيد عن مائة الف نفس فوجدتها جنة تجري من تحتها الانهار مروجها مخضرَّة ودوحاتها بواسق وازهارها يانعة بين بحيرات تجري فيها الفلك وعيون تتدفق بالماء الزلال وطرقات مخططة يحفها حواجز من مشبكات الحديد فجلست ورفيق على كرسي فيها تتنسم خالص النسيم وانشتم عاطر الازهار فاذا بالقيم على الكراسي وقف امامنا متأدباً وطلب الينا اداء اجرتها ولما نقدناه' اعطانا سنداً مطبوعاً يشعر بما وصله' ثم انتقلنا الى موضع آخر في نفس الغوطة وجلسنا فيهِ على كراسي منتشرة هناك ايضاً فجاءنا قيم آخر وطلب الاجرة فقلنا له' انّا اديناها فلم يتردد في تصديقنا ولم يصبر لحظة ليرى السند بل مضى مسرعاً وهكذا كلما انتقلنا وجلسنا في المواقع المتباعدة كان القوّام عليها يصدقوننا بمجرد القول دون ابراز السند فهذه الحكاية على ما بها من قلة الاهمية اردت ادراجها للدلالة على انتشار الصدق والتصديق بين القوم حتى اسافلهم واصحاب المهن الدنيئة فيهم ورأيت في هذه الغوطة الوفاً من الناس ركباناً ومشاة ازواجاً ووحداناً لا يعطفون على مَن لا يعرفونهُ ولا يسددون اليهِ نظراً كأنهم في واد وهو في واد او كأن لا صلة بينهم وبينهُ في الحياة وفي الانسانية ورأيت الوفاً من الطيور الحائمة على رؤوس المتنزهين وعلى قيد فتر منهم ترفرف باجنحتها على جبهاتهم آمنة مطمئنة لا تخشى يد غاصب او احبولة صائد او سهم قانص كأنها عرفت انها في حمى الجنة نزهة للخواطر وبهجة للنواظر

قصر التصاوير

ثم رجعت الى النزل مساء واصبحت في اليوم الخامس من حزيران
اتهيأُ للرحيل عن لندن الى غيرها من امهات مدن بريطانيا حيث لم يبقَ لي
من مزار يهم الطواف فيهِ سوى الاكواريوم (حوض الاسماك) وحديقة
الحيوانات والناشيونل غالري (قصر التصاوير) ولما كان القصر المذكور
اقربهنَّ لداري سعيتُ اليهِ صباحاً فوجدتهُ قصراً باذخاً فسيحاً يحوي لمشاهير
مصوري الممالك قاعات مخصوصة كما في قصر اللوفر في باريس فاعجبني ما في
قاعات الايطاليان من الصور والقطع النفيسة المنسوبة لقدمائهم ومحدثيهم
منها قطعة للشهير موريلُّو تمثل السيد المسيح مائتاً وصورة اخرى لولد قروي
تناهتا في دقة تشبيه الموت وهيئة اولاد القرى ورأيت في القاعة المختصة
بمصوري البندقية صورة مكتوباً على ذيلها "المقاولة على مشترى خمر" جمعت
اربعة رجال حول مائدة موضوعاً عليها صك المقاولة وعلى هيئة كلٍّ من
الرجال الاربعة شعاع من الخمرة يختلف باختلاف امزجة واعمار كلٍّ منهم
فالناظر الى هذه الصورة مهما كان عبوساً لا يتمالك من الضحك والاعجاب
ببراعة المصور

الاكواريوم

ثم سرت من القصر الى الاكواريوم الذي نظرت مثلهُ في باريس لكن
ما رأيتهُ اليوم كان اجل واسمى واتقن رأيت حياضاً كبيرة ملئها الاسماك
بانواعها واجناسها النادر رؤياها سابحة حولي انظر اليها من خلال الزجاج
الشفاف كأني بينها في وسط اليم ذلك منظر حريٌّ بالسعي اليهِ لما فيهِ من
الفكاهة واللذة

جنينة الحيوانات

ومنهُ رحت الى جنينة الحيوانات فرأيت فيها ما اربى عدداً واجناساً

وانواعاً على المجامع الحيوانية التي شاهدتها حتى اليوم ففيها الضواري بكل اجناسها من الاسود الافريقية والهندية والصينية والاميركانية ومن النمورة والدببة والفهود وغيرها انواعاً واشكالاً لا يحيط بها علمي وفيها من الزحافات وسباع الطيور ودواجنها ما اجهلها او يطول بي الشرح لو تجشمت ذكر اسمائها كما هو مسطور على وكناتها وانفاقها وفيها من الحيات والثعابين حتى البوا ما تقشعر لمنظره الابدان ومن القردة واجناسها حتى الشمبنزي والغوريلا ما يضحك تارةً ويدهش العين اخرى فتخيلت اني في غير عالم الانسان وان الانسان بتسلطهِ عليها وحبسها اصبح اكثر استطاعة منها على الايذاء ثم رجعت الى النزل وامسيت افكر ليلي في امر فقدان الحشرات والهوام اللاذعة في كل البلاد التي جبتها لاني منذ وطئت اوربا لم ارَ في الامكنة التي زرتها اثرًا للبعوض والبق والبراغيث والذباب حتى كدت احكم ان هذه الاحياء ليست من قاطني تلك الاصقاع هذا ولم اتذكر اني رأيت العناكب فان تحققت ذلك مستقبلاً حسبت فقدانها ذيلاً لفقدان تلك اللواذع وطوّبت بلادًا بلغت فيها النظافة ان تفني احياء خُلقت منذ الازل لتكون عقاباً للانسان على الاقذار والوساخة

مهرجان فتح بريتوريا

وبينما كنت في حجرتي من النزل متوسدًا تلك الليلة مضطجعاً للاستراحة اذا بضجيج وصخب في جانب الشارع يصم دويهُ الآذان ونور كهربائي يسطع من خلال سجاف النافذة فقلت لعل القوم يزفّون عروس البشرى بفتح بريتوريا عاصمة الترنسفال فخرجت من الحجرة ونزلت الى باحة النزل وكانت فسيحة فرأيتها غاصة بالرجال والنساء فتياناً وكهولاً وشيوخاً منهم مَن يرفع على اوتاد اعلام الامة ومنهم مَن ينفخ بالابواق ومنهم مَن يحمل المصابيح والمشاعل بعضهم يغنّي اغنية وطنية وبعضهم يرقص على انغام

الابواق وكلهم في هرجٍ ومرجٍ او في ليلة المهرجان حتى اذا انتهوا من تحية النزل وكان كما لا يخفى من فنادق العظماء خرجوا من باحتهِ فتعقبت ساقتهم لحد مطل الشارع فرأيتهُ مزدحماً بالعوالم على امتداد طولهِ واتساع عرضهِ وكلهم على النمط الذي رأيتهم بهِ في دار النزل لكنني انكرت عليهم وانا كما علمتم شرقي خلة التقبيل غيلةً واغتصاباً وهم مشاة في ذلك المزدحم دون ان يكون بين المقبِّل والمقبَّل قرابة او سبق معرفة لما لاحظتهُ من تدافع المقبِّلين واسراع خطواتهم لان القبلة عندهم كما علمت ليست مما تغض من مقام الصون والعفاف في تلك البلاد او مما يُعاقب عليها في مثل هذا الهرج والازدحام فتأملت اذ ذاك في مدينة حوت ستة ملايين من السكان قد انطلق نصفهم على الاقل في تلك البلاد يغشون شوارعها وساحاتها ويضجون في ارجائها تهليلاً وغناء وضحكاً واضعين على رؤوسهم وصدورهم رجالاً ونساء وعلى مركباتهم وعلى رؤوس كلابهم البيارق الانكليزية وفي ايدي اكثر النساء منهم مناديل او منشات يلمسنَ بها ايّاً كان على غفلةٍ منهُ حتى اذا انتبه الملموس وادار وجههُ جهة اللامس ضحك الاثنان ومضيا بسلام وتعجبت اني لم اسمع سباباً ولم ارَ عراكاً ولطاماً في تلك الليلة الليلاء وعهدي لو اجتمع عشر معشار هذا الحشد في عرسٍ في ديارنا لامتلأت في صباحهِ الحبوس فاغبطتهم على التربية العامة المانعة من الاعتداء والكافلة المصافاة وانكرت عليهم التهجم على حرم العصمة

سفري الى ليفربول

وفي السادس من حزيران عزمت على الرحيل من لندن الى ليفربول على نية الرجعة اليها بعد المطاف في شمال الجزيرة فسرت الى محطة الشمال الغربي في شوارع لم اطرقها قبلاً فرأيت فيها من الدخان المخيم عليها مقداراً لم ارَ مثل كثافتهِ فيما مضى البسني بعشرة دقائق قميصاً فاحماً وطلاني معطساً

ومجرة بالنقيع الاسود ففكرت في العلم الذي سخّر الكهرباء لجر المركبات والاثقال ولحمل الرسائل بين اقصي الارض واقصاها بطرفة عين واستخدمها للاستصباح ولاشياء كثيرة كيف عجز لحد الآن عن تسخيرها لتكون وقيداً للمعامل والمطابخ الكائنة بين بيوت السكن عوضاً عن الفحم الخائفين عليهِ من النفاد وكيف قصرت انكلترا لغاية اليوم عن استخدام عنصر الماء الغزير فيها والميسور لديها في ادارة معاملها ثم تذكرت ان من شأن هذه الامة الاتباع والاقتداء ثم الاتقان لا السبق والاستنباط فعذرت ثم ركبت القطار المستعجل وكانت الشمس تطل من خلال غيم رقيق تمتص ما في الجو من بقايا رطوبة الليل فلذ لي السفر كما لذ خلو الحجرة التي حللتها من راكب غيري لاني كنت انتقل من كرسي الى آخر لحاقاً بخطوات ما كان يلوح لي من المناظر البديعة التي انشأتها ايدي القوم لا ايدي الطبيعة التي بخلت على هذا القطر كما علمتم منذ التكوين وجردتهُ عن كل شيءٍ حسن فكنت ارى على الجانبين سهولاً خضراء ومروجاً مدبجة بالزنبق والمنثور والاقحوان واشجاراً غضة تأزرت بمآزر بيضاء من ازهارها — مواهب شهر حزيران المحسوب عندهم اول فصل الربيع وكان القطار يدخل بنا تارةً الى بطن الارض كحية تنساب في احشائها حيث تنطبق علينا الظلمة المدلهمة وطوراً يخرج بنا الى ضوء النهار الى ان لاح لنا جبين لفربول بما انسدل عليهِ من غدائر الدخان وما طاف بهِ من قتامهِ الحالك

ليفربول

ولما وصلنا الى محطتها وجدت بانتظاري فيها الشهم الماجد الخواجه باسيل الخوري فسرت واياهُ تواً الى مكتبهِ التجاري ثم خرجت برفقتهِ نجول في شوارع المدينة فوجدت اسواقها اقل نظافة مما رأيت في مثلها من ضخام المدن الاوربية وعذرها في ذلك على ما تحققت كونها موطئ اكبر قدم في

تجارة الدنيا يبلغ عدد سكانها السبعماية وخمسين الفاً وهم على ازدياد متواصل لانها اكبر واهم اسكلة تجارية في بريطانيا العظمى ففيها وحدها سوق القطن وهو اهم صنف في المعمور وفيها الجانب الاهم من تجارة الغلال واليها يأتي معظم السفن من اقطار العالم . ثم انزلني في داره في محلة وترلو على بعد سبعة اميال من المدينة فوصلناها ركوباً في سكة الحديد فاستأنست بالدار لاني وجدتها وسط حديقة علت اشجارها واخضرت ارضها لكنها دون صدر مضيفي رحباً واتساعاً فرقدت هنيئاً واصبحت في السابع من حزيران اهمُّ بالعودة الى المدينة لارى ما فيها من الفرج المستحقة المشاهدة وكان اذ ذاك اديم السماء اقل كدراً مما كنت اراه في لندن فلا اعلم ان كان ريح البحر قشع غيومها او ان لها من جانب الاعتدال حظاً اوفر ونظرت في هذه الخطة ما نظرتهُ في سائر الجهات الاوربية من اشجار غضة ودوحات بواسق دون ان يكون لها ثمرٌ فقلت لو اقام السيد لهُ المجد في هذه البلاد او كان نزل فيها ورأى اشجارها الكبيرة الشاهقة العديمة الثمر لاصابها منهُ ما اصاب التينة وعلمت ان الاغراس المثمرة فيها هي ما كانت صغيرة الحجم ضئيلة الجذع والاغصان والسبب في ذلك برد الاقليم وصقيعهُ فلا ينمو فيها من الاغراس المثمرة الأَّ ما يطيق الثلج والزمهرير او ما يتربى على مهاد واسرَّة مدفأة بالنار فتنمو ولكن هزيلة قصيرة واما الاشجار العقيمة فتنمو عفواً دون كبير عناء كأَن عقمها وخلوَّها من الاثمار قوَّاها على احتمال هجمات الثلوج

سكة الحديد المعلقة

ثم جئت صحبة مضيفي الى محطة السكة الآخذة الى ليفربول فركبنا قطاراً غير مستعجل لمشاهدة المواقف العديدة الواقعة بين محلة وترلو النازل فيها وبين المدينة المذكورة فلما وصلت اليها لم ارد الاستراحة بل طلبت الذهاب لمشاهدة سكة الحديد المعلقة التي لم يُعمل مثلها لغاية اليوم الأَّ في

اميركا فوجدتها ممتدة على قناطر من الحديد تعلو اقواسها عن الارض نحواً من تسع اذرع على مسافة سبعة اميال ونصف وهو طول الخط المذكور فركبت قطارها مع رفيقي لي ذهاباً اياباً فوجدتها تسير بسرعة المركبات الكهربائية على خطٍ قويم يحاذي حواشي مستودعاتها العظيمة الواقعة على اطراف بحرها فالراكب فيها يختبر سيرها في العلى والناس والبيوت من تحته ويحيط نظراً بتلك المستودعات والمخازن الجسيمة الهائلة الباذخة كابراج حول السكة المذكورة فيرى ما لا يراهُ في اسكلة على وجه الارض ما عدا نيويورك كما قالوا من اهراء متسعة ومخازن ذات طبقات متعددة ايواء للبضائع المتنوعة وعرصات شاسعة مكشوفة لاستيداع المواد التي لا يضر بها الشمس والمطر يتخللها خلجان ملأت بماء البحر تستطرقها اكبر السفن حمولةً للشحن والتفريغ بواسطة آلات ترفع للطبقات العليا ما يكون التفريغ فيها وتنزل الى السفن ما يكون الوسق اليها دون مساعدة يد بشرية ورأيت في حالتي الوسق والتفريغ ادوات تتحرك من تلقاء نفسها تعدُّ وتزن دون احتياج لعادٍ او وازن — مناظر رحت منها مبهوتاً

رصائف ليفربول

ثم نزلت من السكة عند بلوغي منتهاها في الاياب ومشيت ورفيقي الى احد الرصائف اللاصقة باحد جوانب هذه المستودعات فوجدت رصيفاً جُعل مجالاً لسير العربات الكبيرة لا يقل طولهُ عن الف ومائة ذراع ولا عرضهُ عن مائة ذراع عائماً فوق البحر مما يلي الشاطيء وهاك سرهُ ان وقوع ليفربول على ساحل المحيط الاتلانتيكي وتسلط المد والجزر عليهِ مرةً في كل اربع وعشرين ساعة يرتفع عليهِ المد الى علو ثماني عشرة ذراعاً ثم ينجزر بمثلهِ قياساً مطرداً مما يوجب لو كان الرصيف راسخاً ثابتاً انغمارهُ بالمد وابتعاد اليم عنهُ بالجزر ويفضي الى ايقاف وتعطيل حركة الوسق والتفريغ على

الاستمرار فقضت عليهم الضرورة ان جعلوا الرصيف خشباً والقوه على ثمانية واربعين عوّامة من الحديد يسمونها بلغتهم بنطون شكلها كشكل صندوق كبير مكعب التربيع مفرغاً من الهواء فاذا جاء المدُّ ارتفع الرصيف كلهُ مع الطرقات المتشعبة منهُ الى شوارع المدينة على مساواة علو المد وبقي العمل والناس والبهائم والمركبات وجميع الاثقال الموجودة عليهِ في اشتغالها وحالاتها كأنهُ لم يقع ارتفاع وهكذا عند مجيء ميقات الجزر ينخفض الرصيف مع شعب الطرقات المتصلة بهِ بما عليهِ من الاثقال كأنهُ لم يكن انخفاض . ثم جعلوا مصارف مخصوصة لما يدخل تحت تلك الشعب من الماء ولئلا ينسد عليها الانصراف بهبوط جرم الرصيف وحيلولتهِ بينها وبين منصرفها الى البحر وتبقى الشعب الممتدة منهُ عالية عن الرصيف لبقاء الماء محبوساً تحتها حفروا سراديب مخصوصة توصل رأساً بين البحر وبين الفراغ الواقع تحت تلك الشعب بصورة تستوجب الاندهاش وتستدعي التمني لبلادي عمراناً مثلهُ على ان هذا الرصيف ليس بالوحيد بل يوجد كثير من امثالهِ حول شاطيء هذه المدينة التجارية فاكتفيتُ يومها بما رأيتُ وقلت لرفيقي خذ بي الى حيث اتيتُ كي اخلو للتأمل ولتدوين ما شاهدتُ في محفظتي ثم صرفت باقي النهار بين التردد الى بورصة الاقطان وبين الكتابة

بورصة ليفربول

في بورصة ليفربول كنتُ ارى القطن المصري خاصةً يتراوح في لحظات قلائل بين الصعود والهبوط في اثمان بيوعاتهِ بالسلم على وفاق ظهور بائعٍ او شارٍ لهُ خلافاً للقطن الامريكاني الثابتة اسعارهُ مهما ظهر فيهِ من بائع او شارٍ وذلك لجسامة مقدارهِ وكبر محصولهِ وان اتفق في النهار الواحد تغيرٌ في اثمانهِ فلا يتجاوز اعتيادياً نصف عشر الواحد صعوداً او نزولاً الاَّ اذا حدث داعٍ غير منتظر

وفي مساء ذلك النهار ركبت السكة برفق مضيفي الى ملعب اَمبيَر فلما وصلتهُ لم اطل المكث بهِ لاني لم اره بالشيء المذكور بعد ما رأيت من شاكلتهِ في لندن وباريس

شاطئ ليفربول

وفي الثامن من الشهر طفت راكباً حول شاطئ المدينة فوجدتها على امتداد استدارتها ممنطقة بالارصفة السابق الايماء اليها المرتفعة عند المد والهابطة عند الجزر يتخللها خلجان كثيرة تدخل اليها السفن حتى تراها بين البيوت والمعامل

سكة الحديد تحت الارض والبحر

وبعد ظهيرة ذلك النهار سرت مع صحب لي الى معمل الصابون المسمى صَن لَيت فكانت طريقنا اليهِ بسكة الحديد الممتد ثلثها تحت الارض والبيوت وثلثاها تحت البحر الخضم ولما جئنا الى محطتها في احد شوارع المدينة دخلنا بعد اداء الاجرة الى حجرة لا ينقص مربعها عن ستين ذراعاً لم نلبث حتى شعرنا انَّا نهبط الى جوف الارض مسافة لا تقل عن خمسين ذراعاً ثم وقفت وانفتح بابها فخرجنا منهُ الى رواق مظلم مستطيل يضاء بالكهربائية فوقفنا فيهِ على مساطب بينها طريق السكة فاذا بدوي مجيء القطار علينا حتى اذا وصل امام موقفنا دخلنا الى حجرةٍ فيهِ منارة بالكهربائية وسار بنا يطوي العمق وفوقنا ليفربول بما فيها وعليها من البيوت والقصور والشوارع والمركبات والحيوانات والمارَّة فلم يطل سيرنا اكثر من مسافة ميل على ما اظن حتى بدأ القطار يسير ذميلاً لوصولهِ الى ما تحت البحر العجاج فشعرت اذ ذاك بانقباض نشأ لا محالة عن العلم باني صرت في مضيقٍ تحت المحيط لم ينفرج عن صدري الأ عند ما قيل انَّا وصلنا الى اليابسة ولئن كنت ما برحت في ظلام دامس والارض والجبال فوقي والخطر من سقوطها علينا ليس باقل

من خطر الغرق انما النفس تأمن وترتاح غريزة الى موطنها وان حُفَّ بالمكاره والاخطار

معمل الصابون في صَنْ لَيْت

ثم اخذ القطار يسير بنا صعوداً حتى بدا لنا ضوء الشمس فوصلنا الى محطة صَنْ لَيْت بعد مضي نصف ساعة منذ ركوبنا في الحجرة الهابطة ثم ركبنا منها في طريق حُفَّت بالحدائق والدور المتناسق بناؤُها على شكل يدل ان بانيها وصاحبها واحد فرد لعظم مراعاة احكام الوضع والهندسة وذلك في توازي شوارعها واستقامتها وفي تساوي ارتفاع بيوتها وتناسب ابعاد الفواصل بينها وتوازي غرس اشجارها المظللة طرقاتها فسألتُ عن هذه البلدة البالغة حد الاتقان في النظام والتنسيق فقيل لي انها لصاحب معمل الصابون الذي انتم ذاهبون اليهِ فقلت وكيف ذلك قيل ان اهليها البالغين عشرة آلاف نفس يشتغل القادر منهم رجالاً ونساء في معملهِ ومهامهِ ولكي يكونوا ابداً بقرب المعمل بنى لهم هذه البيوت والمنتديات والكنائس والمدارس والحدائق ومراسح اللهو وبالجملة كلما تحتاج اليهِ مدينة مستقلة فمن سكانها العاملون في معمل الصابون والعصارون في المعصرة والبناؤُون والنجارون والمدهنون والموظفون والكتَّاب والمديرون والارض ارضهُ اباحهم اعتمارها والبناء فيها على شرائط معلومة فلما اشرفنا على المعمل رأينا ظاهرهُ بناء كبيراً عظيماً فوقفنا في عتبة بابهِ برهةً انتظرنا بها رخصة الدخول اليهِ ثم جيء بدفترٍ لنكتب فيهِ اسماءنا وكان يبلغ عددنا الاربعين شخصاً فكتب كلٌّ منا اسمهُ بيدهِ وبعد ذلك مشى امامنا دليل يرينا المعمل محلاً محلاً فادخلنا اولاً الى ايوانٍ متسع يحوي منصات اربعين كاتب يتفرع منهُ عدة حجر لرؤساء الاقلام ومنهُ دخلنا الى المطابع فوجدناها خمس عشرة مطبعة تدور بقوة الكهرباء تطبع في الدقيقة الواحدة الوفاً من الاوراق اللازمة للف الواح الصابون وصناديقهِ وعلبهِ وما

يلزم المعمل من الدفاتر واللوائح والنشرات فترى وراء المطابع لفات كبيرة من الورق تدور وتنتشر تحت شوابك الحبر المختلف الالوان فتخرج من الجهة المقابلة مطبوعة مهندمة متساوية الاطراف تتلقفها بحال خروجها آلات وتلقيها على مفارش تأتي عليها الصفحة فوق سابقتها بلا ادنى انحراف ومنها دخلنا الى محلات آلات التجليد فرأيت ادوات لا اعرف لها اسمًا ولا فعلاً غير اني رأيت من اعمالها ما يعجز عنهُ جمهور من الصناع فبينا ترى الورق اكداسًا تراهُ كتبًا مجلدة ومذهبة باقل من خمس دقائق ثم صعدنا الى اروقة عليا رأيت فيها عذارى ينيف على عددهن الالف يشتغلن وراء دواليب وآلات متنوعة الاشكال بعضهنَّ في حبك دروج مستطيلة من الاوراق المطبوعة والبعض في خياطة اكياس بشريط دقيق والبعض في الكتابة باقلام الآلات المستحدثة وكلهنَّ متأدبات ضاحكات باسمات في وجه الزائر المتفرج لا يبخلن عليهِ بالجواب اذا استفهم عن شيء اقتداء بلطف وانس رب المعمل ثم نزلنا منهُ الى محل النجارة فوجدناهُ ساحة متسعة في جانب منها الواح الخشب اكوامًا وفي جانب آخر كتل غليظة منهُ مكدسة اكداسًا ورأيت آلة تمدُّ انيابها من الجهة المقابلة تلك الاكداس فتتلقفها وتجرّها كتلة كتلة وتضعها على مقطع يقطعها قدورًا والواحًا وسهامًا بطرفة عين ثم تطرحها على آلات تمسحها وتفصلها صناديق وعلبًا وتقيدها بالمسامير وتوثقها بالعصائب وتلقي بها على بساط او سير مستطيل يسير بها من نفسهِ الى موقع حُفَّ جانباهُ بعذارى يملأنها بالصابون المغلف بالورق المطبوع والمفضض ثم دخلنا الى المصبنة فوجدتها ذات طابقين في كل منهما اثنا عشر خلقينًا يسع الواحد منها ستين طنًا عبارة عن ثمانية واربعين الف اقة من الزيت ولكن لا وقيد ولا نار تحتها بل تُطبخ بانابيب من البخار واصلة الى كل خلقين من مباخر شديدة الحرارة مخبوءة تحت الارض . ثم سألتُ لِما لم ارَ مباسط لتجفيف الصابون قيل ما من حاجة اليها لان في تركيب

الاجزاء الداخلة عليهِ في الخلقين ما يجعل الصابون عند تمام طبخهِ في حالة
من الجمود كافية لان يقطَّع الواحاً وان يكفَّن بالورق ويعبأ في الصناديق .
ثم خرجنا من المصبنة ومشينا الى معصرة زيت بزرة القطن على مقربةٍ منها
فوجدتها كبيرة شاهقة ذات طبقات كثيرة تستوعب وسق مراكب من
البزرة فيها من المعاصر والمكابس والآلات الرافعة والخافضة شيئاً كثيراً
ورأيت في قربها قوابل كبيرة للزيت تسع الواحدة منها اربعماية طن اي
ثلاثماية وعشرين الف اقة . ثم انعطفتُ الى ما وراء المعصرة فوجدت خليجاً
(دوك) مخصوصاً بالمصلحة متصلاً بالبحر تسير بهِ البواخر والسفن الحاملة
بزرة القطن وتجيء الى اصيق المعصرة حيث تفرغ مشحونها بساعاتٍ قلائل
بواسطة روافع الى مخازن الاروقة العليا وتوسق بدلهُ صابوناً الى الجهات

ما يعملهُ اغنياء اوربا

اني لالتمس عذراً لاسهابي فيما ذكرت عن هذا المعمل فانما قصدت
الاشارة الى ما وصلت اليهِ الصناعة في الغرب للمقابلة بين ما نحن باقون عليهِ
ميراثاً عن الاباء والاجداد وبين ما عليهِ ابناء اليوم في غرب البلاد كما
قصدت ايقاف قومي على ما يفعلهُ اغنياء اوربا من الاعمال العظيمة الآيلة
لخيرهم وخير الفقراء والصناع ففي هذا المعمل يشتغل الآن ثلاثة آلاف صانع
وصانعة غير من يعملون في اعمال المالك الاخرى من بناء وحرثٍ ونجارة
ودهان وتلبيس وباقي الحرف حتى يبلغوا زهاء السبعة آلاف نفس . هذا
والمالك لا يهمل امر تعليم وتهذيب اولادهم بما يناسب مقامهم في الحياة
الدنيا بل شيد لهم المدارس والمكاتب في نفس المحلة واوقف لها اوقافاً كافية
وحباهم بكل ما في وسع العمل بالمعروف من العيشة الراضية حالاً وفيما اذخرهُ
لهم في مستودع التوفير من دخلهم اليومي استقبالاً وقد عمل لمسرتهم وتطييب
خواطرهم شيئاً لم يسبقهُ اليهِ آخر وذلك انهُ ارسل على نفقتهِ الفي عامل منهم

الى معرض باريس وانفق عليهم ذهاباً واياباً آكلين شاربين ما اناف على اثني عشر الف ليرة سترلينية وقد نظرتهم اذ كنت في باريس يرحون في جنان بوادوبولون مشاة وركباناً حتى انهم نالوا الحظوة بمقابلة رئيس جمهورية فرنسا بجلسة مخصوصة تكريماً لمرسلهم وتعظيماً لهُ على هذا الاحسان والنكتة التاريخية . ولما انتهينا من التفرج جاءنا احد نظار المصلحة واهدى الى كلٍ منا للتذكار كراساً مطبوعاً يتضمن صورة المعمل وآلاتهِ وشرح اسرار المشاهد التي شاهدناها وبيان اعمالهِ وتاريخ انشائهِ ثم قفلنا راجعين الى المدينة على ظهر احدى البواخر الماخرة بين شاطيء صَنْ لَيت وساحل ليفربول اي فوق البحر الذي سرنا تحتهُ بالسكة النارية والقصد من ذلك ان اتذكر فيما بعد سفرةً سافرتها تحت البحر وفوقهُ وكان المد اذ ذاك في اعلاهُ فنزلنا على رصيفٍ من الارصفة التي مر بك ذكرها وذهبتُ تواً الى منزل المضيف

سفرتي الى منشستر

وفي السابع من حزيران ركبت من محطة وترلو المجاورة دار مضيفي قطاراً مستعجلاً يحملني الى محطة ليفربول المركزية فعند ما وصلتها انتقلت الى القطار المسافر الى مدينة منشستر فصادفت في الحجرة رجلاً انكليزياً عائداً الى وطنهِ من اميركا فآنست بهِ لاني وجدت منهُ وداعة لم اعهدها في قومهِ ولما لمحتُ لهُ عن اتيابي في اصلهِ وجنسهِ بالنظر الى ما رأيت من مؤانستهِ قال لي ولم يخجل انهُ تعلَّم الموادعة من اخلاق البلاد الآتي منها حتى اذا وصلنا الى محطة منشستر والبعد بينها وبين ليفربول ما يقارب الاربعين ميلاً دعاني الى النزول في دارهِ ولما ابيت واعتذرت اليهِ انصرف عن زوجتهِ واولادهِ الذين جاؤوا لملقاهُ واهتم باحضار مركبة لركوبي ونقل متاعي فشكرتهُ وسرت الى المدينة وكان المطر ما برح منذ سفري من ليفربول طلاً رذاذاً

والسماء غائمة والنهار داجناً مما ضيّق صدري فاشرت الى الحوزي ان يعرّج بي على بيت رجل احمل اليهِ كتاب توصية فذهب لكنهُ لم يهتدِ اليهِ الاَّ بعد ثالث جولة في شوارع المدينة فزاد انقباضي وعلى الخصوص لما وقفت في باب دار الرجل وقيل انهُ سافر منذ ثلاثة ايام الى لندن فسأَلت البواب او مَن هو واقف في الباب ان يهديني الى وكيلهِ او الى صاحب لهُ فاشار الى الحوذي عن المحلة التي يسكنها صاحبٌ لهُ وكانت تبعد ما يزيد عن الساعة ركوباً فاخترتُ الله وقلت للسائق دونكها لاني شعرتُ كأني في قفرٍ ولئن كنتُ في بلدة حافلةٍ بالسكان فسار يطوي الشوارع وانا احدّق فيها لاني عزمتُ ألاَّ يطول مقامي فوجدتها على الغالب اعرض واقوم وانظف شوارع من ليفربول الى ان وقفت المركبة امام حانوتٍ وقال لي الحوذي هات كتاب التوصية وبطاقة اسمك وابقَ في المركبة بينما اتيك بالجواب فاعطيتهُ ما طلب فمضى وجاءني برجلٍ مكشوف الراس وكان المطر اصبح اذ ذاك هتاناً فبادرني بالعربية الاعجمية بقولهِ ان مَن تطلب قد سافر منذ ايام الى لندن فقلت لهُ بالانكليزية قد علمتُ الآن ذلك وعلمت انك صاحبهُ فهل لي ان آمل منك المساعدة او اقلهُ الهداية الى ما يريني شيئاً من عظائم صناعة المدينة فقال حبًّا وكرامة لو لم يكن اليوم والغد عيدين وعطلة في المعامل فقلت وايّ الاعياد هما فقال اليوم هو العيد التابع العنصرة وغداً الاحد فقلتُ لقد كانت العنصرة في الاحد الماضي قال نعم وهذا اليوم لاحقٌ بها ولو بَعُدَ عنها لكن اذا شئتَ الاستراحة تفضل وتعال الى بيتي فنزلتُ من المركبة ودخلتُ معهُ الى الحانوت ومنهُ ولجنا الى دارهِ فاجلسني على مائدة ثم جاء باكبر بناتهِ وعرّفني بها ودعاني للطعام فاستعفيتُ قال لا بد من تناولك قدحاً من الشاي قلت لا بأس فجيءَ بهِ وباشكال من الحلوى ولما طارحني الحديث قلتُ لهُ ومن اين لك هذه العربية قال تعلمتها عند ما كنتُ في حلب ونسيت اكثرها لبعد العهد فسأَلتهُ وهل طال

مقامك فيها قال لقد طال حتى وُلدت لي الابنة التي رأيتها وثلاثة بنين غيرها وقد تعاطيتُ التجارة فيها ولم انزح منها الاّ بعد افتتاح خليج السويس وتحوّل تجارة حلب اليهِ فقلت وهل راق لك السكن فيها قال كيف لا وهي وسوريا باجمعها بلاد لم ارَ عمري مثلها في جودة التربة واعتدال الهواء وصفو السماء من الكدر وبهاء الشمس والقمر ولي اليها حنين ما برح مصاحبي غير اني أسفت وآسف كل ايامي من تخاذل اهليها لاختلافٍ في الدين والمذهب وكان حقهم لو فطنوا التضافر على عمارها بمحو سواد التعصب والتشيع الذي لا تقوم معهُ قائمة للعمران . فقلتُ ان ما عهدتهُ فيها قد كان قديمًا وقد زال الآن او كاد بنور المعارف وفضل العدل والتساوي المنشور باحسان مليكها الحالي الاعظم . فقال لو كان الامر على ما تقول لكانت بلادك الآن مهد الثروة والصناعة والزراعة ولكنتَ تُغنى عن تجشم المشاق والمجيء الى هنا تحت المطر الهتون لترى ما آثرنا وتتعرّف فيها فقلتُ وما ادراك اني جئت للاقتباس عسى ان يسعفني الدهر للنسج على منوال ما عندكم منها قال لن تستطيع ذلك ما دام المذهب يلقي بينكم بزور الضغائن والخلف ويفرّق بينكم ويمنع من الوحدة في قولكم ورأيكم واني الوم الفئة السائدة والاكثر عددا في بلادكم لاغفالها خصال الوئام والاتحاد المؤسس عليها وحدها لا على سواها النجح وعلو الشان وهي المسئولة لدى جميع العارفين بما عراكم و يعروكم من الحطة وقلة ما في اليد لانها وهي الفئة السائدة لو مدّت يدًا لمواطنيها وعملت بما في محكم كتابها من وجوب الاحسان والعمل بالمعروف لكانت امالت اليهـا قلوب الفئات الصغرى وجعلتهنّ اسرى احسانها يدفعن معها كل طارىء بالنفس والنفيس كما هو الحال في كل البلاد الاوربية . فقلتُ لهُ ان لنا في عناية وحكمة وليّ النعم الجالس سعيدًا على العرش العثماني الانور ما يؤمل الوصول الى ما اشرتَ اليهِ من الوئام والاتحاد لكن تدريجًا بحسب الاحوال والظروف لان الطفرة محال ولا تؤدي الى خير ثم سألتهُ

ان يوصي بي معملاً من المعامل ولئن كان في عطلة قال اليك ذلك ثم اخذ بيدي واصعدني الى الغرف العليا من داره واراني من آلات البيانو ثلاثًا احداها تتصل باتونٍ اشعلهُ امامي حتى اذا تم اشتعالهُ ضغط الهواء الذي في الانبوبة الواصلة بين الاتون وآلة البيانو ضغطًا حرّك دولابًا بدفع الهواء باسطوانات لاصقة بجانب البيانو ثم ضرب عليهِ بالاصابع فاسمعني نغمًا رخيمًا ثم ودعتهُ وخرجتُ شاكرًا ممتنًا وذهبتُ توًّا الى معمل كبير لنسيج الشيت فلما دخلتهُ وكان عاطلاً عن الشغل كما مر بك السبب رأيتُ من الآلات والدواليب والاسطوانات والانوال والانابيب والقماقم الحاوية الاصبغة الكيماوية وادوات كثيرة غيرها مما اعجبني وكان يدهشني لو تم لي رؤياها دائرة في شغلها لكني رأيتها جسمًا بلا حراك

اذا لم تستطع امرًا فدعهُ وجاوزهُ الى ما تستطيعُ

عودتي الى ليفربول

ثم خرجتُ من المعمل اطلب شيئًا آخر اتفرّج عليهِ ولما عزّ عليّ الطلب لانسداد جميع الابواب في وجهي بسبب العيد رجعت من حيث اتيت اشكو اعتراض ذيل العيد دون مرامي فوصلتُ محطة السكة وكان المطر لا زال طلاً فدخلتُ حجرةً من قطارها رأيت فيها امرأةً عليها حلة النعم وفي وجهها علامات الضعف الشديد يعلو صدرها ويهبط بخفقانٍ مستمر ورأيت امامها على المقعد رجلاً خلتهُ خادمًا لها او سميرًا يشغلها باحاديث متفرقة لا صلة بينها فانكرت في سري عليهِ الذوق في الكلام حتى اذا تبين لها من ازورار احداقي الملل التفتت اليّ وقالت لا تضجر من حديثٍ منقطع لا ائتلاف فيهِ فانهُ الدواء المسكن علتي لان دائي في اذني فلا يطيب لي غير سماع الكلام ولو كان لغطًا فسميري الجالس امامي قد افرغ ما عندهُ من السمر منذ ايام فتفضل وهات ما عندك لاكون لك من الشاكرين فقلتُ لها ان

داءك على ما ارى في قلبك او في صدرك لا في اذنك فقالت بلى قد أُصبت منذ خمسة اشهر بالسل الرئوي وبعد مضي شهرين من الاصابة صرت اسمع لملاك الموت عند الاصغاء صوتاً يناديني اليهِ هذا اذا لم يكن غيره متكلماً يشغل سمعي فلهذا اخترت هذا السمير وغيره لمرافقتي في اليقظة ومنادمتي بلا فتور فقلت لها ارى الوهم آخذاً منك مأخذه فلو كنتِ في بلادي لعرضوكِ على رجال يدعون مخاطبة الارواح لهم من الشعبذات ما يزيل عنكِ الوهم فقالت ومن اي البلاد انت فاخبرتها ثم قصصت عليها ملخص رحلتي وما لقيتهُ في اوربا فارتاحت الى حديثي وكان اذ ذاك القطار قد اعلن بصفيرهِ عن قربهِ من محطة ليفربول فسكتُ عن الكلام فاشارت الى سميرها باستلامهِ ومدت يدها النحيلة الى سبت تحت مقعدها وناولتني منهُ باقةً من الزهر تذكاراً لاجتماعنا فودعتها على غير املٍ من اللقاء وانتقلت من القطار الى قطارٍ آخر يوصلني الى بيت مضيفي في محلة وترلو

عودتي الى لندن

وفي الحادي عشر من حزيران تأهبت للرجعة الى لندن فركبت صحبة مضيفي الخواجا خوري من محطة وترلو الى محطة سكة الشمال حيث ودعتهُ شاكراً ضيافتهُ والطافهُ وركبت القطار الموصل الى لندن وكان الجو كدراً والشمس تبدو حيناً من وراء غلالةٍ من الغيم الرقيق وتحجب اخرى حتى اذا وصل القطار اليها نزلت منهُ وسرت الى سيسل اوتل نزلي السابق فرأيت على سحنة نزلائهِ الانكليز هيئة الترح فسألتُ عن السبب قيل جاءتهم امس الاخبار ان كتيبةً من جنودهم المحاربة في الترنسفال وعددها ستماية وخمسون نفساً غالها البوير واوقعوها في كمين واسروها عن آخرها ذلك بعد ما املوا من فتح بريتوريا عاصمة الجمهورية الافريقية تراخي عزائم اعدائهم وانتهاء المحاربة ووجدتهم يلومون قواد جيوشهم ويرمونهم بالطياشة والتهور على

اقتحام الاخطار دون تروٍ ودون انقيادٍ لتدبير قائدهم الاعلى فنمت تلك الليلة والحقيقة اني لم انم لشدة ما احتملت من الحر اذ بلغ فيها الدرجة الثامنة والثمانين فهرنهيت ففتحتُ النوافذ وابعدتُ الدثار وكنت قبل سفري منها اسدُّ من البرد مناسم النسمات

عودتي الى فرنسا

فترقبت طلوع الفجر والليل اذ ذاك في منتهى قصره باجفانٍ لم تذق طعم الكرى حتى اذا فتحت ابواب النزل سرت توًّا الى محطة سكة الجنوب واسلمتُ نفسي الى بساط الريح رجوعاً الى فرنسا فلم تمضِ ساعتان من الركوب حتى وصل القطار الى مدينة دوفر فنزلت منهُ الى باخرة فرنساوية تحملنا الى ثغر كالي لان الاتفاق واقع بين انكلترا وفرنسا على تناوب نقل الركاب بين كالي ودوفر على ان البواخر الانكليزية تحمل الركاب ذهاباً والفرنساوية تحملهم اياباً فوجدت الباخرة احسن فرشاً واسرع جرياً من تلك الانكليزية التي نقلتنا عند الذهاب الأ اني آخذت اللطف الفرنساوي في كشف حوائج الركاب في رتاج رسومات ثغر كالي بالنسبة لما يفعلهُ الانكليز من الاقتصار على سؤال الراكب قبل ان يطأ برَّهم بهذا السؤال لاغير "امعك تبغ" فان قال لا او معي منهُ كذا لفايف صدقهُ المأمور ومضى . ثم ركبت القطار من كالي الى باريس فوصلتها عصارى النهار وحال وصولي رحتُ افتش عن نزلٍ فلم اجد لتكاثر ازدحام الاغراب عما كان قبل سفري منها ولو لم يرفق بي صاحب النزل الذي آويتهُ قبلاً باخلائهِ لي حجرةً هو باشدّ الحاجة اليها لكنتُ لا اعلم ماذا اعمل وعند انفرادي فيها نزعتُ ثيابي المصبوغة مع وجهي ويدي بالصباغ القاتم وذهبت الى دار اصدقائي الخواجات بسترس فتناولتُ العشاء على مائدتهم التي لم يلذ لي سواها مدة اغترابي

ملاحظات

وفي الثالث عشر من حزيران جلست اقرّر خطةً لطوافي في اوربا دعاني اليها كتاب تناولتهُ امس من العائلة يستعجل اوبتي فعزمت ان اقصر سياحتي على غربيّ اوربا ودار السعادة واثينا وبعض الثغور الواقعة على طريقي الى سوريا ثم تذكرتُ امرًا جال بخاطري مرارًا خلال اقامتي في فرنسا وانكلترا مدة تكفي لان ابتّ حكمًا لا اخشى فيهِ اعتراض معترضٍ وهو لزوم تكذيب ما يُروى لمواطني احيانًا عن تهاون نساء هذه البلاد في ادارة بيوتهنّ وعن ملازمتهنّ غشيان مجالس القصف والخلاعة وغير ذلك من الافتراء المحط بقدرهنّ في مراتب الادب وفي عين الشرقي خاصةً ومما يصورهنّ لديهِ كبغايا يخفرن ذمة ازواجهنّ او كشارداتٍ يمرحن في مقاصف اللهو والخنا دون حياء او قيدٍ الى آخر ما روّجهُ الافك في سوق البهتان والحال اني رأيتهنّ دائبات في ترتيب بيوتهنّ وتربية وتهذيب اولادهنّ ومشاركة بعولهنّ في السرّاء والضرّاء لا يصرفهنّ عن هذه المهام شيءٌ من مدهشات المناظر والمشاهد ولا يحولهنّ عن هذه المناقب الحسان امر من الامور الجسام ولم اجد بينهنّ اثرًا للميسر كما لم اجدهُ بين الرجال الّا في المحلات المعدة لهُ وليس بين العيال وجلّ ما عندهن من الملاهي اذا كان لهن بسطة حالٍ او فراغ من الشاغل انما هو حضور مراسح الروايات والفُرَج السليمة من ادران العيوب وسماع الخطب في المنتديات والحضور في الاجتماعات العمومية المنتئمة لبواعث سياسية او خيرية والاجتماع في مجالس الطرب التي يعقدها ارباب الفن الموسيقي والمراقص العمومية التي يدعون اليها

مقام النساء في اوربا

ولا عبرة بالشاذ عن ذلك لان اشد البلاد قيدًا على النساء لم تخلُ من العواهر الفواجر فالشيء الوحيد الذي تُعاب بهِ هذه البلاد انما هو تغالي

اهلها في تسويد النساء على الرجال ليس من جهة وجوب احترامهنَّ وتقديم السجدة لهنَّ في البيوت والمحافل والشوارع والممرَّات وسكك الحديد والسفن والسلالم (كنت اكشف رأسي من اول السلم خيفة ان تفاجئني سيدة فيها واكون غافلاً عن كشفهِ لعدم اعتيادي كشف الرأس) وتقديمهنَّ على الرجال في كل محفل وطرد واهانة من يتجاسر على التدخين بحضرتهنَّ بل فيما أُعطينهُ من السيادة العلياء والسطوة الشماء على الحكام والحكومة وقد سمعت باذني من اولي الوقوف والادراك ان المرأة في باريس اذا وقفت او وقف ظلها في طريق حق ضاع ذلك الحق على صاحبهِ واذا لطمت رجلاً على قارعة الطريق او داست عنقهُ او رمتهُ بالرصاص وابدى ادنى شكوى او تأفف من فعلها رجمهُ القوم برجوم من السباب والتعيير كأن المرأة معبود لا يُسأل عما يفعل ولهذا تراهنَّ آمنات في عروشهنَّ حاميات ذمار بعولهنَّ واقاربهنَّ متكئات على وسائدهنَّ كانهنَّ عند انفاذ اغراضهنَّ لم يحركن خنصرًا او ماشيات في الشوارع مشية الطاووس بخترة وريشًا وبرقشةً فويل لمن لا يوسع لهنَّ طريقًا عند الاصطكاك او يدوس لاذيالهنَّ ذنبًا في الجامع المزدحمة والمراقص الحافلة هذا وهنَّ عزلٌ من سلاح حق اعطاء الرأي في الانتخابات العمومية فكيف بهنَّ اذا اعطينهُ ؟ هذا الحق لا بد من حصولهنَّ عليهِ في مستقبلات الايام بالنظر الى ما يُشاهد من عواطف التمدن الاوربي ومن الندم على اعطائهِ حيث لات مندم

ملك السويد في باريس

ثم خرجت من الحجرة وذهبت توًّا الى بنك كريدي ليونه لاتناول ما يجهزني للرحلة عن باريس فدخلتهُ بين جمهرة من الناس واقفين على بابهِ فسألت عن داعي هذا الازدحام فأُخبرت ان ملك السويد الموجود الآن في باريس سيجيء بعد قليل الى البنك فلم اصعد السلَّم المؤدية الى قلم

التحاويل الأوهتاف التحية ارتفع ترحيباً بهِ من جانب الجمهور الواقف بالباب فالتفت لارى هذا المتوّج المشهور بالفضل والسكينة فاذا بهِ كهلٌ طويل القامة لابسٌ حلةً سوداء وقبعة طويلة يصافح هذا ويكالم ذاك بوجهٍ وضاح وثغر باسم ثم صعد الى طابق علوي من البنك وغاب عن النظر

جنينة الاغراس في باريس

واصبحت في الرابع عشر من حزيران اتهيأُ للسفر الى سفيسرا في السكة الشرقية فمن بعد ما قطعت اوراق السفر صفقةً واحدة الى اهم امهات مدن سفيسرا وايطاليا رحت ومجي الى جردن دو بلنط (جنينة الاغراس) رأيت فيها كل ما دبَّ ودرج من انواع الضواري والدواجن والزحافات والحيات وانواعها والحشرات واشكالها ضمن تقاطيع من مشبكات الحديد والزجاج ورأيت في بعضها جميع اصناف الطيور والماشية وفي بعضها حمراً وحشية مخططة خطوطاً بيضاء مستطيلة ومستديرة وفي غيرها اسراباً من الايل المشجر القرون والابقار المعكوفتها وفيها للمهى والغزلان بطائح مخصوصة وللتمساح برك تحيط بها الاعشاب ورأيت حوضاً ينصب اليهِ الماء دون انقطاع يطفو عليهِ حصان البحر ذكراً وانثى وفلوهما وهما يصوتان صوتاً خافتاً لم اسمع مثلهُ من ضباع البر او من حيتان البحر

تأملات

ثم رجعت الى النزل فجمعت متاعي وسكنت انتظر ميقات السفر ولما لم يكن لي اذ ذاك من شاغل غير التفكر تراءت لي حالتا فرنسا وانكلترا بصورة تستدعي مزيد التأمل حتى خطر لي وانا على وشك مفارقة الاولى كما فارقت الثانية ان اضم على ما ذكرتهُ عنهما فيما مرَّ ذيلاً حريّاً بالاستبصار وذلك اني فكرت كيف ازدانتا كلتاهما بالعمران الاكمل والعلم الاوفر والثروة الطائلة والسؤدد الاسمى والقوة الهائلة وهما منذ اجيالٍ في لجاج

وخصام وحروب شعواء تندك لهولها رواسخ الجبال و يضيع بجرائها الحرث والنسل فأهدبت بالمامي القليل في تاريخ البلدتين ان تلك الحروب التي ثار ثائرها بينهما علمتهما عقباها اليقظة والنشاط والجرأة والاقدام وافادتهما امثولةً كبرى ألا وهي ان الامم لا يقوم قائمها بمجرد الصولة والبطشة بل بالجد في طلب الثروة بالعلم والعلم بالثروة وان فخر النصر ورونقهُ لأضرعلى الامة الغالبة من عار الانغلاب اذا اكتفت بمفاخر الغلبة عما يؤمنها على بقاء السؤدد وعلمتهما على السواء ان لا امن على بقاء الصولة وعلو الشان بغير تحكيم العدل بين افراد اهاليها واعلاء منار العلم بينهم والبحث عما يثريهم بالاختراعات الصناعية والمشروعات التجارية واعطاء الجوائز السنية والعطايا الكافية لمن يتفرغ للتنقيب عن اسرار الطبيعة وابراز عرائسها من اخدارها المحجبة وتعلمنا ايضاً ان الحكومات لهي المسأولة امام الله والانسانية بتسديد المنافع الى الرعية لا بالتشيع لفريق دون آخر وان من اقدس واجباتها ان تحسن الى من احسن وتعاقب مَن اساء وبان لا تغمض عيناً عن عيوب مأموريها وان تناقشهم الحساب في كل نازلةٍ رعاية لذمة الخير العام فمذ ذاك تسابقتا في غمار هذه المناقب السامية حتى صارتا الى ما هما عليهِ الآن من العمران والمقام العالي ولعل روح النشاط انبث منهما الى ما حولهما من الممالك الاوربية الراقية مثلها في معارج الفلاح حتى اصبحتا واصبحن يدرن الكرة الارضية باطراف الانامل

السفر الى سفيسرا

ولما قرب ميقات السفر وهممت بالخروج من النزل عارضني هطال من المطر وقفت لهُ حتى اذا صار طلاً ركبت الى محطة دوليست فلما بلغتها وكانت تبعد ساعةً عن النزل دخلت الى حجرة من قطارها وجدت فيها قسيساً كاثوليكياً ووالدهُ من سكان شمال انكلترا وكلاهما قاصدان الطواف في

ايطاليا والتيمن بطلعة الحبر الاقدس فآنست بهما لما هما عليهِ من الرقة والانس وبتُّ واياهما تلك الليلة في القطار على مضاجع متقاربة ولما اصبح الخامس عشر من حزيران وجدتُ اني على آخر حدود فرنسا ولما بلغنا تخم سفيسرا دُعينا للانتقال الى قطارها فوجدتهُ اكثر زخرفاً وحجرهُ اكثر اتساعاً فما سار يطوي البيد حتى شُغلت بما كان يبدو لناظري من مشهور جمال فلواتها فتارةً كنت ارى هضاباً لبست من حضيضها الى اعاليها اعشاباً واغراساً يانعة الاخضرار وطوراً سهولاً وانجاداً خلعت عليها ايدي الصناعة والطبيعة حللاً مطرّزة بعقيق وياقوت ومرجان ولؤلؤ الازهار الى ان بلغ بنا القطار مدينة بلطون فاقمت فيها نهاراً كاملاً

لوسرن

وفي ليلها ركبت السكة الى مدينة لوسرن عروس المتنزهات فلما وصلتها القيت فيها عصا الترحال وتمنيتُ لو صرفت اكثر ايامي في جنباتها فنزلت في اوتل مونوبل الحسن الموقع والاثاث والطعام ولقيت على المائدة عدداً غير قليل من السياح القادمين من شمال اوربا لصرف زمن الربيع في نعيم رباها وبعد الغداء سرتُ الى شاطىء بحيرتها وركبت احدى البواخر الجوّالة حولها بمواقيت معلومة فسارت تمخر اليمّ ونحن بين روابٍ اكتست الدوح لغاية سفوحها المساوية سطح الماء وبين جواري المتنزهين المزينة بمختلف اعلام الامم فنظرت ما لم انظرهُ من مناظر تناهت في الحسن حتى صرت التفتُ ذات اليمين وذات الشمال واحسب اني اضعتُ بين نظرةٍ واخرى موضعاً من مواضع الجمال لان البحيرة وما حولها جنة دانية القطوف تمنطقت على اتساعها بطريقٍ مستدير للمارة وفي جانبيها يميناً وشمالاً محطتان لسكتي حديد يُصعد فيهما الى قمتيّ الهضبتين المحيطتين بالبحيرة على مدرَّجٍ مسنن يبلغ ميلهُ في المائة سبعين علوّاً وهذا انصب طريق وصلت اليهِ سكك الحديد في الصعود

ورأيت اللوكوموتيف في حالة الصعود يدفع القطار من الخلف ويجره في حالة النزول من الامام لكن السير في الحالتين بطيء وعجلاتهُ تدور افقيًا وعموديًا معًا فامتنعتُ وحدي دون الصحب عن الركوب خيفة الدوار وبقيت على متن الباخرة انظر الى قطارات هاتيك السكك طالعة نازلة كحيوانات هائلة الجسم تدب على العقاب وانظر الى ما حول البحيرة من الصروح والخانات والمطاعم المتلاصقة البادية لعين الرائي عن بعدٍ كلآلٍ لامعة او كعقدٍ نضيد على جيد غادة الطبيعة المفترّ مبسمها عن ابهى ما تجود به الارض من هباتها وانظر الى ما في اواسط البحيرة من الجزيرات المكتظة بالاشجار العالية الخضراء كأنها حزمة اغراس نابتة من قرار الماء هناك يا سادتي وولاة بلادي ترون الطبيعة عانقت الصناعة عناقًا عبق عنهُ اريجٌ عطّر الارجاء وجعل البقعة وما حولها كقبة تحج اليها الزوار من كل فجٍ وصقع هناك المتنزهون يفرغون ما في جيوبهم طوعًا واختيارًا للتمتع في نعيمها هناك الفنادق المشابهة قصور الملوك في الزينة والمحتويات هناك لا في سواها يستغني الاهلون من السياح والمصطافين فيا لشقاء قوم سكنوا بلادًا حباها الخالق عز وجل بكل المحاسن وهم لم يحسنوا فيها عملاً ولم يجتنوا منها نفعًا فاضاعوا جمالها بالاهمال وشوهوا قراهم بالنجاسة والاوساخ واسكنوا بيوتهم طوائف الحشرات اللواذع

وبعد ان طافت بي الباخرة مدة ساعتين ونصف حول البحيرة عادت بي من حيث اتيت فجئتُ النزل واويت حجرتي لان التوعك الذي شعرتُ بهِ قبيل سفري من باريس كان ما برح ضيفي الثقيل فنمتُ تلك الليلة مستريحًا هنيئًا لا برغوث ولا بعوض ولا ذباب رغمًا عن غياض ورياض لوسرن ومائها الغزير لان اهليها شديدو الاعتناء بالنظافة

ولما دخلتُ حدود سفيسرا اعجبني من مأموري رسوماتها الرقة واللطف وذلك بسؤال الراكب بقولهم " اعندك غير هذه الحقيبة الموضوعة في

الحجرة" ثم يذهب قبل ان يسمع الجواب مما يدل على ان حكومتها لا تقابل ضيوف البلاد بالشدة والغلظة بل بالانس والرفق ترويجاً لكسب اهاليها من الضيوف النازلين فيها وترحيباً بهم وكذلك اعجبني الهدوء المستولي على المدينة لاني لم اسمع صوتاً فيها غير انغام الموسيقى ولا صخباً غير زمجرة البواخر عن بعدٍ وقد لاحظت انها تخططت على شكل هندسيٍ يمتنع معهُ تمام حيلولة البنايات بين بعضها فالدور الخلفية ترى الفضاء والماء كأنها على شاطيء البحيرة وترى الامامية الخلاء والروابي كأنها على سفوحها وهي فوق تربةٍ لينة هشة فقد رأيت عاموداً من الخشب يبلغ طولهُ ثمانية امتار أُنزل بفعل الضغط البسيط الى جوف الارض حتى لم يبقَ ظاهراً منهُ سوى اشبار قلائل كأن تربتها تكونت من طمي البحيرة ولو لم يكن عليَّ فرض الحجيج الى مدن ايطاليا المشهورة في التاريخ لاطلت المقام فيها ورأيت شوارع البلدة مستقيمة وعريضة وحدائقها كثيرة وانيقة وبناياتها متوسطة الارتفاع وكلها بالحجر الرمادي الاشهب واكثرها ممنطق بشرفات مذهبة اما فنادقها فغاية في الظرف تفضل امثالها في كل من فرنسا وانكلترا

زوريك

وفي السادس عشر من حزيران اصبحت انتظر وصول القطار الموصل الى مدينة زوريك فلم يطل بي الانتظار حتى جاء كأنهُ يخفق من تعبٍ فدخلتُ احدى حجرهِ فسار يطوي الفلاة والبحيرة تبدو لنا من اليمين تارةً ومن الشمال اخرى على مسافة ساعةٍ كاملةٍ من سير القطار باشد سرعة والجبال الخضراء والبيوت البيضاء بين الادغال والمروج تناوحنا على الجانبين حتى بلغنا الانفاق المحتفرة في باطن الارض وتحت الجبال فصار القطار ينساب في نفقٍ ويخرج الى آخر كأنا نخيط الارض بقطب مستطيلة وقصيرة بحسب طول النفق وقصرهِ فمنها ما لا يطول المرور فيهِ اكثر من دقيقة ومنها ما

يطول ثلاث دقائق على السير المعتدل حتى وصلنا بعد تعاريج وعطفاتٍ
الى محطة جيشر فنزلت فيها وسرت منها ولو شط بي المزار وكانت الدرب
دوني الى مدينة زوريك راكباً مركبة الخيل استنشاقاً لريّا الرياض فكان
مسيري في طريق تخجل منها طرقات شمالي لبنان المحفوفة بالمهاوي والعقاب
فلما اطلت عليَّ البحيرة عرفت دنوي منها فنزلتُ اليها وشاهدتُ محاسنها
وتذكرتُ عهدة الصلح التي تمت فيها سنة ١٨٥٩ بين فرنسا وايطاليا من جهةٍ
والنمسا من الجهة الاخرى عقيب تلك الحرب التي افضت الى اتحاد ايطاليا
ووحدتها تحت سيادة فيكتور امانوئل فاسترحت قليلاً ثم جلت فيها فرأيتها
تشابه لوسرن في كثيرٍ من الوجوه ثم قفلت راجعاً الى نفس محطة جيشر
كيما اركب منها السكة الى مدينة ميلان غير اني شعرت بالتعب لاجهادي
النفس بطوافٍ يشق على مثلي الاقدام عليهِ

سرداب سن كوتر

وفي الثامن عشر من حزيران ركبت القطار الى ميلان وبعد لحظةٍ
من سيرهِ وصلنا الى سرداب سن كوتر فولجنا فيهِ وصرفنا حتى خرجنا منهُ
ما ينيف على ربع ساعة والقطار في سرعتهِ المعتادة حتى خلنا انفسنا بعد
الخلاص منهُ ان الارض افلتتنا ولم تستطع هضمنا ثم ظللنا ندخل في نفق
ونخرج منهُ الى آخر والجداول المنحدرة من ذوب الثلج على اعالي الجبال
تحاذي طريقنا مرة يمنةً واخرى يسرةً الى ان وصلنا الى محطة لوكانو فهممت
بالنزول اليها والاستراحة فيها يوماً كاملاً لو لم يمنعني رفيق بقولهِ لي انها
اقل ملاحة من غيرها ثم سار القطار بعد ان وقف خمس دقائق فيها فلم
اشاهد في الطريق تغيراً من حيث الدخول في السراديب والخروج منها الى
غيرهِ حتى ظهرت على شمالنا بحيرة لوكانو فرأيتها اصغر من بحيرتي لوسرن
وزوريك تعرض في بعض جهاتها وتضيق في اخرى حتى تنتهي الى شكل

ترعة لكن لا يحيط بها ما احاط بتينك البحيرتين من النبات الاخضر والروض الازهر والمناظر البديعة المستوقفة النظر فشعرت هنا بطلائع الحر ورأيت اول مرة بعد مضي ثلاثة اشهر رقيعاً في السماء ازرق وغيوماً متقطعة ولما وصلنا الى كياسو (بلدة في اول حدود ايطاليا) جاءنا جلاوزة رسوماتها وارونا ما لم نره في مأموري سفيسرا بل فعلوا كما استطاعوا من الغلظة في كشف متاع الركاب كأن الجلافة خُصت بالامم القليلة الحظ من الثروة

مدينة ميلان

ثم سار القطار بنا من كياسو الى كومو فرأيت بقربها البحيرة المنسوبة اليها وكان من نيتي الاستراحة فيها لو لم يثنني امتعاضي من سماجة مأموري رسومات حدودها فبقيت في القطار حتى وصلت الى مدينة ميلان عاصمة لمبارديا التي لعبت دوراً مهماً في القرون الوسطى فنزلت بحسب توصية احد الرفاق في فندق بوبولا الذي لم يرق لي المقام فيه حتى كدت اخرج منه لولا الخجل من صاحبه الذي لقيني بالترحاب لكن عزمت فوراً الا اطيل حلولي في المدينة ساعة بعد وقوفي على اهم ما فيها من المتاحف والفرج

كنيسة الدومو

ثم غيرت قميصي واستلمت الشارع المؤدي الى كنيستها الشهيرة بالدومو وكانت قريبة من الفندق ولما دخلتها وجدتها جديرة بما اشتهر عنها من الفخامة والجمال ولدى التأمل والامعان حكمت بتفوقها وتفضيلها على جميع الكنائس التي زرتها في اوربا بما فيها كنيسة مار بولص في لندن ورأيت خارجها مزيناً بالفي تمثال من المرمر عدا تراءت لي على علو مكانها من الكنيسة زهوراً بيضاء بين قباب وقوامع تحسبها اكلة مصمتة على ديباجة شهباء يبلغ مربع صحنها الداخلي نحواً من سبعة عشر الف ذراع مربع فيها من تماثيل

الابرار والاولياء والشهداء ما لا يستطاع عدهُ من سائحٍ ملول مثلي وهي
تسع على تقدير المقدرين اربعين الف نفس فلما اكتفيتُ من رؤية خارجها
وداخلها طلبتُ من جانب السدانة ان يريني ان امكن خزانة امتعتها عسى
ارى بينها اثرًا قديمًا فأصحبت براهب كهل واتفق دخولي الى الخزانة مع
جماعة من سياح الانكليز فارانا الراهب في الدولاب الاول تماثيل من
المعدن تمثل اشهر قديسي القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ورؤساء
اساقفة ميلان وفي الدولاب الثاني امتعة كنائسية من الفضة المحلاة بالذهب
وفي الثالث صلبانًا وشمعدانات كبيرة من الفضة وفي الرابع قطعة من حلة
كهنوتية مطرّزة بالذهب وبطرشيلاً قال انها هدية الى الكنيسة من البابا
الحالي فلما لم ارَ ما املت وجودهُ من الآثار القديمة العهد وهممت بالخروج
من تلك الخزانة اسرَّ اليَّ الراهب بالايطاليانية بان اعطيهُ نصف فرنك
اكرامًا وان ابلغ الزائرين واكثرهم من الانكليز عن لزوم اداء القدر المذكور
عن كل واحدٍ منهم ففعلت ولما قبض ما طلب رفع يدهُ بالبركة فقلت اذ ذاك
في سرّي ما اعظم هذا البناء واصغر خَدَمتهُ . ثم رجعتُ الى الفندق مارًّا في
اسواق المدينة وشوارعها فوجدتها عريضةً نظيفة ورأيت بناياتها مليحة الزينة
والزخرف كاحسن بنايات العواصم الكبيرة لكن لم ارَ فيها ما فيهنَّ من الحركة
والزحام ولم اسمع في اسواقها وقع سنابك الخيل وقرقعة العجلات سوى صوت
ابواق المركبات الكهربائية ولما وصلت الى الفندق سألت صاحبهُ ان يسمي
لي ما في المدينة من المحلات المستحقة المشاهدة فكنت كأني سألتهُ عما في
نقطة القطب الشمالي من المجهولات اذ نفض طوقهُ وقال تلك لم اسأل عنها
عمري فخرجت من الفندق وجلستُ على كرسيٍّ في بابهِ وفيما انا افكر فيمن
اسألهُ مرَّ بي رجل عليهِ سيماء اللطف وهيئة صلاح الحال فنهضت وقلتُ
لهُ اتعرف اين مكتب كوك قال اليك ذلك فهو في المحل الفلاني وفي الجهة
الفلانية ثم لحظ بان هذه الاشارة لا تكفي قال تعال وانا اريكهُ فشكرتهُ

ومشيتُ معهُ فامتد ونحن سايران الحديث الى ان سألني عما اريد من كوك فقلت كي يدلّني على دليلٍ يريني متاحف هذه المدينة العظيمة لاني مسافر في ايطاليا على وصاية محلهِ فقال اذا كان الامر ما ذكرتَ فقد وقعتَ على خبيرٍ بها فخذ هذه الورقة واخرج من جيبهِ بطاقة اسمهِ وكتب عليها ونحن وقوفٌ متحف كالري بره را ومتحف المعرض الدائم وقال قل للحوذي ان يوصلك غداً من الساعة التاسعة قبل الظهر فصاعداً الى ايهما شئتَ واردف كلامهُ بدعوتي الى دارهِ وكتب رقمها على ذات البطاقة وقال اني سأجد في بيتهِ كثيراً من قطع التصاوير النفيسة التي ورثها عن ابيهِ واجدادهِ مع رواميز واحافير كثيرة من الآثار الانسانية لان حرفتهُ الطب فامتننت اليهِ ورجعت الى الفندق وكأنني رجعتُ الى غيرهِ لان النفس اذا امنتْ على مرادها استحسنت ما كانت رأتهُ قبيحاً واستأنست بالوحشة حتى اني رجعتُ عما كنتُ عزمت عليهِ من الاسراع في الرحلة عن هذه المدينة ورقدت تلك الليلة مستريحاً هنيئاً

ولما لاح فجر التاسع عشر من الشهر نهضت غلساً اتهيأ لزيارة المتحفين وجلست انتظر مجيء الوقت فاذا بالباب القسيس الانكليزي وابوهُ وهما اللذان رافقاني وكانا نازلين في نفس الفندق يقولان لي تهيأ اذا شئتَ للسفر معنا الآن الى رومه حيث ولا بد نستحصل لك الاذن بمقابلة الحضرة البابوية فاجبتهم ان سفري من المدينة لا يهون عليَّ قبل مشاهدة متاحفها وبعد ذلك ارى ان اعرّج على مدينة فيرنسة ومشاهدة ما فيها من العاديات والآثار المشهورة فقالا اذن نستودعك الله لاننا مسافرون الآن ثم ودعاني وانصرفا

متحف بره را

فبقيت في الحجرة الى ان ازف الوقت فخرجت منها الى المركبة وقلت لسائقها سر بي الى كاري بره را فلم يكن اكثر من ربع ساعة حتى وصلتُ

الى باب المتحف فولجت منهُ الى فسحةٍ سماوية يحيط بها اعمدة وبينها تماثيل من نَبَغَ من رجال ميلان بفنون الهندسة والنحت والتصوير وفي وسطها تمثال كبير لنابوليون الاول من معدن البرونز المخضرّ اقراراً بفضلهِ على ايطاليا ثم صعدتُ الى الطبقة العليا فوجدت ما وجدت في الفسحة السفلى من تماثيل لكنها نصفية تمثل كما مثلت تلك رجالاً نبغوا في الفنون المذكورة ثم طلبتُ الدخول الى اروقة التصاوير لاني رأيتها مغلقة الابواب فقيل انهُ يتأخر فتحها اليوم الى قبيل الظهر فبارحت القصر على نية الرجوع اليهِ بعد فتح الاروقة

المعرض الدائم

وذهبتُ الى المعرض الدائم فدخلتهُ بعد اداء الرسم فرأيت قاعاتهِ مزدانة بصور كثيرة من اقلام مصورين معاصرين تبلغ بحكم فهمي القاصر غايات الاتقان ومما رأيت فيها صورة الرجل الذي اضاع ما يملك في معالجتهِ اتقان دهان الخزف حتى انتهى لفقرهِ وعجزهِ عن شراء وقيدٍ لاتونهِ ان يكسر كما في بيتهِ من اثاثٍ خشبي و يدفعهُ الى الاتون وقيداً فرأيت الرجل في الصورة عرياناً الى نصف جسمهِ حافياً مكشوف الرأس وحولهُ على الارض كراسي وموائد ومقاعد مكسَّرة مبعثرة بينها فأس وقدوم ومنشار وفي يدهِ قطعة خشب مخلوعة عن سريرٍ يهمُّ بدفعها الى الاتون وامرأتهُ واولادهُ وقوف خلفهُ وامامهُ بوجوهٍ كاسفة واعين ينهل منها الدمع لضياع ما يملك ويملكون وفي الرواية ان الرجل توفق بعد اللتيا والتي الى اكتشاف الدهان واثرى بعد ما ابلاهُ معالجة استنباط الدهان بالفقر المدقع فاستأذنت اذ ذاك من المولّى على ذلك القسم من المتحف ان اكتب على ذيل الصورة البيت العربي المشهور فاذن لي لكن بعد ما ترجمتهُ واعجبهُ معناهُ والبيت هو

وقلَّ من جدَّ في امرٍ يحاولهُ واستخدم الصبر الاَّ فاز بالظفرِ

ثم رجعتُ الى الفندق ماراً بسوق الدومو حيث تباع في حوانيتهِ

الجواهر والحلى والاقمشة المزركشة من دمقس واستبرقٍ وحرير فادهشني زخرفةُ وفخامة بنائهِ لاني لم ارَ مثلهُ في كل العواصم وبعد تناولي الغداء اعدتُ الكرة على كاري بره را فوجدت اروقة التصاوير مفتوحة الابواب فدخلتُ وكان الداخلون كثيرين فرأيت من الصور القديمة والحديثة قدرًا يضاهي او يزيد عما رأيتهُ في متحفٍ من متاحف فرنسا وانكلترا وذلك من حيث التصاوير الاكثر شهرة وقدمية فرأيت صورة خطبة العذراء الى يوسف الخطيب بقلم الشهير رفائل وصورة اخرى بلغت منتهى البراعة في محاكاة الوضع الطبيعي بكل دقائقهِ قد اشتهرت باسم "المنقَّبة" لانها تمثل امرأةً في مطبخها اطلَّ عليها من بابهِ ولدها الصغير يلوّح لها بنقاب مسخرةٍ في يدهِ فالتفاتها لرؤياهُ وهيئة الولد وهيئة تطلّعها فيهِ لمن ادقّ ما جادت بهِ اقلام المصورين وادعى شيءٍ الى امعان النظر والضحك وقد رأيت المصورين حولها يستنسخونها ورأيت لها نسخًا كثيرة موضوعة تحت منصتها في نفس الرواق فاردتُ شراء واحدةٍ منها وحال دون مرادي غياب اصحابها على اني ما برحتُ الى اليوم آسفًا لعدم حصولي على نسخةٍ منها

الايقونات

ثم صرتُ انتقل من قاعةٍ الى اخرى ومن رواقٍ الى غيرهِ حتى انتهيتُ الى قاعةٍ حوت صنوفًا من الايقونات فوجدت اقدمها ما كان على النوع البزنطي واجدها ما كان بعد الجيل الخامس عشر على الشكل الروماني ثم خرجتُ من المتحف وقلت للحوذي رح بي الى بيت الحكيم الذي وعدتهُ بالزيارة وهو في الرقم الفلاني فلما وصلتُ اليهِ تلقاني هو وزوجتهُ وبناتهُ بالبشاشة والترحاب وصادفتُ عندهُ تاجرًا انكليزيًا مقيمًا في المدينة لهُ المام بالعاديات والصور فبعد ان جاد علينا بالمرطبات والحلويات اراني شيئًا كثيرًا من الصور النفيسة كان قد ورثها عن آبائهِ ثم اراني قطعًا كثيرة من الاحافير

الحيوانية التي وُجدت في اغوار ايطاليا وسيسيليا واشياء كثيرة من الآثار الانسانية التي اقلها ناله هبةً واكثرها حصل عليهِ بيدهِ من الاحشاء والبطون والكلي والكبد والمثانة ثم ودّعتهُ ورحتُ اجول راكبًا في شوارع المدينة الحاوية بحسب الاحصاء الاخير ما اناف على الخمسمائة الف نفس

العرج في اوربا

وقد شعرتُ بحرٍّ شديد بعد برد قارص اوجب عزمي على مبارحة ميلان غدًا الى مدينة فيرنسة فجلست عند رجوعي الى الفندق على كرسيٍ في بابهِ المواجه ساحة متسعة كيما اتلهى برؤية المارّة فساقني النظر للتذكر فيما كنتُ الاحظهُ في فرنسا وانكلترا من كثرة العرج فيها لاني نظرت اليوم بين المارّة عددًا من العرجان اكثرهم لا بل كلهم من النساء لم ارَ مثل كثرتهم في بلاد الشرق فطفقت اعدُّ المارة ولا شاغل لي فكان الحاصل الاول من التعداد ثلاثة عرج في كل مئة ثم اعدتهُ مرةً ثانية فكان الحاصل اكثر من ثلاثة في المئة ثم كررت تعداد المارّة في تلك الفسحة المطروقة كثيرًا على ما لاح لي بقصد التثبت فوجدتُ الحاصل طبق النسبة السابقة فقلت لعل هذه الساحة ممر العرجان فقمت عن مكاني وسرتُ عدوًا الى الشارع المؤدي الى كنيسة الدومو واخذتُ بالتعداد تكرارًا فاذا النتيجة واحدة فعجبت لعدم التحدث بهذه العلة على كثرتها وكتمان الشكوى منها ولعلها عن عيبٍ موروث في اجهزة الامهات سلمت منهُ اخواتهن في مصر وسوريا ثم صعدت الى حجرتي بعد العشاء ولبثت معظم ليلي ارقًا كعادتي المألوفة وعلى الخصوص ليلة الازماع على السفر انفخ على جمرة الفجر ان تسطع وعلى النهار ان يطلع حتى اذا لاحت تباشيرهُ نهضت الى جمع متاعي ورحتُ الى محطة السكة

سفري الى فيرنسه

فركبت القطار المستعجل الى مدينة فيرنسه فرأيتُ في الحجرة التي آويت اليها امير الاي في المدفعية وجدتُ بهِ بعد ان عرف اني سوري لطفاً لا مزيد عليهِ وكان من باكورة الطافهِ انهُ اهداني حزمةً من لفايف التبغ الجيد — كرماً لم ارَ شيئاً منهُ بين كبراء وصغراء اهالي انكلترا وفرنسا فلما سار القطار شعرنا بانتفاض الحجرة وباهتزازنا اهتزازاً اوهمنا ترقب خطرٍ يطرأُ ولو لم يكن في الركب رجل عرف ان الانتفاض نشأ عن عدم استواء الدواليب لكنا اوقفنا القطار بالضغط على الآلة الموقفة (التي اذا ضغط عليها الراكب ولم يكن عن باعث جلل غُرِّم بما قيمتهُ ستة آلاف غرش) فلبثنا في الحجرة حتى اذا بلغنا اول محطة تفرَّقنا وكان من نصيبي ان آوي حجرةً حلَّ فيها عريس وعروس تم عقد زواجهما المدني في صباح ذلك النهار وقصدا مدينة فيرنسه ليقضيا قمر العسل فآنست بهما لطفاً انساني ما كابدتُ من الهلع في الحجرة المهتزة وقد استغربت تفاؤلهما بالخير لمرافقتهما يوم العقد رجلاً مثلي وطنهُ يجاور اورشليم ففكرتُ كيف ما انفك الشعور الديني راسخاً في الاذهان رغماً عن نبذهم المألوف من احكامهِ في عقود الزيجة فتطارحنا الحديث وكانت العروس اطلق لساناً واكرم كما لاح لي من العريس محتداً

المدن الواقعة في الطريق

حتى اشرفنا على مدينة لودي المشهورة بما نالهُ فيها نابوليون الاول من الانتصار الرائع ومنها جئنا الى نهر البو اكبر انهار ايطاليا ثم الى مدينة بالرمو ومنها الى مدينة بولونيا التي تعاظمت مؤخراً حتى زاحمت اهم مدن المرتبة الثانية في مملكة ايطاليا ومنها الى بلدة مورنو المعروفة قديماً بالسطوة

وفي كونها من مهاد العلم فرأيت جانباً من سورها القديم المبني بالقرميد والاجر وقد اعترض دون وصولنا بالقطار الى فيرنسه انفاق وسرادب كثيرة دلت على ما انفقت ايطاليا من الاموال الطائلة في سبيل اتمام هذا الخط

لطف الايطاليان

اني رأيت بهذه السفرة من انس ولطف الايطاليان ما ادّى بي للحكم بانهم اقرب شعوب اوربا للعوائد والمشارب الشرقية فقد تعرّفت باكثر مراتبهم وطبقاتهم من حمّاليهم وخفيرهم الى تاجرهم واميرهم فوجدتُ اهل المراتب الدنيا اقل احتلاباً لجيوب الاغراب واكثر حياء في استدرار الايدي من جيرانهم الفرنساويين ووجدت اصحاب الطبقات العليا اظهر مودة للغريب من السادة الانكليز الآ ان باعتهم اكثر سوماً وغشاً لمن يريد الشراء

فيرنسه

ولما وصلنا الى فيرنسه والانكليز والفرنساويون يسمونها فلورنس رأيت بيوتها الواقعة على الاطراف ليست بذات طبقات كثيرة كما هو الحال في مدن اوربا الغربية بل رأيت اكثرها ذات طبقة واحدة او طبقتين والقليل منها ذات ثلاث طبقات كأنها منسوجةٌ على منوال مدن الشرق حيث يسطع النور في اسواقها ولا ينسد الهواء لانهُ ايّ نفع لعرض الشوارع مهما كانت عريضة اذا كانت البنايات على جانبيها تحلق الجو علوًّا بتراكم الطبقات في اعرض شوارع لندن لم احسب نفسي وانا مارٌّ فيها الّا كأني في اضيق الازقة واظلمها بسبب الجبال الراسخة على جانبيها لانهُ كثيرًا ما تتراكم فيها الطبقات بعضها فوق بعض حتى تتجاوز الاثنتي عشرة طبقة وهذا كثير على قوم يسهرون على الصحة العمومية ويحرصون على رفاه الرعية ولما دخلتُ المدينة رأيتها نظيفةً كنظافة ميلان ولقد شاهدتُ في صباح كل يوم زمرًا تتلو

بعضها وفي ايديهم آلات الكناسة وحلمات المضخات الكبيرة يكنسون حتى لا يبقى على الارض ذرَّة و يرشُّون الطرقات بالماء حتى كأنهم يغسلون بلاط القصر فلم امكث في النزل حتى اصطحبتُ دليلاً يريني عروس مدن قرون الانوار (الاسم الذي تسمَّت بهِ فيرنسه قديمًا) فكان تمثال دنته الشاعر المشهور المعدود في اول طبقات الشعراء اول اثرٍ اثرتُ المطاف بهِ فوجدتهُ قائمًا في الساحة المقابلة كنيسة الصليب المقدس المغشاة واجهتها الكبرى بالمرمر والحاوي داخلها اجداث مشاهير شعراء الايطاليان ومصوريها فرأيت تمثالهُ واقفًا على دكة عالية وعلى رأسهِ اكليلٌ يُضفر عادةً على هامات اهل البراعة والفضل ومن هناك سرتُ على جسر النهر الفاصل هذه المدينة الى شطرين غير متساويين ويصب على كثبٍ من مدينة ليفرنو فنظرتُ على طول الشارع حوانيت متلاصقةً كأنها مستودعات للصور والايقونات المصنوعة حديثًا من المصورين الايطاليان دون سواهم نخلتُ كأنهم أُعطوا ميراثًا عن اجدادهم المصورين العظام سجايا الرسم والتصوير لاني كدت لا ارى مشروعًا من مشروعات ايطاليا سواء كان تجاريًا او صناعيًا او سياسيًا او علميًا الاَّ ورأيت في مركز او مكتب ادارة ذلك المشروع صورةً متقنةً الصنع ترمز عن كنه المشروع ومقصدهِ بتمثيلٍ وتشبيه غاية في الذوق والتفنن ثم زرت تمثال غاريبلدي على رأس هضبةٍ مشرفةٍ وكان معشوق الامة لتهالكهِ في الجهاد الذي آل الى وحدة شعوب ايطاليا ثم زرت تمثال الملك فيكتور عمانوئل المركوز امام كنيسة مريم الملبس خارجها من الجهات الاربع بالمرمر المشغول شغلاً بديعًا ودقيقًا لكن دون ان يكون لداخلها حظٌّ من جمال خارجها لاني لما دخلتها لم اجدها بالشيء المستحق الذكر

مدرسة الطب العسكرية

ثم زرتُ مدرسة الطب العسكري فصادفتُ على بابها مديرها الاول برتبة ميرالاي ولما علم اني رحالة متفرج اخبرني ان التلامذة وعددهم مئتان

وخمسة ليسوا الآن فيها لحلول وقت العطلة المدرسية فقلت لهُ ما معناهُ ان فاتني الدر فاقنع بالصدف قال احسنت واشار الى معاون لهُ ان يرينيها فارانيها واراني مكتبتها ومجموعاتها التشريحية وغير ذلك مما يطول شرحهُ فشكرتهُ

متحف التصاوير

ورحتُ منها الى متحف الصنائع النفيسة الخاص بمدينة فيرنسة فرأيت في الطابق السفلي تماثيل كاملة ونصفية بينها تمثال من المرمر تناهى في الاتقان قيل انهُ من رسم انجلو المشهور ولما صعدت الى الطبقة العليا وجدتُ التصاوير فيها اقل عدداً مما في غيرها من العواصم لكني رأيت الموجود يفوق امثالهُ فيهن تفوقاً كبيراً اذ لم اقف وحقك امام صورةٍ من صورها الاَّ تمنيتُ لاعجابي بها الوقوف لو استطعتُ النهار بطولهِ فما نظرتُ الى صورة انسانٍ الاَّ وحسبتهُ حيًّا او الى صورة حيوان او طائر على غصن الاَّ ورحت انتظر من الحيوان الحركة ومن الطائر الطيران لعظم المشابهة واحكام المحاكاة ولقد ادهشتني ثلاثة قطع من الصور الواحدة صورة يوحنا المعمدان يؤنب هيرودس على زواجهِ بزوجة اخيهِ على مسمع منها ومرأى وحضور قينة جالسة بقربها تضرب على القيثار بقلم المصور لوريني والثانية صورة عفة يوسف بقلم المصور نيلافريني والثالثة صورة ثلاث غادات متهتكاتٍ يقدمن اكليلاً من الزهر لالهة الجمال ثم نزلت من هناك الى ساحة السيدة المصفوف على دائرها وعلى مصطبة واسعة في صدرها تماثيل ميثولوجية من نحت اشهر النحاتين يقصدها السياح للتفرج على بارع حسنها وبديع اتقانها

ولا بأس الآن من الالمام ولو مختصراً بتاريخ هذه المدينة التي آنست بها وشممتُ فيها رائحة الشرق بكل عرفهِ وطيوبهِ

ان فيرنسة وملحقاتها كانت تحت سيادة عائلة مديسي لغاية سنة ١٧٣٧

ميلادية وعند انقراض العائلة المذكورة تولتها الدولة النمساوية حتى سنة ١٨٠٧ لما جاءها نابوليون الاول وانتزعها من يدها فلم تلبث بعد سقوطهِ ونكبتهِ حتى أُعيدت الى ما كانت عليهِ قبل استخلاصها فظلّت تحت حكم الدولة النمساوية الى سنة ١٨٥٩ حين ضُمَّت الى الوحدة الايطاليانية تحت سيادة عائلة صفوى الحالية و يبلغ الآن عدد سكانها مئة واثنين وتسعين الف نفس

حديث مع عالم ايطالياني

ولما رجعت الى الفندق نظرتُ في ايوانهِ العمومي كاهناً شيخاً عليهِ هيئة الوقار وهيبة العلم تحفهُ الخدمة و يرعاهُ رب الفندق بعين الاعتبار فسألت عنهُ قيل انهُ اكبر نظار المدارس الاكليريكية فعزمت اذ ذاك ان اتناول العشاء على المائدة العمومية علّي احظى بالتعارف اليهِ والتكلم معهُ لاني آنست بهِ محيّاً طلقاً ووجهاً وضاحاً فتم لي ما حسبت وتصادف ان يكون كرسيهُ بجانب كرسي فدار الحديث بينهُ وبين احد الجلوس على رجال القرن التاسع عشر فسمعتهُ يشرح باللغة الايطاليانية عن كل من رجالهِ المشهورين بعبارة تناهت بالبلاغة مع البساطة والفصاحة والايجاز ثم انتقل الحديث الى ذكر الممالك الراقية معارج التقدم والامم الهابطة في دركات الانحطاط فحشرت نفسي والقيت دلوي في الدلاء واخرجتُ ما في جرابي من سقط المتاع فلم يكن حتى التفت اليَّ وقال بلطفٍ وابتسام ومن اي البلاد انتم فلما اعلمتهُ ابرقت اسرتهُ وقال لي بالعربية الفصحى اهلاً وسهلاً بك من نزيل احنُّ الى بلادهِ فقلت لهُ ومن اين لك هذه العربية وهذا الحب لبلادي قال كنت في الهند فتى يافعاً ثم أُمرت ان اجيء الى بلاد الشام فسكنت لبنان ودرست العربية على الخوري الرزي فهّامة عصرهِ ومن لبنان جئت بامر القصادة الى ايطاليا فمنذئذٍ حتى اليوم ما برحت اشتاق الى

تلك الربوع الغناء واتنسم الاخبار عنها واقرأ جرائدها العربية التي ظهرت وتكاثرت بعد بعادي عنها حتى كدتُ ارى تكاثرها من قبيل الطفرة ولهذا لم اعجب من شططها عن سواء السبيل القمين بها واللائق بامثالها في بلاد تهمُّ بالخروج من لجة القلق فسألتهُ باي قصورٍ يرميها فقال وتأفف انها سوّت بين الفضيلة والرذيلة وجعلت جزاءها واحداً فقلتُ وكيف ذلك قال انها الأ ما ندر والنادر لا حكم لهُ جعلت استرضاء المشتركين وهو بالحقيقة استجداهم معوّلها ونصب اعينها فأجزلت بالثناء على الرذيل بنفس عبارة الثناء التي تكرمت بها على الفضيل حتى عدتُ لا اميز بين الواحد والآخر وبلغ منها ان تؤبن الخامل الذكر الذي لم يظهر لهُ في حياتهِ منقبة يُشكر عليها كما تؤبن الشيخ الرئيس او ارسطاطاليس لو ماتا عندها في هذه الايام فالبست بذلك النقيصة ثوب الفضل واضاعت فائدة التنافس والتسابق على المآثر الحسان لان المرء مجبول كما لا يخفى على استمناح المدحة مكافأةً على الفضل وعمل الخير فان رآها تنهال على من لا فضل لهُ ولا خير فيهِ تراخت عزائمهُ وانكمش عن تجشم مشاق الاحسان اذ يرى المتحلي بهِ والعاطل منهُ سواء في نظر الصحافة واني لاخاف على تلك الديار التي احببتها ان يقل الخير والفضل بين اهليها من جراء هذه العلة الوبيلة ويتضاءل فيهم حب الخير ويسؤني ظهور الصحافة بينهم مظهر الحرفة الساسانية وعهد العالم المتمدن ان الاشتراك في الجرائد يُلتمس لا يُعرض او يُطرح ضريبةً على الاهالي. فقلتُ لهُ اظنك مبالغاً بالشكوى قال لا بل اراني غير وافٍ حقها فان كنتَ تنوي المجيء الى مدينة تورينو اريك في مكتب لي هنالك صحفاً كثيرة مختلفة الاسماء والمذاهب تجد فيهنَّ ما يقوم واسفي برهاناً على سقوط الصحافة في بلادٍ حباها الله بهباتهِ السماوية واعلم اني لا انفك عن مراقبة احوالها وعن تمني الخير لها ما دام لي رمق من الحياة ثم نهض عن كرسيهِ وهزَّ بيدي وقال لي لا انسى اجتماعنا على هذه المائدة فاستمحتُ الاذن بذكر حديثهِ قال

لا بأس عسي تنفع الذكرى لكن اياك وذكر اسمي فتفارقنا على نية العروج
على تورينو ولو شط بي المزار وكانت الدرب دوني

السفر الى رومه

وفي غد النهار التالي جمعت حوائجي وجئت الى محطة السكة اقصد
مدينة رومه العظمى فصادفت فيها القطار غير المستعجل فشكرت الصدفة
لاني املت بوقوفهِ في المحطات الكثيرة التمكن من رؤية ما يستحق الرؤية
في القصبات والمدن الواقعة على امتداد الخط فلما وصلنا الى موقف قصبة
انشيزا الواقعة على نهر ارنو وجدت النهر هناك مستعرضاً وكان قبل الوصول
اليها يجري في مضيقٍ ولهُ سد بعرضهِ ورأيت لزراعة الكرمة في ارباضها
امتداداً عظيماً ولاهليها اعتناء في تقليمها وتعريش اغصانها على اشجارٍ قصيرة
او على اوتادٍ كي لا يبقى غصن ملقى على الارض كما هو الحال في كثير من
كروم سوريا ولدى الاستفهام علمتُ ان هذه الغراس اصبحت على ازدياد
في تلك المواطن لانها جاءتها بالخمر الجيدة التي انجحت التجارة بها اغزر موارد
الكسب لهاتيك الديار . ومنها سار القطار على ضفاف بحيرة ترنسيماتو حيث
وقف القطار على كثبٍ منها وهاجمتنا بهِ طلائع الذباب وكانت غائبة عني
كل مدة اسفاري فشممت فيها رائحة الدمن المعهودة الا اني شاهدتُ
الاراضي التي حولي سهلاً وغوراً ونجداً محشوكة بالزرع والغرس بينها احراش
من السنديان والاطلب ونوع من فصيلة الدلب الصلب يحتطبونها للتفحيم وقد
رأيت كميات كبيرة من هذا الفحم في المواقف التي مررنا عليها وهو غاية في
الجودة وبينها ايضاً مراعي وسيعة للسائمة ممنعة على المعتدي لانهم يعتبرون
وجود المراعي فرضاً لازماً على الامة ويحسبون عدم وجودها مدعاة لنغص
عيش الفقير خاصةً والناس عموماً وغنماً لباعة اللحوم وتجار الاغنام ووجدت
في هذه المواقف كل شيء من مأكولٍ ومشروبٍ رخيصاً في الثمن وجيداً في

الجنس وعلى الخصوص الفاكهة والخضروات فقد اشتريتُ وانا في حجرة القطار ما يقارب اقة من الكرز الناضج اللذيذ بما تساوي قيمتهُ نصف غرش ولعلي لا اكون مخطئاً اذا قلتُ ان الرخص عامٌ في كل ايطاليا حتى في فنادقها المليحة فان ما كنت اعطيهِ في فرنسا وانكلترا اجرةً على مبيت ليلة واحدة في فنادقها يكفيني في فنادق ايطاليا لمبيت ستة ليالٍ او اكثر على ان الرخص عام فيها الاَّ في اجرة المركبات ومواد التدخين

منع ادخال التبغ

ولقد يعجب الانسان مما يراهُ في ممالك اوربا من شدة التضييق على مَن يدخل حدودها ملوَّثاً بمواد التبغ فلو تخلى الله عن مسافرٍ وادخل شيئاً منها في جيبهِ او في ردن قميصهِ او في جعبتهِ الى حدود مملكة من ممالكهم لاحاطت بهِ الخفراء والجلاوزة وغرَّموهُ اضعاف ثمن ما حمل منهُ بعد ان يوقفوهُ ساعات في البحث والاستنطاق كأَنهُ ادخل الى البلاد داهية دهماء او جراثيم الادواء والطاعون الجارف اليس من الغريب كل هذا السهر على منع بضع لفافات من تبغ لا يميت نفساً ولا يهلك حرثاً واجازة دخولنا الى مرسيليا يوم جئنا من قطر موبوء يوم رحب بنا مأمورو الصحة وادخلونا بلا ادنى تفتيش او تطهير كأَن المحاذرة على الدرهم والفلس اوجب من المحافظة على النفس تلكم مغمز على تمدنهم يستحيل على المؤرخ اغفالهُ

كلام مع مفتش السكك

ولقد لقيت اليوم في المواقف الكثيرة من لطف الايطاليان ومجاملتهم ما يشكرون عليهِ ويدنيهم عندي من قطبة التمدن والانس دون غيرهم من امم الشمال ولقيت رجلاً منهم دخل من احدى المحطات الى الحجرة التي كنت فيها ومعهُ رجال يشيعونهُ فلما انصرفوا عنهُ وتحرك القطار ولم يبقَ

سوانا في الحجرة اعرض عليَّ لفافة تبغ فقبلتها شاكرًا ثم دار الكلام على تاريخ انشاء السكك الحديدية في ايطاليا فوجدت بهِ رجلاً خبيرًا عارفًا كأنهُ مهندسها او صاحبها فقلت لهُ اني لاعجب من وفور علمك فيها قال ليس لي من فضل لاني مفتشها العام ولما لاح لي في محياهُ ملامح الاصل السامي سألتهُ عن حالة الثروة العمومية في ايطاليا واستطرقتُ الى السؤال منهُ عن حالة الطوائف فيها وعن ثروة الطائفة الاسرائيلية فاجاب ان ثروتها ليست بالشيء المهم فاثنيت على مهارتهم في معرفة ابواب الكسب وعلى ذكائهم الخلقي الموروث عن سيدنا ابرهيم فحسبني على ما اظن متهورًا فصدَّق على ما قلت وقال ان الاسرائيليين لم يكونوا قبل اتحاد ايطاليا متساوين مع مواطنيهم بالحقوق المدنية وباحكام الحرية ولهذا لم يدركوا ما ادركهُ ابناء جنسهم في الممالك التي سبقت وانالتهم مزية المساواة مع باقي الاهالي فالآن لقرب عهدهم من الحصول على هذه المزية فثروتهم ونفوذهم في ايطاليا ما برحا الى اليوم وفي سن الطفولية اما انا فمولود من والدين يهوديين وتنصرت فتى وتزوجت بمسيحية وعمدت اولادي ولم اتشبه بمن يهملون العماد حتى لا ارمى بالارتداد غير اني لن ابرح مفاخرًا باروميتي السامية . فنظرت بهِ رجلاً يحفل بالاحتفاظ على اصلهِ كسائر كبراء اليهود ولا يعبأُ بدين آبائهِ وقومهِ

الوصول الى رومه

وكان القطار اشرف اذ ذاك على ضواحي رومه فخلوت بنفسي وطفقت استنطق جمادها الثابت لا نباتها الزائل عما ولا بد شاهدهُ من ابهة سيادة الرومان وعزَّة ملكهم واسأَل ترابها عما اذا كان باقيًا عليهِ اثر من اقدام قياصرتها ورجالها اولئك الذين دوخوا المعمور بالفتوحات واسأَل نهرها الجاري أهل هو عين ما كان يوم مشت مواكب النصر على ضفافهِ واسأَل اطلالها الدارسة في اي ناد منهنَّ كان يؤتمر على ممالك الارض ولو لم يعاجلني

القطار ويقطع عني سلسلة هذه الخواطر بوصوله الى محطتها لكنت توصلت الى السؤال من الغيب والاقدار ان تنبئ عما هو مخبوء ومكتوب لباريس ولندن في مستقبلات الايام فدخلتها في عصارى النهار

كلام في رومه

ونزلت في نزل يجاور محطتها يُقال لهُ لاكو ماجيوره (البحيرة الكبرى) واراني معذوراً اذا اسهبت قليلاً في الكلام عن هذه المدينة المنعوتة تاريخياً بالمدينة الابدية لان تاريخها انما هو تاريخ المعمور من الارض وقد ذهب عبثاً اجتهاد المؤرخين واهل القيافة لمعرفة بدء تأسيسها بالاستدلال الاثري فلم يحصلوا الأعلى معرفة كونها ولدت في غيهب اعصر الكهانة لتعيش مدينة ابدية ذات حظ ابدي فقد رمتها حادثات الليالي بثلاث نكبات اوهت منها القوى وكادت تلاشيها ثم حبتها بثلاث نهضات ارجعتها الى مصاف العواصم العظيمة فهي مهد الحضارة على اختلاف انواعها ومعلمة الدول كيف تساس الممالك وهي التي اندثرت فيها المعالم القيصرية اولاً ومؤسسات القرون الوسطى الخيرية ثانياً وتداعت فيها الأماقل مشيدات الكنيسة ثالثاً لكن لم يكن حتى نفخ فيها صور النشور مؤخراً فانتشرت وعلى رأسها تاج السيادة على مملكة كبيرة تُعدُّ بين اعاظم الممالك تحت حكم ملك من احسن واعدل الملوك يشقها نهر التيبر القديم الصالح وحدهُ دون انهر اواسط ايطاليا للملاحة ويؤمها الناس من كل فج للاطلاع على آثارها وعلى ما ابقى الدهر من عادياتها وهي ما برحت تزداد سنة فسنة عماراً وسكاناً ولا زالت رابضة في سهل يكاد يكون محفوفاً بكثبان خصبة بعضها كان جبال نار اطفأتها الايام ومنها الهضاب السبع الآتي بيان اسمائها

اقسام رومه

ان رومه تقسم الى ثلاثة احياء مختلفة الاوضاع الاولى رومه القيصرية وهي ما كان مبنياً اكثره على الهضاب السبع المسماة بالبلاتين والكابيتول

والكورنال والاسكولين والفيمينيل والكوليوم والافنتين وعليهنَّ ترى الاطلال الدوارس . والثانية رومه القرون الوسطى الشاغلة ساحة مرتيوس والثالثة رومه الجديدة التي بدئ بعمارها من الجهات الاربع سنة ١٨٧٠ تبلغ جميع سكانها الآن خمسماية الف نفس اكثرهم جاءها من اقطار ايطاليا عند ما نودي بها عاصمة المملكة

كنيسة مار بطرس

في النهار الثاني يوم وصولي خرجتُ من النزل اريد زيارة كنيسة مار بطرس وهي الكنيسة الاولى في العالم

فلما واجهتها لقيت امامها ساحة لا يقل مربعها عن ثلاثة عشر الف ذراع يمتد على جانبيها جناحان منعطفان كشبه دائرة يُدخل اليها بين فراغهما حتى ترى واجهة الكنيسة امامك على خط مستقيم فهذه الساحة رسمها واختطها المهندس برنيني ايام رئاسة البابوات اسكندر السابع وكلامنت التاسع

وترى في وسطها المسلة المصرية التي احضرها الامبراطور كاليغولا من مصر ووضعها في مرسح نرون ثم نقلها البابا سيكتوس سنة ١٥٨٦ الى حيث هي الآن

تاريخ بنائها

فتاريخ تأسيس هذه الكنيسة يبتدئ من سنة ٩١ بعد المسيح وذلك ان البابا اناكلاتوس اراد ان يعين المكان الذي دفن فيهِ بطرس الرسول ويميزه فاقام هيكلاً صغيرًا عليهِ حتى اذا جاء الامبراطور قسطنطين الكبير الى رومه في القرن الرابع جعل هذا الهيكل الصغير كنيسة فظلّت كذلك الى ان افضت الرئاسة في القرن الخامس عشر الى البابا نيقولاوس الخامس فعزم على توسيعها واناط العمل بالمهندس روسيلني ولما قُبض هذا الحبر تابعهُ البابا بولص الثاني ثم البابا جوليوس الثاني فتم بناؤها في مدة رئاستهِ على

الرسم الذي وضعهُ المهندس برامنته فاستغرق عمارها ما يزيد على عشرة ملايين ليرة كلفة يلحقها سنويًا ما يزيد عن ستة آلاف ليرة للترميم

داخل الكنيسة

فلما دخلتُ اليها رأيت في النرتيكوس تمثال الامبراطور شارلمان وهي ذات ثلاثة هياكل تعلو قبتها من الداخل اربعماية قدم ومن الخارج اربعماية وثمانيًا واربعين قدمًا نقشت جدرانها برسوم من الفيسفساء يتدلى من سقفها خميلة من الشبه (البرونز) فوق مذبحها الاوسط المقام فوق مدفن مار بطرس ويضيء حولهُ ليلاً نهارًا ثلاثة وتسعون مصباحًا ورأيت على الجانب الايمن من الهيكل تمثالاً لبطرس الرسول قيل انهُ سبك من مادَّة الصنم النحاس الذي كان لجوبيتر في هيكل الكابيتول ورأيت فوق المذبح الاعلى عرش مار بطرس محمولاً من اربعة تماثيل رمزًا لاباء الكنيسة الاربعة ورأيت ضمن الكنيسة واحد وعشرين نصبًا لتماثيل بديعة الصنع بينها تمثال البابا بولس الخامس صنعهُ ده لابورتا وآخر للبابا كلمنت الثامن صنعهُ كانوفا وكلاهما من غوالي جواهر الصنعة ونظرت على جانبي كل مذبح اعمدة من اصلب معادن الحجارة واحسنها لا ينقص قطر العمود منها عن متر ولا طولهُ عن سبعة امتار ورأيت فوق المذبح الاكبر الواقع تحت القبة العليا اربعة اعمدة متعجة من المرمر الاسود تشربت بخطوط متعاطفة من الذهب الابريز كزنوج ممنطقة بالعسجد وغير ذلك مما لا يسعني شرحهُ

خزانة الكتب

ثم التمست من السدانة ان ارى خزانة الكنيسة فأُجبت الى ما طلبت واُهديت الى باب صغير يؤدي الى ايوان مستدير في طرف غرفة مثمنة الزوايا يدخل منها الى مستطيلة حواليها دواليب كثيرة كان الامين يفتح واحدة بعد اخرى ويريني من ملبوسات الحبر ومن آنية الكنيسة ما يعز وجود نظيره في كنيسة من الكنائس لكن لما كان مطلبي رؤية الآثار

المطبوعة بطابع القدمية وليس رؤية ما كان جديداً ولو مهما كان بديعاً خرجت من الخزانة بعد ان شكرت وليها على ما اولاني من الايناس ورحت الى قسم من اقسام تصاوير الفاتيكان فصعدت ثلاثة سلالم حتى انتهيت الى مخادع طويلة متصلة ببعضها رأيت على جميع جدرانها وسقوفها صوراً غالبها من اقلام تلامذة المصور رفائل المشهور تمثل حوادث التوراة على تسلسلها وتعاقبها

التصاوير التي اغتصبها نابوليون

ثم صعدت الى مخادع اعلى وجدت فيهنَّ مجموعة التصاوير التي اغتصبها نابوليون الاول في غزواتهِ الاولى من رومه ثم ردها اليها بموجب معاهدة اميان مصمودة في اربعة مخادع ففي المخدع الاول صورة القديس جروم بقلم المصور فينسي ورسم الثلاثة اسرار بقلم رفائل وميلاد المسيح بقلم موريللو وزيجة القديسة كاترينا بقلم المذكور وفي المخدع الثاني صورة التجلي بقلم رفائل وصورة عذراء فولينيو بقلم المذكور وصورة القديس جروم يتناول القربان المقدس آخر مرة بقلم دومانيكينو وفي المخدع الثالث صورة القديس سابستيان بقلم تيتيان وصورة القيامة بقلم باروجينو (معلم رفائل) وتتويج العذراء بقلم رفائل وتتويجها ايضاً بقلم جيولو رومانو وصورة دفن المسيح بقلم كارافاجيو وفي المخدع الرابع صورة صلب بطرس بقلم كويدو راني والبشارة بقلم باروشي والقديسة هيلانة بقلم فارونس وصورة المخلص بقلم كورجيو

وربما يُعترض عليَّ باني اسهبت هذه المرة في وصف الصور والشرح عن الآثار وكنت لا افعل ذلك فيما مر من متاحف العواصم فعذري ان الصيت الذائع في اكناف المعمورة عما يوجد في الفاتيكان من غوالي الصور ونفائس الرسوم وما في رومه نفسها من جليل الآثار حملاني على ذلك حباً باعلام قومي ما هي هذه الصور التي يتنافس بها المتنافسون وتتفاخر بامتلاكها

الام وما هي هذه الآثار المموقة والمرغوب فيها لدى ارباب الاطلاع ودارسي التاريخ

مقابلة بطريرك

بعد ظهيرة النهار صادفتُ في النزل الحبر الجليل غبطة بطرس الجريجيري بطريرك طائفة الروم الكاثوليك الذي جاء رومه مع بعض اساقفتهِ الاجلاء قبل وصولي اليها بايام قلائل فسررت جدًّا لرؤياهُ لاني وجدتُ بهِ مفضالاً نبيلاً وسيدًا وديعاً ثم تعرفتُ بكاتم اسرارهِ الجامع بين اللطف والتقى الاب مخائل الوف

كنيسة ماريا ماجيوره

ولما كان النزل على مقربةٍ من كنيسة ماريا ماجيورة (مريم الكبرى) المؤسسة في القرن الرابع لسبب حكاهُ الراوي والعهدة عليهِ مآلها ان البابا ليباريوس رأى في حلمهِ العذراء تقول لهُ قم وابنِ لي كنيسة في المحل الذي ترى فيهِ ثلجًا وكان ذلك في الخامس من شهر آب اشد الشهور قيظًا فلما اصبح الصباح ورأى الثلج في المكان الذي دُل عليهِ شرع في بناء الكنيسة فلما دخلتها مع غبطتهِ وجدتها كانها كنيسة شرقية في اتجاهها وشكلها وهندامها قائمة على صفين من اعمدة المرمر المأخوذة من انقاض سرايا الامبراطور ادريان ورأيت سقفها محلًّى بذهب كاد يذهب لتقادم عهدهِ لانهُ كان على ما قيل من اول ذهبٍ ارسلهُ كولومبس مكتشف امريكا الى فرديننـد ملك اسبانيا وزوجتهِ ايزابلاَّ وهما اهداياهُ الى البابا كي يجدد بهِ طلاء الكنيسة

المرسح كولوسيوم

ومنها ذهبتُ برفقة المشار اليهِ في طريقٍ ادت بنا الى بقايا البناء الجسيم الهائل المسمى كولوسيوم الذي بدأَ في بنائهِ الامبراطور فسبسيان سنة ٧٢ ميلادية واتمهُ الامبراطور دوميتيان بعد عشر سنين فوجدت الجهة المقابلة

الموقع الذي اشرفنا منهُ عليهِ مستديرة الشكل شاهقة الا تفاع ذات ثلاث طبقات تتكون من قناطرٍ معقودة فوقفتُ مبهوتاً من عظمة البناء ومن تذكري انهُ كان مسفكاً لدماء البشر والبهيمة وقد ذُكر في التاريخ ان الامبراطور طيطس ابن فسبسيان دشن هذا البناء باحتفالٍ استمر مائة يوم قتل فيهِ من الانسان والبهيم ما يربو على الوفٍ مؤلفة لان الرومان كان من عادتهم ومن ذميم خصالهم الارتياح الى التفرج على مصارعة البشر مع الضواري فكانوا يطلقون الكواسر من عُرُنٍ مستقرةٍ ومخبوءةٍ في اسفل هذا البناء الجسيم على اناسٍ حكم عليهم بمنازلة السباع فمن قتل كان دمهُ مهدوراً ومن سلم سلمت لهُ الحياة وابقي عليهِ وكانوا يرسلون الناس للتبارز فيهِ فمن غلب او جرح امروا بقتلهِ دون رأفةٍ ولو استغاث بالجمع المحشود فكان بقاء هذا البناء الهائل الذي كان يسع مائة الف متفرج قائماً الى يومنا هذا دون تهدم او خراب كبير كما وجدتهُ عند دخولي اليهِ مرة ثانية لم يكن على ما اظن الأ ليذكرنا بما كان عليهِ الرومان من القسوة والخلو من عواطف الشفقة

كنيسة القديس لورنزو

ثم خرجتُ من النزل في النهار التالي اريد زيارة القديس لو نزو التي انشأها البابا سكستوس الثالث لاشاهد المصلوب المرسوم من قلم المصور كويدو راني المشهور في الآفاق وعند كبار ارباب الفن بانهُ اي المصلوب الجوهرة اليتيمة في صناعة التصوير فلما دخلتُ الكنيسة وجدت جماعةً من اكابر الانكليز والالمان رجالاً ونساء امام مذبح الكنيسة ينتظرون ازاحة الغطاء عن وجه المصلوب فلم يكن حتى ازيح بطلبٍ كان تقدم من الجماعة قبل وصولي اليها فرأيتهُ على جهلي بالفن التحفة السنية لاستجماعهِ ملامح عظمة اللاهوت مع ضعف الناسوت وعلامات التألم الانساني مع طلاقة الوجه وهدوء الجاش — حالات لا تجتمع الأ في المسيح مصلوباً

عمود اوريليوس

ثم انصرفت من الكنيسة لمشاهدة موقع عمود الامبراطور ماركوس اوريليوس فوجدتهُ عموداً لا يقلُّ علوّهُ عن سبعين قدماً وقطرهُ عن مترٍ واحدٍ منقوشاً على دائرهِ من الاسفل الى القمة رموز انتصاراتهِ

بيت بولس الرسول

لكن بدلاً من تمثال هذا الامبراطور الذي كان موضوعاً على رأسهِ وجدتُ تمثال مار بولس ومنهُ سرتُ الى البيت الذي قيل ان هذا الرسول سكنهُ سنتين فلم ارَ عليهِ نفحات الرسالة بل وجدتهُ مزاراً صغيراً

عمود ترايان

ثم رحت منهُ الى عمود الامبراطور ترايان فوجدتهُ حجماً ونقشاً وهنداماً كعمود الامبراطور ماركوس اوريليوس وعلى رأسهِ عوضاً عن تمثالهِ تمثال لمار بطرس ووجدت على مقربةٍ منهُ خرائب مرسح روماني لا زالت فضلات اعمدتهِ وتيجانها مبعثرةً على الثرى

الكابيتول

ثم ذهبتُ صعوداً على ربوة الكابيتول المشهور حيث كان عليها هيكل لجوبيتر معبود الامة اللاتينية فنظرت على جانب من مدخلهِ قفصين من الحديد الواحد يحوي نسراً حياً والآخر ذئباً وذئبة رمزاً بالنسر عن النسر الروماني الذي رفَّ بجناحهِ فوق انتصاراتهم وبالذئبة عن ارضاعها رموس ورومولوس موسسي الامة الرومانية سنة ٧٥٣ قبل الميلاد

تمثال اوريليوس

ولدى وصولي الى منتصف ساحة الكابيتول وجدت تمثال الامبراطور ماركوس اوريليوس منصوباً فيها وهو التمثال الوحيد الذي سلم من الستة

والستين تمثالاً التي كانت منصوبةً في ساحة الفورم وشوارع رومه لقياصرة وعظماء الرومان والسبب في سلامتهِ من الدثور كان لتوهم المسيحيين الاولين انهُ تمثال الامبراطور قسطنطين الكبير فأبقوهُ ولم يجهزوا عليهِ كما اجهزوا على امثالهِ الى ان نقل الى محلهِ الحالي ووجدت حول الساحة اصناماً قديمة من ايام القياصرة تمثل آلهة ميثولوجية لا محل لذكرها وعلمتُ ان هذا الموقع التاريخي اصبح اليوم مركزاً لدائرة البلدية

الكابيتولين

ثم انعطفتُ الى اليمين فصرتُ في موقع الكابيتولين الشهير الذي كانوا يدهورون من عاليهِ الى هاوية لازالت لصيقة بهِ من يغضبون عليهِ من رجالهم وعظمائهم فوقفتُ وحقك زمناً على شفير تلك الهاوية افكر فيما كانت عليهِ هذه الامة التي سادت الخافقين بعلمها ونظامها وعدلها المحكي عنهُ وصولة اسلحتها كيف كانت لاتصبر على هفوة انسانٍ رفعتهُ منذ هنيهة الى اعلى مراتب الاجلال من ان تقذف بهِ بلا رحمة ولا اشفاق الى تلك الهاوية كما تقذف حجراً او نواةً ثم تطلعت في الهاوية لارى اذا كانت ما برحت هاويةً خالية فاذا بها مكتظة بالبيوت والبنايات محواً لموقع آثار ظلم الاجداد

مرسح الامبراطور زفا

ولدى نزولي من هذه الربوة التى ازدهت ببهاءة السيادة على العالمين دهراً طويلاً قابلتْ خرائب مرسح الامبراطور زفا فوجدت ما كنت احسبهُ لمدينةٍ انحطت بعد رفعةٍ رأيت ساحة يتناوحها قصور مهدمة بينها عمد واقفة او مائلة او طريحة على الحضيض مهشمة او مكسرة ورأيت تيجاناً وعتبات منقوشة باحسن وادق نقش يستطيعهُ ازميل النحات وقلم المصوّر مبعثرة هنا وهناك — قلت لنفسي اهذا مصير اكبر دول الناس وشعرت ان في الوقوف على الدوارس مواعظ اشد تأثيراً في النفس من مشاهدة بدائع

العمران حتى قفلت عنها مطرق الراس احتراماً للمجد الزائل والعز الفاني

قوس قسطنطين

الى ان وصلتُ الى باب شاهق معقود مزداناً بنقوش رمزية على اضلاعهِ وجبهتهِ قرأتُ عليهِ انهُ قوس للامبراطور قسطنطين أُنشئ لهُ عقيب انتصاراتهِ

قوس طيطس

ورايت على مقربة منهُ قوساً آخر على شكلهِ وهندامهِ للامبراطور طيطس

حمامات كاليكولا

ثم بانت لي وانا في ذلك الموقع المحشوك بالآثار حمامات الامبراطور كاليكولا هائلة جسيمة وهي التي بدأ في بنائها الامبراطور سيتيموس سفاروس وتابعهُ فيها الامبراطور كاليكولا واتمها الامبراطور الله جبلو الحمصي الوطن والامبراطور اسكندر سفاروس سنة ٢٢٢ للميلاد فقصدتها ودهشتُ من اتساعها وعلوها الشاهق ورحب فسحاتها ومخادعها فاني مشيتُ ساعةً فيها انتقل من باحةٍ الى اخرى ومن بهوٍ الى آخر ولم احط بنصفها اذ رأيتُ عقوداً تنطح السحاب علواً تظلل مخادع لا ينقص طولها عن خمسين متراً او يزيد ولا عرضها وارتفاعها عن مثلهِ قياساً مفروشةً بالفسيفساء قد سقطت طاساتها على الارض كتلاً كصخورٍ صماء ففي البناء الاوسط وجدت آثار الحمامات الخصوصية وعند المدخل رايت بقايا حمام السباحة في الماء البارد وعلى شمالهِ بقايا الحمام الفاتر وعلى اليمين الحمام الحامي وفوقهُ الحمام المعرق وفيها احواض تختلف بين كبير وصغير وبهوات اراضيها مقعرة كانوا يملأُونها ماء للسباحة والاستحمام وكانت على ما رُوي تسع الفاً وستمائة مستحم في المرة الواحدة ويجلب اليها الماء من محلٍ قصي لكن ضاع على المنقبين لغاية اليوم الاهتداء الى مصارف مائها وهي تشغل ارضاً على ما اظن تساوي ستة فدن تربيعاً حولها غوطة متسعة ربما كانت في ايامها حدائق غناء ونظرتُ على

بعض الجدران والعضائد والعقود قطعاً من الرخام ما برحت ملصقة عليها ورأيت اعمدة وتماثيل مهشمة في بعض بهواتها كانها عصارة آثارٍ عفت عنها الليالي

من هدم الحمامات

قد ذكر التاريخ ان اطيلا الفاتح الغاشم هو الذي بدأ بتخريب هذه الحمامات وان خرابها التام واستلاب ما كان فيها من الاعمدة والتماثيل قد تأخر الى القرن السادس عشر عند ما نزع ما كان باقياً فيها من اطايب الانقاض وجيء بهِ الى سرايات فارنس والكنائس

احتفاظ الحكومة بالآثار

ولقد اعجبني من حكومة ايطاليا شدة محافظتها على هذه وغيرها من الخرابات محافظة شحيح على غالي جواهرهِ او ابن على مفاخر آبائهِ ومدافن اجدادهِ فتراها دائبة على ادعام المتداعي واسناد المتساقط وردع من يكشف عن لؤمٍ في طباعهِ بالاعتداء على حدودها واراضيها الغالية الثمن لانها الآن في احسن مكانٍ واطيب بقعة من مدينة رومه ولو اريد بيعها لباعتها الحكومة بثمن هي في حاجة اليهِ كما لا يخفى

بحث في خراب رومه

اراني الآن مضطرًا الى الالمام ولو قليلاً فيما وصلتُ اليهِ من البحث عمن خرَّبَ ودمر معالم رومه القيصرية ومشيداتها التي كادت تكون لولا القليل من بقاياها طامسة دارسة لا يعرف اين موضعها ولا كيف كانت هيئتها فاني لبثت زمناً استقري النكبات التي انتابتها منذ القرن الخامس فصاعداً لعلي ارى نكبة تفضي الى مثل ما وصلتُ اليهِ من الخراب ففتشت الزلازل الطارئة عليها منذ القرن المذكور لغاية القرن الحالي فلم اجد بينها زلزلة (وعددها ودرجة شدتها موضح ومبين في تاريخ انحطاط وسقوط

الامبراطورية الرومانية للمؤرخ الشهير كبن) نجم عنها خراب يذكر في رومه سوى صدوع ليست من الخراب في شيء ثم نقبت في الحروب والحصارات التي المت بها وعليها عسى ان ارى فيها ما يكشف القناع عن وجه الهادم فلم ار في القرن الخامس غير الطاغية اطيلا الذي قنع بعد اجتياحهِ ايطاليا والدخول الى العاصمة بهدم بعض سقوف حمامات كاليكولا وتخديشهِ بعض دورها اعلاناً لسلطتهِ ونفوذهِ دون ان يستلب حجراً منها ولم يكن لقومهِ اذ ذاك من شاغلٍ سوى مساكنة الاهالي ونهب ما هان نهبهُ من المتاع وما لبث قومهُ بعدهُ حتى دانوا بدين النصرانية وأتمروا باوامرها واصبحوا ضمن حظيرة المسيح . بقي عليَّ ان ابحث فيما ذكرهُ التاريخ عن الحروب التي نشبت فيها وعليها فمشيتُ في القرن الخامس الى الحادي عشر دون ان اعثر بغارة شنت عليها تقضي بخرابها ودمارها ولا بفاتحٍ جائرٍ تغشاها غير ما ذكر في اواخر القرن الحادي عشر عن دخول روبرت كويسكر اليها سنة ١٠٨٤ وعيثهِ وتخريبهِ فيها والراجح ان تخريبهُ لم يكن الاَّ في جهات منها تمنعت عليهِ لم يتناول بناياتها القيصرية . هذا والمعلوم في التاريخ ان خراب المدن لا يتم الاَّ بعد مرور سنين متطاولة وتعاقب الكوارث عليها وهذا لم يكن منهُ شيء في ظرف دخول روبرت كويسكر اليها غائراً يتوخى السيادة والكسب ناهيك ان البابا وية كانت في اواخر القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سمت عزها وكان معظم العالم المسيحي متفيئاً بظلها وزد على ذلك انهُ كان في اواخر القرن الحادي عشر المذكور فيهِ دخول روبرت فاتحاً مجتاحاً احبار عظام على كرسيها كالبابا غريغوريوس السابع سنة ١٠٧٣ وفيكتور الثالث سنة ١٠٨٦ واربان الثاني سنة ١٠٨٨ رجال لا يعقل انهم رأوا خراب مقر سدتهم وظلوا سكوتاً لا يبدون حراكاً ومن ورائهم العالم النصراني كما انهُ لا يعقل ان المجتاح المذكور يشغل رجالهُ بعمل لا يكون لهُ منهُ جر مغنم مهما كان احمق غشوماً فلما لم اجد في الزلازل ولا في الحروب والحصارات

اليد المدمرة لمعالم رومه تحولت للتفتيش عليها في البنايات والمشيدات التي قامت فيها باسم الديانة المسيحية منذ القرن الرابع فلاح لي نور ساطع هديت بهِ الى معرفة اكبر الهادمين

ان من زار الكنائس وعددها يقارب كما قالوا الاربعمائة في نفس رومه والتكايا والمعاهد الخيرية والقصور المهجورة والمسكونة يحكم من اول نظرة ان اكثر المواد المبنية منها حجارة وعمداً انما اخذت من انقاض الابنية الرومانية القديمة على انهُ لما تقلص ظل الوثنية عن ربوعها واستعاضت عنهُ بفيء المذهب المسيحي كان لا بدع اذا استعان هذا المذهب في بناء مساجدهِ ومناسكهِ الجديدة بما في المشيدات القيصرية من نفائس المواد حتى اضحى تهديمها حلالاً مباحاً ليس فقط بالنظر الى الحاجة الى انقاضها في بناء المساجد المسيحية بل غيرة من المسيحيين الاولين على محو آثار الوثنية حتى بلغ منهم انهم سحقوا واضاعوا وهشموا كل ما عثروا عليهِ من تماثيل عظماء الرومان تلك التي لم تكن موضوعاً للعبادة وقد مرَّ بك انهم لم يبقوا على تمثال القيصر ماركوس اوريليوس الاَّ لانهم ظنوهُ تمثال قسطنطين الكبير المتنصر فمن ذلك عرفنا هادم مباني رومه وسواء عرفناهُ او لم نعرفهُ ففي حدثان الدهر ما يقضي على الاثر بعد العين

تخلف الآثار عن اصحابها حيناً ويأتيها الفناء فتتبع

هيكل الزهرة وروما

وفي النهار التالي زرت بقايا المسمى بهيكل الزهرة وروما الذي بناهُ الامبراطور ادريان من المرمر الابيض المخطط بالذهب واحاطهُ بمائتي عمود من حجر الصماق وفرشهُ بالفسيفساء الكثيرة الالوان على هضبة تقابل مرسح الكولوسيوم فلم اجد بهِ غير حنيةٍ واقفةٍ

قصر نيرون

ثم زرت بقايا قصر نيرون المذهب فدخلت اليهِ من حديقة وفي آخرها مشى الخفير امامي وفي يدهِ مصباح اذ ادخلني في اروقةٍ مستطيلة ومظلمة منقوشة الجدران بنقوش ترمز عن امجادهِ وعظائم اعمالهِ فظللت ماشياً على ضوء المصباح حتى بلغت ردماً حال دون تقدمي فسألت قيل ان هذا الردم خرائب ثلاثمائة مقصورة ما برحنَ تحتهُ حتى اليوم فقفلت راجعاً

عمود الحبل بلا دنس

ثم سرت منهُ فوصلت عرضاً لا قصداً (لاني لم اقصد غير الآثار القديمة) الى العمود الذي نصبهُ البابا بيوس التاسع سنة ١٨٥٤ تذكاراً لتقرير عقيدة الحبل بلا دنس وهو بقرب شارع اسبانيا

هضبة البلاتين

وفي عصارى النهار عجت على هضبة البلاتين فشاهدت خرابات قصور القياصرة اوغستوس وتيباريوس وكاليكولا ونيرون ودوميتيان وسبتموس سفروس فلم اجد باقياً منها سوى عقود واقبية يعشش فيها الخفاش

البناء بالاجر

وليعلم القارىء ان غالب بنايات اوربا بما فيهنَّ ايطاليا ورومة القديمة والحديثة ليست من الحجر الاصم او الهش الميسور والكثير وجودهُ في ايطاليا خاصةً بل بالاجر والقرميد لانهُ على ما يزعمون اقدر على الزمان من الحجر وامنع منهُ زرباً ورشحاً فكنت عند ما اطوف بآثار رومة استغرب جسامة الباقي منها وصبرهُ على عوادي الايام واعجب من بقاء بعضها جبالاً تناطح السحاب وهو قرميد صرف اكثرهُ مكسوٌّ من الداخل والخارج بالفسيفساء او بالواح الرخام او بكسير حجارة ملونةٍ مغموسة بمعجون ماسكٍ حتى عملت

بعد الامعان وتكرار النظر ان القرميد لهو المفضل حقيقةً على الحجر واصبر منهُ على نوازل الايام

اعتذار

ربما يؤاخذني القارئ على الاسهاب والعناية في الآثار القديمة لكنهُ يعذرني اذا نظر الحياة والدنيا نظرًا دقيقًا حيث لا يرى فيها استاذًا ابلغ وعظًا وافصح نطقًا من هاتيك الخرائب المدوسة بالاقدام واني لو جلست اياماً اروي عمّا في قصر التويلري وسرايات بكنهام والكورنول من البهارج والزخرف لكنت اضعت ايامي سدًى فيما لا يبعث النفس الى الاتعاظ والاعتبار هذا واني في خلقٍ وسنٍّ يأبيان عليَّ التلهي بالقشور عن اللباب

وما حب الهوادج يزدهيني ولكن حب مَن تحت السجوفِ

ولربَّ سائل يسأل لِمَ لم اشرح شيئًا عن حالة الهيئة الاجتماعية في غربي اوربا وعما رأيتهُ فيها بنظري الشرقي اقول تلك غاية يعترضني دونها عقابٌ صعاب منها الاحتكاك السياسي وما ادراك ما هو لكن اراني الآن مضطرًا وقد خلقتُ فضوليًا ان اختار طريقًا بين شعاب هذا الموضوع لا اكون بهِ على خطر العثار

الهيئة الاجتماعيَّة في غربي اوربا

ان مَن اطلق النظر على حالة شعوب هاتيك الممالك قبل التمكن من الاحاطة بشؤونها يظنها تحت سيادة نبلاء البلاد واغنيائها اذ يرى بونًا شاسعًا بين اهل هذه الطبقة وبين اصحاب الصناعة واهل الكد والجد فيها وهم العدد الاكبر وذلك في استئثار الاولين بالرئاسة على الاحكام الاَّ فيما ندر رغمًا عن ان بلوغها مباح للاستحقاق . والفضل وفي عيشتهم المنعمة البالغة حد البذخ والاسراف وفي ترفعهم عن مخالطة من هو دونهم او من هو من غير مرتبتهم — حالات قط ما وصلت اليها نبلاء واغنياء الشرق

ذلك ما ادى للزحام الشديد بين طبقاتهم على ما يوصل الى هذا المقام الممتاز فلهذا ترى بينهم المخاطرين بكما تملك ايديهم من حطام الدنيا للحصول على غنىً اوفر والمجازفين بمبلغ ما اعطوا من الفهم والفصاحة لاهاجة الخواطر او لاقناع السامعين بانهم خير من يتولى الزعامة وزمام الاحكام

ولا خفاء ان الحضارة والتمدن الشاملين الآن الممالك الاوربية قايمان على اسس العلم والعدل والثروة فالعلم مباح للجميع على السواء والعدل منوط بفئةٍ من القضاة يحكمون بموجب شرائع سُنَّت على مقتضيات الزمان والشؤون والثروة ملك مشاع ومحجب يتهافت عليهِ كل فردٍ فالبعض يصيب منهُ قسماً وافراً والبعض قسماً يسيراً والبعض يكتفي على كرهٍ منهُ بالقوت اليومي لان الاقدار لن تقسّم الحظوظ على احكام فريضةٍ شرعية

التنازع بين المال والعمل

نجم عن ذلك تصادمٌ وتلاحمٌ على ابواب هذا الملك المشاع افضى في اواخر هذا القرن الى التنازع بين رأس المال والعمل وكانا منذ اجيالٍ في تلك البلاد اخواناً واخداناً جلبا باتحادهما اليها العمران ورفعا بها الى اوج القوة والثروة ذلك ان العمل طلب من رأس المال حقوقاً لم تكن لهُ فيما مضى في مثل انقاص اوقات الشغل وزيادة الاجرة فانكر رأس المال عليهِ بعض ما طلب حرصاً على ريعهِ ودفاعاً عن مصنوعات المملكة لان في انقاص ساعات العمل وزيادة الاجرة ما يدعو لزيادة اثمان المصنوعات وغلاء اثمانها كما لا يخفى يقلل رواجها في الاسواق وقلة الرواج تمني صناعة البلاد بالضعف لا بل بالاندثار . وحجة العملة في طلبهم انقاص وقت العمل والزيادة في الاجرة غلاء مواد المعاش وانهزال اجسامهم في طول مدة الشغل لان الاحصاءات المتأخرة ابانت عن قصر متوسط اعمار اكثر المشتغلين في الحرف وعدم كفاءة اجورهم للقيام بحاجياتهم الضرورية فنشأ عن ذلك نزاع

تكاثر فيهِ اضراب العملة عن العمل وانكماش اصحاب المال عن التسليم بما يضيع عليهم وعلى صناعة البلاد النفع والانتفاع حتى اوجب تعاقب هذه العطلات تداخل حكومات البلاد لتدارك حسم هذه المعضلة خيفة من ابتئاس الفعلة وازدياد شقائهم وشقاء عيالهم ودفعاً لما يقع بتكرارها من الحيف على الصناعة حتى تطوع لمعالجة جسيمها اعقل وافضل رجال هاتيك الحكومات الذين لم يفوزوا لحد الآن مع ما هم عليهِ من الاخلاص في حب قومهم واوطانهم الأ بتسكين حدة اعراض هذه العلة وذلك لثلاثة اسباب

الاول ان انتشار هينات المعارف بين طبقات الفعلة اطمعهم بعيشة ارقى مما هم فيهِ الآن

الثاني ظهور اناس في تلك الممالك يدَّعون الغيرة على الانسانية ويسمون انفسهم اسماء تقرّب منهم كل مكسالٍ يبغي الحياة بلا تعب او بتعبٍ قليل وهم غلاة يريدون قلب النظام الحالي

الثالث تلاشي خصلة الرضى بالحالة التي وجد فيها المرء ايًّا كانت تلك التي قام عليها قديماً نظام الاجتماع الانساني وكانت اساس المساكنة والمياسرة والوئام بين طبقات الناس على تفاوتها

تلك هي اسباب ولئن وجد كلها او بعضها في كل مجتمع انساني الأَّ ان وجودها الآن في التمدن الاوربي ظهر اكثر جلاء مما في غير بلاد لم تبتلَ افراد رجالها بالثروة الطائلة والعيشة المنعمة الداعيين الى الحسد وانكسار خاطر من لم ينل من الدنيا غير كفافهِ

المذاهب السياسية

وقد انقسمت آراء السياسيين في اوربا اقساماً شتى اشدُّها نكراً وضلالاً اربعة مذاهب

الاول مذهب القائلين بلزوم قلب النظام الحالي واستبدالهِ بنظام في مخيلتهم

الثاني مذهب القائلين بالاّ تكون الحكومة غير جابية لمكوس تُضرب على اصحاب الثروة ثم يُوزع صافيها على اعالة اهل الفقر والبطالة

الثالث مذهب الاشتراكيين المشتملة على آراء كثيرة اظهرها الرأي المريد التسوية بين الناس باضاعة اجرة او ريع ما يملكهُ الغني من المال والعقار وانفاقهِ او انفاق معظمهِ على تسديد امور المملكة

الرابع وهو الاشد نكرًا واعتسافًا الحض على اغتيال من تولى وساد في القوم توصلاً على ما يتوهمون لقلب النظام والاحكام

آراء ومذاهب يخبطون فيها كأنهم لم يعلموا ان من ورائهم قائدًا يقود الناس الى ما يشاء ويريد رغمًا عن انوفهم او كأنهم جهلوا ان الانسان ومجموع الناس ليسوا بارشد من اطفالٍ يلعبون على حدود الاقدار الخفية او جهلوا ان في نفس سير الامم والطوائف مقوّمًا طبيعيًا اذا اعوج سيرهم ودواء اذا مرضوا لا يحتاجون معهُ الى دواء من حانوت العدميين والاشتراكيين او جهلوا ان معالجة الامم بعلاجٍ يشفيها من مرض موهوم لهو عين ايقاعها في المرض الحقيقي

ما يؤخذ عليهم

واني لاعجبُ من تلك الممالك البالغة شأوًا بعيدًا في الحكمة والحضارة والعمران والدائبة على مزاولة العلاجات الشافية لادواء الناس وسائر انواع الحيوان كيف هي نفسها تسمح بسكنى العدميين القتلة بين ظهرانيها قانعة بمراقبتهم عن بعدٍ كأن ضربها على ايديهم واستئصالها شأفتهم وصمة على تمدنها ومعرّة على عدلها وانصافها حقًّا ثم حقًّا ان في التمدن الاوربي الحالي مناقضات توجب ضحك الاجيال المستقبلة ان قُدّر لها الافاقة من غفلة ايامنا

البراز في فرنسا

ولقد رأيت في فرنسا عيبًا شائعًا وهو التقاضي عند الاختلاف الشخصي الى المرهفات ورصاص البنادق كأن لم يكن فيها من وازع او شرع غير قوة

العضل ودربة الساعد المفتول — عادة ورثوها عن اسلافهم الغالة البرابرة واحتفظوا بها استرسالاً على زعمهم لبقاء الخلال الحربية في كل فرد من افراد الامة حال كونهم منعوا قصاص الاعدام في الجنايات الكبرى ضنّاً كما ادعوا بنسمات الحياة فما بالهم يبيحون اختطافها في نزاع طفيف تكفي بهِ كلمة من القاضي ولمَ لم ينبذوا هذه العادة الذميمة كما نبذوا ما كانت تفعلهُ اجدادهم في الاجيال المظلمة من اختبار البراءة والجريمة باعراض المتهم على النار

محامد الغربيين

هذا بعض ما لاح لي ادراجهُ في موضوع هيئة اوربا الاجتماعية وعساني لا اكون مفرّطاً او مفرطاً فيما ابنتهُ عن المغمز في حضارتها وعسى الاّ يفهم من انتقادي خلو اهاليها ونظام ممالكها من الشيم الغراء والسجايا السامية والقوانين المحكمة الوضع لانهم بلغوا في عمل الاحسان والخير ما لم تبلغهُ دولة قبلهم حتى كادت عطاياهم وهباتهم السنية للمدارس والملاجىء الخيرية والمستشفيات والمعارف وجميع انواع الاكتشافات في العلوم والطب والجراحة وفي مجاهل الارض واغوارها ان تكون لجسامتها ومبالغها الطائلة من قبيل القصص والروايات البعيد تصديقها فهم سريعو النهضة لمساعدة الجنس الانساني اينما كان وكيفما كان جنسهُ ودينهُ لا يسمعون بكارثة ألمت بهِ في اي زاوية قصيَّة من زوايا الارض الاّ اندفعوا لاعانتهِ عليها اندفاع السيل كرام النفوس سخاة الاكف ان وعدوا وفوا وان اوعدوا انزلوا القضاء يجلون اهل الفضل ولا يبخسون حق المجتهد يحسنون تربية ولدانهم ويؤاسون شيوخهم فهم قوم في هذه الخصوصات بلغوا اعلى طباق المحامد لا يعوزهم سوى الوجه الباش . وقد بلغوا من الحكمة والدقة والبراعة وحسن التدبير في نظاماتهم العسكرية والقضائية والملكية والمالية مبلغاً شهدت بهِ

امنع الممالك واقصاها واغمض الدعاوي واغلقها واعقل المسائل السياسية واشكلها وما نزف من جيوب اهل الشرق طرًّا. فهم اقوام اتخذوا طلب المزيد في كل شيء ديدنًا وحسبوا القناعة والوقوف فيما صاروا اليهِ عيًّا وتأخرًا

طرقات رومه القديمة

وفي الرابع والعشرين من حزيران خرجت من النزل اريد زيارة بيت عاديات الفاتيكان ثم خطر لي ان ارى طرقات رومه القديمة فاوعزت الى السائق ان يسير بي في ما يحسبهُ من اسواقها القديمة ففعل وسار يزحم المارَّة وانا مشغول بالنظر الى ما حولي من المباني والى ضيق الازقة حتى تخيلت اني في احدى مدن الشرق وتأكدت ان اتساع الشوارع واستقامتها لم يكن بالشيء المعهود عند قدماء الرومان حتى اذا وصلت الى فسحة كنيسة مار بطرس انعطفت بي المركبة الى اليمين ووقفت لدى باب عالٍ رأيت على جانبيهِ فتيانًا لابسين ثيابًا مدبجة بالاحمر والاسود والاصفر خطوطًا مستطيلة راق لعيني منظرها فسألت عنهم قيل لي انهم زمرة من خفراء الاب الاقدس

بيت عاديات الفاتيكان

ثم استأنفت المركبة المسير صعدًا في ممر طويل حتى بلغت بي الى باب آخر ترجلتُ على عتبتهِ وولجتُ فيهِ الى قصرٍ منيف مرفوع الاركان والذرى تعبق فيهِ رائحة ازكى من الخزام واطيب طهور الحواشي والاطراف نظيف البلاط صعدت اليهِ بسلم ذات درجات قليلة وجدت في اعلاها حجرةً وسيعة مستديرة الشكل عن يمينها رمسٌ في البورفير (الحجر السماق) الصلب اللامع ومثلهُ بالمعدن والحجم رمس آخر عن شمالها فالاول وهو تحت عدد ٣٦٠ لحد قسطنسيا ابنة الامبراطور قسطنطين الكبير والثاني تحت عدد ٥٨٩ لحد امهِ القديسة هيلانه كلاهما سالمان من كل تشويه ومنقوشان برسوم

بارزةٍ غاية في الكياسة والاتقان فالاول وُجد في فيانومتانا والثاني في تور بينيا طارا ثم دخلتُ الى الحجر الاخرى فاذا بها اربعون غرفة مُلئتْ جوانبها ووسوطها بمنحوتات واقفة وجالسةٍ منها ما هو كامل ومنها ما هو نصفي اعجزني تعدادها فضلاً عن ذكر اسمائها ومرموزاتها ونسبتها لمن تعزى فلهذا اجتزئ الآن بذكر اهم التماثيل المحسوبة ابدع واتقن شيء في صناعة النحت منها تمثال لابولو ونصف تمثال لجوبيتر من صنع النحات فيدباس وتمثال كامل لديانة وآخر للامبراطور اوغستوس وآخر مثلهُ للامبراطور كاركلا وغيرهُ تمثال لرجل غضبت عليهِ الآلهة لخيانةٍ ارتكبها فسلطتْ عليهِ وعلى ولديهِ حيةً رقطاء التفتْ عليهم وجمعتهم حزمة واحدة واخذتْ تنهش موضع قلب الوالد والولدان ينظران الى وجه ابيهما هلعًا ورعبًا . ورأيت تمثالاً منصوبًا في صدر رواق مستطيل من المرمر الناصع البياض واقفًا اذا نظرتَ اليهِ من جهة اليمين وجدتهُ قابضًا يدهُ بعارضٍ عبوس واذا نظرتهُ من الشمال رأيتَ عارضهُ الايسر باسمًا ويدهُ تشير بالتحية تلك صناعة كما قالوا تناهت في البراعة ورأيت في غير حجرة تمثالاً لنهر النيل جسيمًا ملتحيًا عليهِ من علامات الشيخوخة الغضون ومن الشبيبة غضاضة العضل ضجيعًا مسنود الرأس على وسادةٍ وعلى جسمهِ ستة عشر طفلاً عراةً مثلهُ منهم من هو واقف على مساواة سطح فراشهِ ومنهم من يتسلق فخذهُ ومنهم من صعد الى صدرهِ ومنهم الى عنقهِ وآخرون الى لحيتهِ وآخرهم الى قمة رأسهِ مادًّا يدهُ اشارةً الى معنى كنى. فهذا التمثال واطفالهُ الستة عشر كناية عن النيل وعن زيادتهِ تدريجًا والواقف على هامهِ رمزٌ عن وصول زيادتهِ لحد الطغيان . ورأيت تمثالاً لاريانة التي تركها تاسوس في جزيرة ناركوس فريسة لاله الصيد وآخر لبرسوس قابضًا بيدهِ على ناصية رأس مادوسا وآخر لابوللو بل فداره المحسوب اجمل تمثال في العالم وقصارى الكلام اني رأيت في هذا البيت ما لم اره في متاحف لندن وباريس غير اني لم ارَ اثرًا يُذكر للاثوريين والحثيين

والفنيقيين. ونظرت من اعالي شرفات هذا البيت المنيف حديقة البابا ومجلس زهدهِ في الحياة الدنيا حتى اذا اذن وقت الانصراف خرجت من القصر على نية العودة في يوم آخر الى القسم الثاني من الفاتيكان لرؤية المكتبة

حالة الشعب الايطالياني

ولقد عرفتُ بالامة الايطاليانية الجد والنشاط كما عرفتُ ان الغنيَّ قليلٌ بينهم مع ان اراضيهم واسعة وتربتها جيدة انما الطمع في الحصول على الثروة مع السهولة حبب اليهم سكنى المدن الكبيرة وصرفهم عن مزيد الاعتناء في استثمار الارض فترى في مدنهم المتسولين صنوفاً واشكالاً هذا يستجدي باليد وذاك يسألك ان تبتاع منهُ ورقة او صورة او كتيباً وآخر يغنيك بصوتهِ او على الاوتار وان وقفتَ في طريق وقفة من يريد الركوب هجمت عليك المركبات تباعاً فتراهم في محطات السكك يتخاطفون القادم اياً كان لكنهم يحترمون النزيل الغريب ويخدمونهُ خدمةً لا يلقاها عند سواهم يجلون كبيرهم وكل من كان عليهِ ملمح الكبار خفاف سراع الى ضرب الخناجر والرمي بالرصاص لا يعرفون اذا طلبتهم لقضاء حاجة غير الوعد بقضائها سريعاً وهم لا يقضونها الاَّ بعد صبرك طويلاً لا لانهم يهملون قضاءها عن كسل بل لجهلهم اين توجد وكيف تؤخذ فيقلبون الارض ظهراً لبطن تفتيشاً عليها كي لا تضيع عليهم الجائزة عند قيامهم بالخدمة

الازمات الوزارية في ايطاليا

اغنياؤهم واكابرهم كما سمعت مغلولو الايدي مقبوضو الاكف عن المساعدة والاحسان لكنهم مأمونو الجانب ان عاشروا سهلو المراس ان عاملوا قريبو الرضى ان خاصموا او نازعوا ولوعون بحب الانخراط في مصاف رجال السياسة يترقبون الاسباب الآيلة لقلب الوزارات ترقب مشتاق لا لغرض حربيٍ او لأَرب سياسي بل لعل الانقلاب يوصلهم الى

منصب ما شأن البلاد التي لم يتقادم عهد نظامها ولو لم يكن مليكهم الحالي امبرتو من الملوك الباخل بمثلهم الزمان شفوقاً مسالماً وديعاً لكان اتعبهم. ولقد حدث اثناء وجودي في مدينة ميلانو وقوع استعفاء وزارة بيلو بسبب تغلب الحزب المضاد في الانتخابات الاخيرة ولم يقروا لغاية اليوم على الخلف لتكافوء الاحزاب في البرلمان الايطالياني

مشابهاتها الازمات الفرنسوية

فايطاليا اشبه الدول بدولة فرنسا من حيث كثرة الانقلابات الوزارية والمفاجأة فيها وقد حدث اذ كنت في باريس خطر على وزارة ولدك روسو الحالية اوشكت منهُ على السقوط لولا خوف الامة على معرضها العام على ان هذه الانقلابات والمعضلات الوزارية الكثير وقوعها في كلٍ من فرنسا وايطاليا انما هي صفة لاصقة بكل بلاد يحكمها الدستور والنظام الشعبي البحت

نفخفخة كبراء ايطاليا

ويقال واظن القول صادقاً ان كبراء الايطاليان مولعون بالبهرجة والابهة الظاهرة لاني اذ كنت مرة في جنينة بلدية رومه المسماة بنشينو رأيت مركبة عليها من جلال العظمة ما اوهمني انها لملك ايطاليا او لولي عهدهِ لاني لم ارَ مثل زينتها في العواصم فسألت ولمن تكون هذه المركبة قيل انها لرجل كان اجدادهُ من نبلاء البلاد لكنهُ امسى اليوم باسرافهِ لا يملك سواها ثم لم يكن حتى ناداني الدليل بقولهِ تكراراً هوذا الملك هوذا الملك فالتفت لاراهُ فرأيت رجلاً اشمط اللمَّة راكباً مركبة عادية لا حشم خلفهُ ولا خفراء قدامهُ يرفع قبعتهُ ثم يخفضها الى مساواة مقعدهِ يحيي شخصاً لم ارهُ لحيلولة عطفة بيني وبينهُ فقلت للدليل اذ ذاك أهذه مركبة الملك وتلك مركبة رجل من رعاياهُ لا يملك من التالد والطارف

غيرها . وكنت مرة في حانوت صائغ فاذا بامرأة دخلت يتبعها وصيفة وعبد اسود ثم اخذت تسأل الصائغ ان يريها اشكالاً من الحلى والجوهرات وهو يتلاهى عنها بشيء امامهُ او بدفترٍ يقلبهُ او يتظاهر اخرى كأنهُ لم يسمع ما تقول فلما رأيتها صابرةً على اعراضهِ عنها وهي بذلك المظهر المستوجب الاحترام اطلت الوقوف لاعرف سبب استخفاف الصائغ وعدم اكتراثهِ لها فلما انصرفت دون ان تبتاع شيئاً قلت لهُ وما داعيك الى هذا الاستخفاف بالسيدة اجاب دونك والحساب فان لي في ذمتها منذ سنين كذا مبلغ كنت خلالها كلما اطلب استيفاءه اصبح ككرة تقذف بي الى زوجها الامير الفلاني والامير يقذف بي اليها ولم افز حتى الآن بقبض درهم من الذمة فقلت لهُ وما اوقعك فيها قال المظهر الفخيم الذي نظرتها فيهِ الآن نعم قد كان زوجها من اصحاب الثروة لكن الاسراف والبطالة اللاحقتين بمن يتطال الى المراتب العليا افضى بهِ الى الاعسار وهذا شأن كثيرين من رجالنا واظنهم لا يشفون من داء حب التظاهر والفخفخة الا بالافلاس التام واضاءة الشمعة

كلف على وجه الشمس

في الخامس والعشرين من حزيران قرأت في احدى الجرائد الايطاليانية ان الفلكي مسيو مارين اكتشف بالنظارة العظمى التي انشئت حديثاً ووضعت في معرض باريس كلفاً على وجه الشمس يبلغ قطرهُ اربعين الف كيلو متر وانهُ سيبقى على وجهها سبعة ايام ثم يزول لكن سيتبعهُ اكلاف اخرى في تموز وآب وايلول ذلك ما يدل عن شدة حر صيف هذه السنة وقرأتُ فيها ان مسألة الصين التي اهاجتها عصابة البوكسرس (الملاكمين) ستصبح الوسيلة الكبرى للتوفيق بين غايات الدول الاوربية والباعث الفعال الى صرفهم عن الضغائن الكامنة في صدورهم باسباب المطامع ولو الى اجلٍ مسمى

كنيسة اليسوعية

ثم زرت كنيسة اليسوعية فوجدتها مزدانة بافخر زينة لكنها عطلى من كل اثرٍ تاريخي

في السادس والعشرين من حزيران عزمتُ على مبارحة رومه في غدهِ ثم تناولتُ جريدة الصباح فرأيت فيها خبر تشكيل الوزارة الايطاليانية بعد اخذ ورد كثير تحت رئاسة السناتور ساركو وانتهاء تلك المعضلة الوزارية التي اقامت الاحزاب واقعدتها وعن سرور اهالي البلاد بها وتمنيها لها العمر الطويل

مكتبة الفاتيكان

ثم خرجتُ من الفندق ابغي زيارة مكتبة الفاتيكان وفي طريقي اليها عجتُ بمنزل حبر جليل كيما اودعهُ فودعتهُ واستودعتهُ الذكرى ثم واصلتُ السير الى المكتبة فدخلت في رواقات مستطيلة متصلة بعضها ببعض تزدان سقوفها وجدرانها برسومٍ وصورٍ من اقلام اشهر مصوري ايطاليا ترمز عن حوادث الباباوات منذ القرن الخامس عشر ثم طلبت الاطلاع على اقدم الكتب فاروني انجيلاً يونانياً مكتوباً في القرن الرابع على رقٍ لكن دون ان تمسهُ يدي لشدّة المحافظة عليهِ ثم اروني ديوان اشعار فرجيل مكتوباً في ثلاثة مجلدات من الرق احدها كُتب في القرن الثالث وثانيها في القرن الرابع وثالثها في القرن الخامس للميلاد هذه هي اجل الكتب القديمة الموضوعة في تلك الخزانة الممتازة ولما سألتُ عن كتب اللغات الشرقية قال لي المأمور انها بين المجلدات الكثيرة الموضوعة في مكتبة الفاتيكان العمومية الحاوية على ثلاثة وعشرين الف مجلد بالخط وعلى ستين الف مجلد بالطبع

الايقونات الملساء

ثم خرجت من هذه الاروقة الى غيرها المعمودة فيهِ الايقونات القديمة فوجدت ما حقق ظني اي تحقيق واثبت ما انتهيت اليهِ في البحث عنها في

جميع المتاحف التي زرتها ان الشكل البزنطي التام الملوسة انما كان الشكل العام على الاطلاق في الكنائس الغربية قبل القرن الثاني عشر حتى اصبحت ايقوناتهُ في مصاف الآثار القديمة في نفس هذا المتحف وتأكدت ان التصوير النافر او الناتىء الوجه لم يظهر الاَّ في القرن الحادي عشر

هيكل فسبسيان

بعد ظهيرة النهار زرت خرائب هيكل فسبسيان فرأيت انهُ لا يزال باقياً فيها ثمانية اعمدة من الرخام وقوفاً

هيكل زحل

ومن هناك جئت الى خرئب هيكل زحل كيما اجعل زيارتهُ آخر زياراتي في هذه المدينة التاريخية تفاؤلاً بارتحالي عنها فوجدت ثلاثة اعمدة لا سواها في ذلك الهيكل العظيم تذكرنا بما كانت عليهِ الوثنية من علو الشان في لبَّة اسمى الممالك الغابرة ثم انزويت في احد اركانهِ المتهدمة وجلست على قاعدة ربما كانت مثوى الصنم الاكبر ثم طفت اودع اطلال رومه وداع استاذٍ تفضل بدلالتي على مصير القدرة والسؤدد الانساني واراني بالعين خسَّة مشيدات دول الارض ومبانيها واودعها وداع من لا ينسى خلواتهِ في حدائقها بين تماثيل رجالها النابغين في اوائل الاجيال المتأخرة الذين اناروا في ايطاليا وفي اوربا باجمعها مصابيح العلم بعد انطفائها وفتقوا فجر الشعر البديع بعد ليالٍ طوال مدلهمة واودعها وداع من رآها اشبه بلاد الدنيا ببلادهِ من حيث رباها وهوائها وصفاء سمائها على اني اروح منها وقلبي مطمئن على حسن مصيرها بالنظر لما شاهدتهُ في نظام حكومتها ونشاط اهليها وجدهم الذين لا يعوزهم لنبذ ما ورثوهُ من سيء الخلق في ايام مضت سوى تعليم اهم مما حصلوا عليهِ حتى الآن . ثم نهضت وقد تغشى وجه الشمس صفرة المغيب اتعثر بردوم ما برح يلع بينها كسير الدماق الاحمر

ويطلُّ من خلالها فتبيت الرخام الاخضر والمرمر الاشهب البراق الى ان
وصلت الى النزل فودعت اصحابهُ ونمت تلك الليلة وانا احلم باهلي ووطني

السفر من رومه

وفي السابع والعشرين من حزيران سرت صباحاً الى المحطة القريبة من
الفندق وركبت القطار المستعجل الى مدينة نابولي فلم ارَ في طريقي شيئاً
يستوقف النظر سوى القناطر المجرور عليها الماء قديماً الى رومه الممتدة مع
تهدم وانقطاع في سلسلتها مسافة ساعة على سرعة سير القطار تارة كنت
اراها عن يمينهِ واخرى عن شمالهِ واری الارضين حولي خالية من الزرع
والغرس على خلاف ما رأيت في كل جهات اوربا ذاك ما دلني على
انحطاط الاستغلال من الحرث وعلى اهمال الغرس
وقد لقيت في الحجرة التي حللتها شاباً ايطالياناً من موظفي البحرية
مأموراً بالسفر الى الصين في المدرعة التي اعدتها الحكومة في اسكلة نابولي
لحاقاً باسطولها الصغير الموجود الآن في بحار الصين فانست بهِ لما بدا لي من
لطفهِ وما استملحتهُ فيهِ من المعارف البحرية وقد رأيت بعظم سرورهِ ورضاهُ
بهذه السفرة الآمل فيها الترقي ان الشبان يريدون المعالي على شفار الظبي
وسفك الدماء

فزوف

ولقد نظرت قبل الدنو من مدينة نابولي قمة الفلكان فزوف يتصاعد
منها الدخان مرة وينقشع اخرى كأنهُ يتنفس عن نار تؤجج في احشائهِ لا
يبغي انطفائها قبل ان يستعلي على ما حولهُ من الجبال المجاورة بما يقذفهُ من
الحمم والمواد المصهورة

نابولي

ولدى وصولي الى المدينة في الساعة الثانية بعد الظهيرة نزلت في
فندق جنف التام الاتقان لكني لم استقر في الحجرة حتى عاودتني الوعكة

التي عرتني مذ كنت في رومه ولم اعلم لها سبباً غير ما تحملتهُ بهذه السياحة من المشقة التي لا عادة لي على تحملها وذلك بالمشي والوقوف معظم النهار في المتاحف والخرائب وبيوت العاديات او من الحر الشديد الذي يعقب البرد بغتة حتى تخايل لي خاطر الرجوع عما عزمت عليهِ من اطالة الرحلة في مدن ايطاليا الاَّ اني ارجأت القرار على هذا العزم الى بعد غدٍ علي بعودة القوة ورجوع الهمة اعود الى العزم على مواصلة الطواف في هذه المدن التاريخية

بومبي وهركولانيوم

فلبثتُ في الحجرة حتى انفلق فجر الثامن والعشرين من حزيران فنهضت غلساً اتهيأ لزيارة بومبي وهركولانيوم المدينتين اللتين طغى عليهما فزوف وغطاها برمادهِ سنة ٧٩ ميلادية وموقعهما يبعد عن نابولي مسافة ساعةٍ او يزيد في المركبة النارية وربَّ سائل يسأل وما حملني على تجاوز مدنٍ عامرةٍ وترك عواصم بهيجة ورائي دون ان اعرّج عليها والمجيء الى هذه المدن المدفونة اقول واصدقهُ القول ان محاسن المدن العظيمة في اوربا قد تساوت بينهنَّ على السواء فلو نظرتَ مدينةً منهنَّ لخلتَ نفسك في الاخرى او زرت متحفاً او ملعباً او معهداً علمياً في احداهنَّ لكنت كأنك زرت وشاهدتَ ما في غيرها الاَّ في اشياء طفيفة ليس كل الناس بالباحثين عنها ولو وقفتَ في احداهنَّ على سرٍ من اسرار نجاحها وشاهدت مظهر اقتدارها وبراعة صناعتها لكنتَ كأنك وقفتَ وشاهدتَ ما يشبههُ في غيرها لان العمران والتمدن الاوربي متشابه في اشكالهِ وضروبهِ الاَّ في اختلاف لغات بلدانهِ لكن ليس الامر كذلك في الوقوف على الاطلال والمدن الدوارس حيث ترى فيها اختلاف انواع الهادمين ففي بعضها ترى الهادم انساناً عاتياً خلا قلبهُ من الحنو او ناقماً تهور في الانتقام او غاصباً اراد تلاشي آثار ما قبلهُ وفي بعضها ترى الهادم فواعل الطبيعة من سيل طغى وجرف او من زلزلةٍ

شقت الارض وقلبت البيوت او من خسف غور المكان او من جبال قذفت بما في احشائها من ذائب المواد والقت برمادها ودفنت مساكن الناس كالمدن المدفونة التي انا ذاهب الى رؤيتها الآن لانك في الوقوف عليها تراها كأنها مصبرة بحنوط من الرماد وترى كيف كانت مساكن الناس منذ تسعة عشر قرناً وكيف كانت شؤونهم في العيشة من النظر الى حجر منامتهم واندية اجتماعاتهم واسواق تجارتهم ومساكن عبيدهم ومعابدهم وهيئة طرقهم وما على حيطانهم من الدهان والرسوم والصور وما في بيوتهم من الآلات والادوات والاصنام المعبودة والترافيم الالهية الى غير ذلك مما يجعلك كأنك تحادث امماً ذهبت وتطارح رمماً طوت عليها الايام — لذة لم يذقها ولن يذوقها من يمّ باريس ودار حول عرفات العمران الحالي

بومبي

ان بومبي وهركولانيوم والكلام الآن عن بومبي لانها الاهم وهي الواقع فيها التنقيب الآن واقعة على بعد اربعة اميالٍ من فزوف الجبل الناري وكان البحر قبل دفنها كما قالوا يلثم اذيالها من جهتيها الغربية والشمالية وهي في صحنٍ منفرج بين جبال غير شامخة منهنَّ فزوف

خرجت من الفندق غلساً وسرتُ بصحبة دليلٍ خبير الى محطة سكة الحديد فركبتُ القطار غير المستعجل الذي وقف بمحطات كثيرة قبل الوصول الى محطة بومبي فتيسر لي اثناء المسير ان اعرف شيئاً يهمني معرفتهُ عن اجتهاد الايطاليان في تعلم الصنائع وذلك اني رأيت جميع ادوات السكة التي جلبت عند انشائها من انكلترا صاروا يعملونها اليوم في معاملهم واستغنوا عن جلبها من الخارج ذلك ما دلني على نهوض هذه الامة من الخمول والحطة وعن قيامها بما يفرضهُ عليها الاستقلال الذاتي من السعي وراء ما يغنيها عن الغير . ولما بلغتُ محطة بومبي سرت والدليل توّاً الى مكتب اداء رسم

الدخول ومن ثمَّ مشينا في ممرٍ غرست على جانبيهِ اشجار تظلل المارَّة حتى انتهينا الى عين مدخل بومبي القديم الذي قيل كان البحر بلطمهُ وانحسر عنهُ بانهيال الرماد عليهِ يوم الثوران فهذا المدخل صار نقبهُ واكتشافهُ في عهد الملك فكتور عمانوئيل والد الملك الحالي فوجدتهُ دهليزًا معقودًا مبلطًا ببلاط ضخم لا زال عليهِ اثر العجلات القديمة ورأيت على يمينهِ بابًا ولجت فيهِ الى بيت جعلوهُ اليوم معرضًا للآثار التي وجدت في هذه المدينة تحت الردوم في اوائل النقب فشاهدت فيهِ هياكل انسانية مكسوة على الاوضاع التي وُجدت فيها بمعجون مركب كي تشبه بهِ حالة اجسام محنطة وهياكل بهيمية بلا كسوة كالفرس والكلب والهر والطيور الداجنة بالحالة التي وُجدت عليها وكان اوقع في العين والنفس لو تركوا الانسانية ايضًا بلا كسوة لاني لما رأيت بعد دخولي الى خرائب المدينة هيكلاً انسانيًا طريحًا على الثرى معفرًا وعلى الوضع الذي كان عليهِ يوم هلاك قلت للخفير الذي صحبني من طرف الحكومة وكنت قد تأثرت من المنظر اما كان اولى بكم لو تركتم جميع الرمم الانسانية على الحالة التي وُجدت فيها كما تركتم هذه الرمَّة ولم تلبسوها ثوبًا مستعارًا ؟ فقال لقد اصبت لان ادارة الحفر قررت ان كلما يظهر من الآن فصاعدًا يبقى على وضعهِ وفي المكان الذي وجد فيهِ بلا ادنى مسيس او تكييف

المواد التي وجدت فيها

ورأيت في البيت على دكك وطبلات متناسقة جميع انواع اثاث البيوت وآنية المطبخ من خلاقين وحلات معكوفة الشفاه واسعة الاسفل ومغارف وملاعق خشبية ومعدنية ومقالٍ ومصبعات وسكاكين وملاقط واقفال وبَكَر ومسامير واسافين وصناديق محددة علاها الصدأ او كاد يفنيها واوعية للزيت وبواطي للخمر نحاسًا وخزفًا وحديدًا واشياء غيرها الأ

الفرش والوسائد والحشايا لانهنَّ من الفانيات سريعاً ونظرتُ ان كثيراً من هذه الادوات والآنية تشابه ما اعرفهُ من الادوات المستعملة حتى يومنا هذا في الشرق مشابهة تامة ثم خرجت من هذا البيت وبدأت في الطواف بين بيوتها وقصورها وهياكلها ومنتدياتها التي أُزيحت عنها تلال الرماد وكشف عنها الغطاء الكثيف

حسن موقعها ومناخها

ولا خفاء ان بومبي كانت مدينة عامرة انيقة يسكنها علية الرومان ويؤمها كبراؤهم على مدار فصول السنة استنشاقاً لهوائها البليل واستشفاء بمائها النمير لاعتقادهم انها وما جاورها من المصائف والقصبات احسن مناخاً واطيب هواء من سائر المدن الجنوبية فلهذا استجمعت على ما دلت الآثار كل صنوف الملاهي الرومانية واباحت ما تأباهُ الاعصر الحالية من انواع التهتك وضروب المجون ففي يوم من ايام السنة التاسعة والسبعين للميلاد اطبقت بغتة عليها وعلى جارتها هركولانيوم وعلى قصبات عديدة حولها سحاب رمادٍ كثيف وظلمة من سيلهِ المتون اضاعت على الاهالي طريق النجاة ذلك ان الجبل الناري فزوف ثار ثوراناً خارقاً للعادة وامطرها وامطر الجوار الى مسافات بعيدة ثلاثة ايام بلياليها دون انقطاع سيلاً هطالاً من الرماد دفن المدينتين وما حوتا وارجع البحر بما القاهُ من الرماد على ساحلهِ مسافة اميال عن بومبي وكنتُ قرأتُ اذ كنت يافعاً رواية لكاتب من الانكليز سماها "آخر ايام بومبي" اورد فيها حكاية خادمة وُلدت عمياء فلما نزلت النازلة واظلمت الدنيا بعيون الاهالي وضلوا عن طريق النجاة قادت هذه العمياء بوليّها لان الظلمة لم تخفِ عنها طريقاً ألفت طروقها وهي عمياء كل حياتها ونجت واياهُ من التهلكة وما برحتُ الى اليوم اتذكرها واتوق الى رؤية مكانها حتى رأيتهُ

المطاف فيما كشف من المدينة

لما خرجتُ من بيت الآثار كما ذكرتُ استمتُ طريقاً لا تحسب بعرف ايامنا وسيعة لان الاقدمين كما علمتُ لم يألفوا العرض في الطرقات فوجدتها مبلطة ببلاط كبير وسميك غير مربوع الزوايا على قول ساداتنا البنائين يشبه في شكلهِ ووضعهِ ما يُرى حتى الآن فيما بقي من بقايا الطرقات الرومانية في بعض انحاء سورية ورأيتُ عليهِ اثر العجلات لكن دون ان يكون في الطريق مجال لمرور مركبتين تتعارضان ولهذا يُظن ان طرقاتها لم تكن لمرور مركبات الركوب بل لمرور عجلات النقل وربما مرور هذه ايضاً كان لهُ نظام مخصوص يمنع من وقوع تعارضها

فدخلت اول بيتٍ ازيح الغطاء عنهُ ايام الملك السابق فوجدتهُ بيتاً سفلياً وفي وسطهِ فسحة مربعة سماوية وحولها اروقة تظلل ابواب حجرٍ على دائرها فمن الحجر ما هو متوسط الحجم ومنها ما هو صغيرهُ ليس لكبيرها ولا لصغيرها كوة او نافذة غير الباب كأنهم كانوا يستغنون عنها بالنور الداخل بالابواب من الفسحة السماوية لكن لا يعلم كيف كانوا يستغنون عن دخول الهواء الى الحجر

محتويات بيوتها

ورأيت الحجر مفروشة بالفسيفساء التي يسمونها موزايك لكنها دون الفسيفساء المعروفة في الشرق في الدقة والتزويق والكلفة اذ ليست هذه غير كسير حجارة مربعة الشكل سوداء وبيضاء مصفوفة صفاً بسيطاً. ثم دخلتُ الى بيت آخر فوجدتهُ يقاربهُ شكلاً ويخالفهُ تزويقاً والى ثالثٍ فكان كسابقيهِ او يزيد بوجود اركانٍ منصوب عليها تماثيل وترافيم من المرمر او من المعدن ثم الى الرابع والخامس والسادس الخ وكلها بيوت سفلية يتوسطها فسحات سماوية في وسطها احواض من الرخام وانصاب للتماثيل والاصنام وعلى دوائرها

اروقة او مماشٍ مسقوفة يُدخل منها الى المخادع والحجر الخالية من الكوى والملونة الحيطان والمنقوشة بالرسوم والتصاوير التي يستهجنها الادب وينبو عنها طرف الحشمة وقد يوجد فيها تصاوير وقائع ميثولوجية كلها وقد مرَّ عليها ما يربو على ثمانية عشر قرناً دفينةً تحت الثرى زاهية الالوان واضحة الرسم كأنها خرجت اليوم من يدي المصور والنقاش

عدم وجود طبقات علوية

ان في ايام الملك الحالي لقد صار اكتشاف ما يقارب ربع المدينة فظهرت في ايامهِ السرايات الكبيرة والقصور المنيفة والهياكل والمراسح الواسعة والجنائن ما عدا اغراسها ومنتديات التجارة فتبين مما ظهر ان بيوتها وقصورها كانت سفلية خالية من الطوابق العلوية بدليل عدم وجود السلالم فيها غير سلم واحدةٍ بين حائطين وسلم صغيرة في احد بيوت البغايا ولعل خلو بناياتها من الطبقات جعل طرقاتها على ما هي عليهِ من الضيق ملعباً للهواء ومضاءةً بنور الشمس شأن سائر المدن القديمة

وقد ظهر في النقب الاخير اسواق للبيع والشراء ومحل اجتماع للتجار وحارة مخصوصة بالعبيد بيوتها ذات مخدع او مخدعين صغيرين وافران مستكملة اللوازم وفيها المطاحن والمعاجن ووُجد في بعضها خبز اوشك يكون متحجراً وشيء من الحبوب وقليل من بيض الدجاج ورأيت زمرةً من الفعلة ما برحوا ينقبون الاطلال بالتتابع والسر ومن الصدفة انهم كشفوا امامي جانباً من دارٍ يُستدل بما وجد فيها من الآثار النفيسة والنقوش البديعة انها كانت لاحد الاكابر وهناك قال لي ناظر الحفر انهم لم يكشفوا لحد الآن من بومبي سوى جزء منها وان مبلغ ما اظهروهُ منها لغاية اليوم لا يزيد عن الف محل بين بيتٍ وقصرٍ وهيكل ومنتدى. وقد رأيت من اعتناء الحكومة بالمحافظة على كل محل يظهر فيهِ براعة او نكتة في نقوشهِ وتصاويرهِ ان تبادر

مسرعةً الى تظليلهِ وسقفهِ بالقرميد وقايةً لها من التعرض للشمس والمطر وهناك رأيتُ ولمست الرماد الذي طمر المدينة فوجدتهُ باللون رماداً مبيضاً وبالثقل خفيفاً كأن مرور الزمان وتطاول الايام عليه منشوراً مفروشاً اضاعا ثقلهُ بالامتصاص او كأنهُ كان عند انهيالهِ هباءً خفيفاً ثم صعدتُ من الحد الذي وصل اليهِ الحفر الى ظهور تلول الردم لاشرف منهنَّ على ما انكشف من بومبي فرأيت كأني انظر الى مدينة بيوتها بلا سقوف وجدرانها بلا كوى واسواقها بلا طارق او نافخ نار فاستغربت المنظر وذهلتُ عمَّا حولي من جمال موقعها الطبيعي ولم انتبه الاَّ وسائح كنت رأيتهُ في الفندق يقول لي "اراك مفكرًا ومكتئباً لرزء هذه المدينة واندفانها تحت الارض وانت لو فطنتَ لوجدتَ مدناً كثيرة قائمات فوقها الآن هنَّ اولى بحزنك لا بل بدمعك عليهنَّ منها". ثم نزلت عن التلال وانصرفتُ عن هذه المناظر المهيجة الاشجان الى مطعم مائجٍ على كثبٍ من الاطلال تناولتُ فيهِ غذاءً كان احسن اطعمتهِ المعكرون المشهورة نابولي بحسن طباختهِ وباسلوب تناولهِ لاني وضعت في فمي حبلهُ البالغ نحو ربع ميل طولاً حتى جئت على آخرهِ دون انقطاع وبعد ذلك ركبتُ القطار المستعجل الى نابولي فوصلتها بمدة ربع ساعة وكنت قطعت هذه المسافة في غير المستعجل ذهاباً بساعةٍ وربع

بيت عاديات نابولي

في التاسع والعشرين من حزيران قصدت صباحاً بيت عاديات نابولي الذائع الصيت بما احتواهُ من آثار الرومان واليونان الاصلية وليس صورها الموجود كثير منها في بيوت اوربا فدخلتهُ بعد اداء الرسم وطفقت اجول في قاعاتهِ العديدة فنظرتُ في الاروقة المختصة بالآثار المستخرجة من بومبي ما لا يُعد من التماثيل والصور والآنية والادوت ورأيت بينها تمثال الامبراطور اسكندر سافرس وقطعة من الفسيفساء الدقيقة التي لم ارَ من

نوعها لحد الآن في جميع المتاحف يبلغ طولها ست اذرع بعرض اربعة تمثل واقعة اربيلا الشهيرة بين الاسكندر وداريوس تمثيلاً يستحيل على قلم المصور ان يأتي باحسن منهُ (هذه القطعة وُجدت في بيت من بيوت بومبي قرأت على عتبة بابهِ كتابة لا تينية بالفسيفساء "مرحباً بالقادمين") يُرى فيها الاسكندر هاجماً وحولهُ اعوانهُ على امنع مكان كان لداريوس في تلك المعمعة ورأيت قطعاً صغيرة من نوع هذه الفسيفساء موضوعة ضمن اطارات احتفاظاً بها وعند انتقالي الى القاعات الاخرى رأيت ما يضيق صدري عن تعدادهِ ووصفهِ من تماثيل كاملة وتماثيل نصفية وتماثيل راكبة وحيوانات ميثولوجية وتماثيل ظبيات القاع وعرائس الخيف المعبر عنها بلسان الفرنجة ميوزس وممفس وشاهدتُ الصنم المسمى اطلس بصورة رجل كهلٍ يحمل على منكبيهِ الكرة الارضية وكاد يرزح من ثقلها قد رُسمت عليها مواقع البحار بصورة الاشجار ورأيت تمثالاً نصفياً من المرمر للشاعر الشهير اومرس الضرير ومثلهُ للفيلسوف سقراط وآخر بالقطع الكامل لشيشرون الخطيب الروماني وتمثالاً نصفياً للخطيب ديموستين خصيم الملك فيليب والد الاسكندر وعدداً كبيراً من تماثيل قدماء اليونان والرومان مما لا يسعني الوقت الى التملي من رؤيتها فضلاً عن وصفها حتى امسيتُ افضلُ هذا البيت بما احتواهُ على متاحف اللوفر في باريس والبرتش ميوزوم في لندن وعلى الفاتيكان نفسهِ على جلالة قدرهِ وشهرتهِ وذلك لاحتوائهِ على كثيرٍ من الآثار الاصلية لا صورها وعلى كثير لم يكن لها من صورٍ في هاتيك المتاحف اصالةً على ان الفضل في جميع هذه الاثارات في متحف نابولي انما كان لملوكها النازلين من عائلة البربون الذين تولوا عرشها زمناً مديداً وكان اكثرهم مولعاً بالآثار حين لم يكن لغيرهم شغف بجمعها

قاعات التصاوير

وبعد ظهيرة النهار جئت هذا البيت ثانيةً لرؤية قاعات التصاوير فلم

اجد فيها شيئاً يساوي ما رأيتهُ في المتاحف التي زرتها لا بل رأيت تصاويرها تنحط عنهنَّ انحطاطاً محسوساً

المسكوكات

ثم دخلت الى الايوانات المختصة بالنقود والمسكوكات القديمة والحديثة فوجدت بين النقود ما يتجاوز تاريخ ضربهِ الثلاثة آلاف سنة اكثرها نحاس واقلها ذهب وفضة واقل من القليل حديد وعاج وقد كنت رأيت مثل هذه المصمودات في كل المتاحف الاوربية وذهلتُ عن ذكرها كما ذهلتُ عن ذكر ساعة رأيتها في حديقة المالة في رومة تدور على الماء وهي على غايةٍ من الضبط والبساطة

كلام عن نابولي

وفي غاية شهر حزيران عزمت على السفر فلاح لي قبل الخروج من نابولي ان اصف بالاختصار ما تيسر لي ادراكهُ عن هذه المدينة وسكانها فهي اكبر مدينة في ايطاليا وثاني مدينة بعد رومة تتباهى بقدمها يسكنها الآن ما يزيد عن ستماية الف نفس اسواقها وبيوتها القديمة ضيقة حرجة وفي غاية من الوساخة والقذارة خلافاً للحديثة والبناء والتخطيط البالغة فيها مبلغ احسن العواصم من حيث الاتساع والاستقامة والنظافة حدائقها حسنة ومتقنة لكن معاهدها العلمية والصناعية اقل مما في امثالها معاملها ومصانعها اخذت بالتقدم مع تقدم البلاد بعد اتحادها تحت سلطة عائلة صفوى الملكية لكنها ما انفكت بين مدن ايطاليا مركز الفقر الاسود ففيها من المتسولين الكسالى افواج واصناف منهم من ينام على عرض الطرقات سحابة النهار وسواد الليل ومنهم العازفون على الاوتار ازواجاً ووحداناً اجواقاً لا تُعد

لهجات نابولي وايطاليا

على اني ما جلست مرة على مائدة الطعام او على كرسي في محل عمومي الأ وكانت اجواقهم تختلف اليَّ قبل ان يختلف الى اذني نغم المغني

لكنهم خفاف الوطأة ينصرفون لاقل اشارة يتكلمون بلغةٍ اصطلاحية سمعت من لهجاتها في اهم مدن ايطاليا فالغريب عن المدينة ولو كان من نفس مقاطعتها ربما لا يفهم ما يقولونهُ لكن المتعلمين منهم يكلمونك باللغة الصحيحة ويكلمون مواطنيهم بلهجتهم المصطلحة وكثيرًا ما اتخذتهم تراجمة بيني وبينهم لكنهم يقرأون الجرائد والكتب الفصحى ويفهمونها وقد لمتُ غير مرة رجلاً من افاضلهم على تهاملهم في امر اللغة وتراخيهم عن توحيد لهجتها في البلاد فاجاب كما اجابني غيرهُ في مدينة فيرنسه ان اللهجة واللكنة واللحن اذا اعتادها الناطقون وتوارثوها زمنًا طويلاً كما هو الواقع في ايطاليا وفي كثير من الممالك لا يعود من السهل ردهم الى الصواب قبل مرور جيلين او ثلاثة اجيال مهما اعتنت المدارس وان ذلك هو السبب الاصلي في تكييف اللغات وتولدها من بعضها وضياع اصلها

اعتناء الحكومة بالاصلاح

وقال ان الحكومة قد فطنت لهذا الامر منذ عهد قريب وقررت في بنود التعليم الالزامي الفرض على الاساتذة ان يقوّموا لهجات التلامذة لكن حاجة الحكومة للمال منع من ان تدأب على متابعة هذا الاصلاح كما منعها عن رأب صدوع كثيرة في المملكة وذلك لان الخطوة الواسعة التي خطتها خلال الثلاثين سنة الاخيرة في سبيل اعلاء شأن ايطاليا وتمكين وحدتها اورثها العي وكانت لا تُحسب مقصرة لو خطتها بقرن كامل فهي والحالة هذه كرجل صعد راكضًا الى جبل عالٍ ثم وقف يلهث

نساء نابولي

اما نساؤها فقليلات التبرج والبهرجة ويندر العاقر بينهنَّ ولقد يُستغرب كثرة الخصب فيهنَّ لانهُ يوجد تسعة حوامل في كل مئة امرأة متزوجة من سكانها كأن الخصب متعلق كما زعموا بحرارة الاقليم وقربهِ من جبل

النار ولولا ذلك لما ملأت الخافقين بالمهاجرين منها وظلت غاصة بسكانها ولا غريب بينهم ولقد يتعجب السائح من تناهي رعاع شعبها في الخبائث والرذائل والافك فلم ارَ في اسفاري قوماً لا يعرفون الحياء مثلهم او مثلهم يبيعون النخوة والمروءة بفلس على ان بينهم وبين من هم في طبقتهم في سائر مدن ايطاليا بوناً بعيداً حتى لتُحسب اوغاد رومه اهل صلاح بالنسبة اليهم

اعيان نابولي

ولقد سمعت ممن يثق بقولهم ان اصحاب الحسب والنسب من سكان المدينة صاروا الى درجة العسر التام لتقاعدهم عن امتهان الحرف حتى حرفة الانخراط في اسلاك العسكرية التي هي مدار غنى وافتخار جميع المدن الاوربية والسبب في اجتنابهم الحرف انما كان عن عجرفة وانفة طالما اضرت قدماً باصحاب الوجاهة واما اباءتهم الاسلاك العسكرية كان لتعصبهم للعائلة المالكة المبعدة عن عرش نابولي في اوائل النصف الاخير من هذا القرن على انهُ لم يبقَ لهم من مكانة الاعيان سوى اللقب والشعار وان الفئة العاملة النشيطة لهي صاحبة الوقت والنافذة الكلمة في كل مسألة تعرض في المدينة

متحف سن مرتين

وبعد ظهيرة النهار قصدت متحف سن مرتين الحاوي على قولهم قطعاً من التصاوير العزيزة المثال لجثتهُ ولئن كنتُ مللتُ من رؤية امثاله كما لا يبقى في قوس العلم بالشيء منزع فوجدتهُ كما وجدت غيرهُ مغنى بالتصاوير المليحة لكن كثرة مرور امثالها على نظري زهدتني بها وجعلتني بان لا اراها تضارع ما في غيرها من المتاحف

كنيسة قريبة من الفندق

ثم خرجتُ منهُ مودعاً المتاحف وبيوت عاديات اوربا الغربية وجئتُ الى احدى الكنائس القريبة والواقعة على شمال فندق جنف فرأيت على

مذبح من مذابحها صورة العذراء الطاهرة حاملةً يسوع وعلى رأسها برنيطة نابوليتانية ذات رفرف فلم اتمالك من التبسم كما لم اتمالكهُ كل مرةٍ رأيت في كنائس المغرب صور اولياء وقديسي الكنيسة الفلسطانية القديمة في الزي الافرنجي

تلامذة المدارس الاكليريكية

وفي عصارى النهار بينما كنت جالساً على باب الفندق وهو واقع في منتصف المدينة مرَّ امامي افواج من الشبان لا ينقص عمر الواحد منهم عن اثنتي عشرة سنة ولا يزيد عن العشرين لابسين جميعهم حللاً وقبعات سوداء شكلاً واحداً متزيين بزي الرهبنة اليسوعية فسألتُ ومن هم قيل انهم تلامذة المدارس الاكليريكية العليا فقلت وكيف أُجيز لهم هذا اللباس وهم ليسوا من الطغمة قيل انهم يصطبغون بصبغتها حتى يوم الامتحان فمن اراد منهم يومئذٍ اللحاق باليسوعية كان لهُ ذلك ومن لم يشأ ضرب بالحلة السوداء عرض الحائط لكن لا يسلم عرضهُ من عار الجحود فسألتُ وما عساهُ يكون عددهم لاني رأيتهم كثيرين قالوا يبلغون في نابولي وحدها نيفاً وعشرة آلاف

نفوذ الاكليروس

فقلتُ وما الذي حبب للاهالي وضع اولادهم في هذه المدارس قالوا ان الحرفة الاكليريكية اصبحت بهذه الايام اغزر الحرف كسباً وانفذها كلمة واهنأها عيشاً وان معظم طالبيها هم الاعيان والاغنياء اسعاداً لبنيهم او ضناً بحطامهم ان يُقسم بعدهم على ورثتهم اقساماً صغيرة وتذرعاً الى توليتهم خططاً مرفوعة الجناب لدى الملة فقلت وهل بلغ من مكانة الاكليروس في هذه البلاد المتهمة بالمروق من الدين ان تزدحم الناس على ابوابها قالوا نعم اما بلغك ما وصلت اليهِ مؤخراً من العز والسطوة في ايطاليا بفضل تخاذل احزاب الحكومة وعدم اتباعها خطةً تبقي ما كان لها من السطوة ايام الملك

فيكتور عمانوئيل ايام كادت بسطوتها تمحي كل اثر للصولة الاكليريكية باستيلائها على كثير من املاكها واقطاعاتها كما فعلت مرة فيما سلف الثورة الفرنساوية لكن تغير الحال الآن ورجعت المواكب السوداء والزياحات البيضاء تزحم الشوارع وتوقف المارّة واصحاب الشغل كما عادت الى بيوت اهاليها تلك الاشباح فقلت لمخاطبي وما عهدي بالطغمة غير الفضل ومؤاساة الضعيف فكيف تقول عنها ما لا يصدّقهُ الواقع والتاريخ فقال اما انا فمارق من الدين ومنكر على خَدمتهِ وايثهِ الاخلاص فيهِ فلحظت اذ ذاك ان مكالمي من فئة العدلية (الذين عدلوا عن كل المذاهب) فامسكت عن الكلام واقتصرتُ على السؤال منهُ عن عدد المعاهد الدينية الموجودة في المدينة فقال اما الكنائس فعددها يتجاوز المئتين والخمسين وربما الاديار والصوامع تبلغ السبعين عدًّا فاستعظمت العدد واستصغرت التقوى

السفر الى الاستانة

ولما اصبح اليوم الاول من شهر تموز جمعت متاعي وركبت الى شاطىء البحر محفوفًا بزمرةٍ من الشحاذين العازفين على الاوتار والمغنين وكنت كلما صرفت جوقًا منهم احاط بي آخر او كلما مضى علمٌ منها بدا علم حتى وصلتُ الى صندلٍ على الشاطىء حسبتهُ حصنًا يقي جيبي من غاراتهم ولما بلغت الباخرة كاليدونيان الفرنساوية المسافرة الى الاستانة لقيت باربعة اجواق من هؤلاء العازفين المغنين بانغام وتلاحين هي غاية في التوقيع والرخامة ثم وجدت اصحابًا من اهالي بيروت انست برؤيتهم ولم يكن حتى اقلعت بنا في الساعة الواحدة بعد الظهر وكانت الريح تتراوح بين الشدة والرخا فاورثت اكثر الركاب دوارًا الى صباح اليوم التالي ففي ضحاهُ مررنا برأس مِليَه ولدى قربنا منهُ صفرت الباخرة صفيرًا قويًا فسألت عن السبب قيل انها تحيي ناسكًا منقطعًا في ذلك الرأس المقفر وتسألهُ بصفيرها اذا كان محتاجًا الى طعام او غيرهِ فلم يجب النداء ولم يخرج من كهفهِ لنراهُ

اتينا واسكلتها

وفي مساء النهار اشرفنا على انجاد اتينا حتى اذا وصلنا الى البيره اسكلتها نزلت اليها والشمس على وشك المغيب فقنعتُ على كره برؤيتها عن بعدٍ مستعيناً بنظارة بعيدة المرمى لاح لي فيها بقايا آثار اكربوليس الشهير بشكل يشابه ما رأيتهُ من آثار بعلبك الاَّ ان الاخيرة تفوق اليونانية علوّاً واتساعاً وفخامةً وقد اعجبني جدًّا من ثغر البيره على حداثة عمرانهِ عرض الشوارع واستقامتها والساحات الفسيحة والحدائق المنظمة المكتظة بالاشجار البواسق والازهار اليانعة فهو من هذا القبيل اشبه الثغور بمدينة بورسعيد وعليهِ كل هيئة المدن المتوثبة الى التقدم غير انهُ اتفق لي امر فيها جعلني ان ارمي اهلها اذا لم يكن كلهم فبعضهم بمعايب الغش والغدر وذلك اني لما اسرعتُ بالعودة الى الباخرة وكانت على اهبة الاقلاع عن الثغر اعطيت ذهباً لصاحب الفلك كيما يخصم الاجرة ويعطيني ما يبقى فراح بحجة ان يصرفهُ ثم جاء بعد ان ابطأ ووضع في كفي دراهم لم استطع نقدها ولا عدها لحيلولة الظلام وتسرعي الى اللحاق بالباخرة فوجدتها اي الدراهم بعد وصولي اليها زائفة لا تساوي غير قيمتها رصاصاً

الاستانة

ثم اقلعت السفينة فوصلنا الى محجر كلازمون بعد ظهيرة النهار التالي فرست بنا في عرض البحر وتبادلت والمحجر الشحن والتفريغ دون ان تمس الارض والناس ثم اقلعت فوصلنا الى موقع مررنا فيهِ بين قارتي اسيا واوربا الى ان بلغنا شنق قلعة ومنهُ الى ثغر غاليبولي حيث دخلنا منهُ الى بحر مرمرا والشمس في الطفل فجدَّت الباخرة في سيرها آملة الوصول الى القسطنطينة قبل المغيب فلم تستطع ذلك بل بتنا فيها وهي لصيق الرصيف الى النهار التالي الواقع في الخامس من تموز فخرجت منها ونزلت في فندق كونتيننتال في البرا (بك اوغلي) فلبثت ريثما غيرت قميصي

عمود آخر قيصر

ثم سرت والدليل اتفقد الآثار والمعاهد فصادف ان رأيت العمود الذي انشأهُ اخر قياصرة القسطنطنية اول اثر نظرتهُ فيها ولولا انهُ آخر اثر لقياصرتها لما كان بالشيء المستحق الرؤية لخلوهِ من الظرف والهندام والمتانة لكن يستحب النظر اليهِ لمعرفة ما صارت اليهِ صناعة البناء من الانحطاط في اخريات ايامهم فرأيتهُ مصدوع القمة مفطور الجذع بسبب حريق حدث مرة في جوارهِ

اضرحة السلاطين

ومنهُ رحت لزيارة ساكني الجنان السلطان محمود والسلطان عبد العزيز فرأيتهما في حجرة جُمعت فيها اجداث بعض اعضاء العائلة المالكة يتدلى في وسطها ثرية كبيرة من البلور الصافي مهداة من ملكة انكلترا وعلى جانبي باب الحجرة ساعتين ذهبيتين هدية من الامبراطورة اوجيني زوجة نابوليون الثالث اهدتهما على اثر زيارتها العاصمة سنة ١٨٦٩

المسلة المصرية

ثم سرت من هذا المزار الى ات ميدان لمشاهدة المسلة المصرية التي جلبها الامبراطور ثيودوسيوس من مصر فوجدتها اصغر حجماً من اخواتها الموجودة في باريس ولندن ورومة

الحية النحاسية

ورأيت في قربها الحية النحاسية التي يُرى انها كانت حيتين متعانقتين مرتفعتين الى علو شاهق لكن لم يبقَ من طولها سوى ما يساوي اربع اذرع

معرض التماثيل الشمعية

ثم اتيت في نفس المحلة الى معرض التماثيل الشمعية الذي انشئ حديثاً بفضل مولانا السلطان عبد الحميد المالك سعيداً وهو يحوي اشباحاً تمثل جميع

ازياء وهيئات واسلحة الدولة العلية فيما سلف فرأيت فيهِ اشباه رجال الرتبة العلمية من شيخ الاسلام الى ادنى رتبة فيها والملكية من الصدر الاعظم الى ادنى مأمور والقلمية من رتبة بالا الى آخر موظف والسيفية والعسكرية ثم اشباه وجاقات الانكشارية حتى حلتهم المحمولة والطباخين وسقاة القهوة وشاهدت على جميع تماثيلهم اشكال التغيرات التي طرأت على ملبوساتهم منذ الفتح عصرًا فعصرًا الى ايام السلطان سليم من عمم مختلفة الاشكال فيها الطويل الهائل والمقصب المائل والقبعات المستعرضة الطويلة والمفرطحة المعكوفة والقلنسوات المتدلية الملتوية والسراويل المرسلة او المشمرة والاطمار القصيرة والطويلة الى غير ذلك من مختلف كساء الرأس والبدن وما كانت عليهِ ازياء العساكر قبل تنظيمها وبعده وما صارت اليهِ في العهد القريب ورأيت جميعها من شبه الصدر الاعظم واشباه عظماء الدولة شاكية الخناجر في مناطقها كما كانوا يتقلدونها على الدوام في ايامهم فاستحسنت جدًّا هذا المعرض وفضلت مشهده على ما في باريس ولندن من نوعهِ لان هذا يحوي على ما يهمنا معرفتهُ عن هيئات وازياء السلف

جامع السلطان احمد

ثم سرت الى زيارة جامع السلطان احمد فوجدتهُ مشيدًا على الشكل البزنطي الاكمل مشعًا مستجمعًا كل شرائط الهندسة والجمال والزينة قبتهُ عالية وعضائده ثخينة مكسوة بالمرمر كما اكتسى داخله من القبة حتى الحضيض بالخزف الصيني البديع الصنع ساطعًا بضوء النهار لا تشوبه ظلمة ومنهُ رحت لمشاهدة اثر قديم في جوارهِ وفي نفس المحلة نزلت اليهِ على ضوء المشعل في سلم ذات اربع عشرة درجة فرأيت قبوًا يبلغ مربعهُ على ما اظن خمسماية ذراع قائمًا على اعمدة من الحجر المحبب لها تيجان منقوشة نقشًا متقنًا يغمر الماء حضيضهُ لم افقه قصد الاقدمين من بنائهِ تحت الارض

جامع ايا صوفيا

ثم سرت منهُ لزيارة جامع ايا صوفيا المشيد في القرن السابع للميلاد فدخلت اليهِ من باب قبلي ثم مررت في رواق قائم على اعمدة من البوفير (السماق) توشى سقفهُ وجدرانهُ بالفسيفساء يشابه في شكلهِ وهندامهِ رواق كنيسة مار بطرس في رومة مشابهة يُدرك منها ان باني كنيسة رومة نقل اليها رسم هذا الرواق بلا زيادة ولا نقصان ولما دخلتُ الى الجامع من احد ابواب هذا الرواق المسمى نارتيكوس دهشت من بديع هندسة الجامع وتناهي جمالهِ ودقة و براعة التخريم والنقش المزينة بهِ اضلاع القناطر وتيجان الاعمدة والزخرف الذي لا يضاهيهِ زخرف في كل الكنائس التي شاهدتها يحيط جهاتهِ الاربع اربعة وعشرون عموداً من البوفير النقي الغالي الثمن (السماقي) طول كل عمود من الاعمدة ستة امتار بقطر متر او يزيد وعلى رؤوسها اكلّة من ذات معدنها مزينة بنقوش غاية في الحسن والدقة تحمل قناطر يعلوها اعمدة اصغر منها حجماً لا اقل منها ظرفاً وزينة يبلغ عددها الاربعة والعشرين من المرمر الاخضر القليل الوجود يتكوّن من هذه العقود والقناطر والحنيات الواقعة على جهاتهِ الاربع اركان بديعة تحمل القبة العليا العديمة النظير في الاتساع والسمو النسبي والرونق الباهي وهو من القبة الى الحضيض مكسو بالفسيفساء الصفراء اللون وعلى كل من جبهات اقواس القبة الاربع صور اجنحة الكروبيم الصاعدة والنازلة باللون الازرق ورأيت المحراب في الحنية منهُ وعليهِ آية المحراب ولما انتهيت من زيارة هذا الجامع المحسوب الجوهرة اليتيمة التي وصلت لايامنا سالمة من عوادي الزمن خرجت من بابهِ الغربي الى الرواق الذي دخلت منهُ وجئت انظر ما حولهُ فوجدتهُ محفوفاً باربع منارات شاهقات على ان كل ناظر الى هذا الجامع لا يتمالك عن الحكم بتفوق الهندسة البزنطية على الغوطية ولا من العجب من

مكابرة اهل الغرب الى يومنا هذا في الاصرار على اتباع الهندسة الغوطية او ما يقاربها في بناء معابدها ولولا تقارب هندسة كنيستي مار بطرس في رومة والدومو في ميلانو الى بعض وجوه الشكل البزنطي لكانتا كسائر كنائس الغرب معتمات مظلمات

زيارة البطريرك المسكوني

ثم رجعت الى الفندق ولم اخرج الأَّ في صباح السادس من تموز فرحت والدليل اسأل عن محلات المعارف والاصحاب فكان الشاب الاديب الياس افندي طراد اول من حظوت بهِ في هذه العاصمة فانست بهِ كثيرًا ثم ركبت واياهُ والدليل الى حارة الفنار لزيارة غبطة البطريرك المسكوني قسطنطين الرابع فدخلنا عليهِ بعد ان ارسلنا الى قداستهِ ببطاقات اسمائنا فاستقبلنا في غرفةٍ نفيسة الفرش والاثاث بمحيا طلق ووجه باش واجلسنا منهُ مجلسًا مقربًا فرأيتهُ ربع القوام صبيح الوجه وضاحهُ حنطي اللون خالطهُ الشيب كأنهُ في آخر درجات الكهولة انيس المحاضرة يحسن التكلم بالافرنسية

البطريركية الانطاكية

فبعد ان حيانا وتعرَّف بنا واهدانا البركة استطرقنا مضيق الحديث في مسألة البطركية الانطاكية وكانت كما علمتم من شواغلهِ المهمة فلام الآخذين بها واسترسل للقول بان عزل المطران جرمانوس من القايمقامية المنتخب اليها باتفاق الآراء لهو النقطة العظلى الموجبة التحدث بعدم صوابية ما اتمهُ المجمع الانطاكي بعد عزلهِ ثم اردف كلامهُ بقولهِ ان ارثوذكس سورية ليسوا باعراب من البلاد العربية بل هم من ارومة يونانية تعلموا العربية عقيب الفتح الاسلامي لا كما يدعي الآن بعض محازبيهم وقد سماهم لنا اعراب مستعربة فاجبتهُ بلسان المترجم بقولي وهل الانتخاب مهما كان اجماعيًا يعصم المنتخب من العزل اذا تجاوز حد المأمورية المنتخب اليها فقال واي

تجاوز او شطط تعمده' فيما قلت' في تمنعهِ عن انفاذ قرار نفس المجمع الذي انتخبهُ قال أليس القرار الذي كاف الى تنفيذهِ كان مخالفاً لشرط الاستمرار على التعامل القديم الموضوع كقاعدة يدور عليها بحث المجمع دون شذوذ عنها قلت' وهل هذا التعامل القديم ورد بحقهِ نص كتابي او هو عقيدة من العقائد الدينية المستلزم اتباعها مهما تغيرت الظروف والاحوال او هل غاب عن غبطتكم انهُ قد وُجد قبلهُ تعامل اقدم كان يتولى بموجبهِ السدة لانطاكية رجال من ابناء البلاد ومن ابناء اللغة فلو كان في التعامل قوة لاستمرار لكان انتقال التولية منذ مائتي سنة من ايديهم الى ايدي اليونان موجباً للشكوى والاعتراض لمخالفتهِ التعامل الجاري اذ ذاك واما من جهة اصل ارثوذكس سوريا فسواء كان يونانياً او فينيقياً او سورياً وقد ضاعت الانساب ايحظر عليهم الشكوى من قصور اليونان الذين تولوا رياستهم الروحية زمناً طويلاً دون ان يأتوهم بنفع ام يحرَّم عليهم السعي لتولية بطريركاً عليهم من اوطانهم ومن ابناء لغتهم هذا ولا اخالهُ مجهولاً لدى غبطتكم حالة الارتقاء التي وصلت اليهِ جميع الطوائف السورية بفضل واحسان الدولة العلية حتى كادت تكون بالنظر الى ترقيها غير التي كانت منذ ستين سنة فهل يعقل والحالة هذه ان تبقى الطائفة الارثوذكسية المعدودة فيها اكبر الطوائف تحت رحمة اغراب عنها وعن لسانها ممن لا يهمهم غير التربع في دست رياستها الروحية والتنعم في خيرات الكرسي دون ان ينهضوا لها قدماً يسعى مع الطوائف المواطنة الساعية جهدها الى التقدم والارتقاء وهل يليق بحكمتكم السامية وغيرتكم على صوالح ابناء الملة الاحرار ان لا تنفك امامتها الروحية عن عهدة اغراب لا يراعون ذمة البلاد ولا يعرفون لغتها ولا يملكون شيئاً من المعارف والعلوم التي تؤهل وحدها لمنصب الرئاسة ولعل غبطتكم تتذكرون ما وقع بعد وفاة المطوب الذكر ايروثيوس من سعي بعض ابناء الطائفة وبعض اساقفتها في سوريا الترشيح

رجل من ابنائها لهذا المسند الروحي الجليل وذهاب سعيهم خائباً بسبب
قوة الحزب اليوناني المانع اذ ذاك وضعف الحزب الوطني الطالب حتى تم
الانتخاب على المطوب الذكر جراسيموس العارف لغة البلاد الذي ارانا مدة
رئاستهِ القصيرة على الكرسي الانطاكي شيئاً من علو الهمة اقلهُ بالوعد على
انشاء مدرسة اكليريكية في دمشق ولكن يا للاسف لم يفِ الوعد ولم يلبث
حتى طلق عروسهُ الانطاكية وبنى بالاورشليمية دون سبب مشروع فنهضت
عندئذٍ الطائفة كما لا يخفى على علومكم وطلبت ان يكون المنتخب الى
البطريركية رجلاً من ابناء الوطن فتراجعت عندها المساعي ممن لا يهمهم
غير تخليد المنصب في ايدي اليونان كيفما كان لمنع انالة الطائفة ما تبغي وما
طلبت وفازوا بطول مساعيهم وعظيم نفوذهم رغماً عن صراخ الاهالي واجلسوا
على هذا الكرسي القديم المقدس غبطة سبريدون رجلاً اذا لم يكن اميا
فهو خالٍ من كل معرفة وعلم فتبوأ الكرسي سواء مع رجل من وكلاء الدعاوي
يقال لهُ طبلاريوس زمناً لا يُعد قصيراً رأينا فيهِ اشد ما اعتدنا على رؤيتهِ
من اغلاط السالفين فلو اختير للكرسي اذ ذاك رجل مقتدر مستقل غيور
عالم بما يحتاجهُ الكرسي من المهام مقدام عارف لغة البلاد ينسي الطائفة
اساءات سالفيهِ لكان ولا شك وقع التعيين اخف وطأة على الاهالي ولكان
على الارجح ادّى بهم للندم على ما سبق من السعي لتغيير جنس ولغة المتولي
ولكن ما قُدّر كان فالاولى بنزاهتكم وباهر حكمتكم وسامي غيرتكم على الملة
اينما كانت افرادها وفي اي يدٍ كانت ازمتها ان تتفضلوا بمعاودة الصلة
الروحية مع بطريركنا الجديد كيما لا يقال انا لبولس والآخر لابلوس لان
الكنيسة واحدة مهما اختلفت اسباطها ولغاتها خاضعة لرئيس سماوي واحد.
فاجاب ان من احب الاشياء عندي ان اسمع عن تمتع جميع الكنائس
بالراحة والهناء وارتباط اعضائها برباط الحب الصادق والوئام لكن قد يسوءني
ما يبلغني من حين الى حين من اخبار الهرج والتقاطع والتضاغن والتخاصم

الواقع بين اعضاء ابرشيتكم الطرابلسية دون اكثر ابرشيات الكرسي الانطاكي نفسهِ فلو صرف مطرانكم الموصوف بالفضل والتقوى جهدًا في ملافاة هذا الخلل المعيب يساوي نصف ما صرفهُ في المسألة البطريركية كما بلغني لكان اقام بخدمةٍ لرب الكنيسة ولرعيتهِ يُثاب عليها يوم يُسأل كل راعٍ عن رعيتهِ ولكان قدَّم بخورًا ذكي الرائحة امام العرش الالهي وليتهُ علم او يعلم ان التاريخ والناس اجمع لا يثبتون الفضل والحكمة لمن يتصدى للقيام بمشروع كبير او يتجشم ادارة مملكة ويكون مهملاً ومتراخيًا عن ادارة بيتهِ . فالتمستُ اذ ذاك عن نيافة راعينا اعذارًا بكثرة مهامهِ واشغالهِ وافتتان رعيتهِ وتعاقب غيابهِ عن كرسيهِ . قال اجلْ ما لحتُ فيك من الاخلاص والتنكب عن المداهنة ان تلتمس عذرًا لقصورهِ في اهم ما يجب عليهِ بمثل كثرة اشغالهِ وافتتان رعيتهِ وتعاقب اسفارهِ لان الرئيس الفاضل يقدّم الاهم على المهم ولا يُعدّ فاضلاً ما لم يمهد جبالاً من العثرات ويغلب ابليس في قومهِ. ثم انصرفنا نثني على لطفهِ ودعتهِ وبلاغة عبارتهِ وركبنا الفلك البخاري الجائل في الخليج بين مراسيهِ الكثيرة حتى وصلت النزل اشكو التعب والحر الشديد

منتزهات الاستانة

وفي السابع من تموز تعرفت بمن اعرفهم سمعًا لا نظرًا لحقق عندي الخُبر الخبر حتى امسيتُ معجبًا بما هم عليهِ من الشيم الغراء والاخلاق الرضية فذهبت مع بعضهم بعد ظهيرة النهار الى جنينة عثمان بك احدى منتزهات الاستانة في بك اوغلي فوجدتها ذات قسمين الواحد يُغنّى ويعزف فيهِ الحان تركية والآخر افرنجية وكلاهما غاصان بالجلوس فاخترت القسم الاول وكان فيهِ عدد غير قليل من علية الاهالي رجالاً ونساء فطاب لسمعي المغنى وان فاتني المعنى لان الشرقي لا يطرب بغير النغم الشرقي وقد كنت اطرب احيانًا لغناء في بعض مدن ايطاليا واليونان لمحاكاتهِ الحانًا اعتادتها والفتها اذني

وفي الثامن من تموز كان الاحد فصرفت نصفهُ في النزل استقبل الزوار والنصف الآخر في التنقل بين جنائن التقسيم وعثمان بك وحديقة البلدية التي امام النزل فتعجبت لامتلائهنَّ بالمتنزهين لعهدي ان اهالي العواصم الاوربية ومنهم سكان الاسكندرية يأنفون من الجلوس في المتنزهات ويفضلون الجولان فيها جلوساً على المركبات والتفرج على ملابس بعضهم وعلى حلي الخيول وغلاء زينتها ونفيس رياشها

الباب العالي

وفي التاسع من تموز رحت اجول في شوارع الاستانة وبين احيائها حتى انتهيت الى الباب العالي فوجدتهُ قصوراً وسرايات متلاصقة لكل نظارة مستقلة قصر مرفوع الاركان فدخلت اكثر القصور والسرايات واظن الدخول مباحاً ووجدت من انس موظفيها ما يبعث للثناء عليهم

في العاشر من تموز لقيت صديقاً طال تفتيشي عنهُ فوجدتهُ كما عهدتهُ شهماً هماماً لم يبطرهُ المقام السامي الذي وصل اليهِ بين رجال الدولة بل زادهُ انساً ومروءة وتواضعاً واولاني ان اصرف معهُ وقتاً في سراياهُ يعزُّ عليهِ صرفهُ بالنظر لكثرة مهامهِ

مقابلة سائحٍ

وفي الحادي عشر نهضت من الفراش باكرًا لارقِ الفتهُ في الوطن والغربة فاذا على باب الحجرة شيخ جليل كنت عرفتهُ وصادقتهُ في لندن فاستقبلتهُ بالترحاب فبعد ان اجلستهُ واجللت قدومهُ سألتهُ وما اقدمك الى هذه العاصمة وعهدي انك لم تنأَ عن انكلترا قيد باع ولا انت ممن يميل الى الاغتراب ومن اين علمت اني في هذا النزل فقال اما مجيئي الى هنا فللسياحة لاني فطنت بعد سفرك من لندن ان القعود عن التفرج على الدنيا عيٌّ وقصور لا يليق بمن وصل الى عمري واما معرفتي بانك في هذا النزل

فقد كان عن صدفة وجودي في غلطه سراي ورؤيتي عرَضاً على طبلة المأمور تذكرة مرورك فلم املك نفسي عن السؤال منهُ اذا كان يعرف محل نزولك فافادني انك في هذا النزل فجئتك مبكرًا حذرًا من خروجك قبل اجتماعي بك وبعد ان قصَّ عليَّ خطة سفرهِ والمدن التي مرَّ عليها حتى وصل الاستانة سألتهُ وكيف رأيت المدن التي زرتها وكيف وجدت عمرانها واهاليها فقال اما عن العمران البادي للنظر فهو متشابه الظواهر في كل المدن التي امممتها الاَّ في امور طفيفة لا يعتد بها اما عن الاهالي فلم يكن لي من وقت كاف للبحث عن شؤونهم واخلاقهم ولعل المرء يغنى عن البحث في ذلك بما يقرأهُ في صفحات تاريخ الاجتماع الانساني حيث يرى تلك السلسلة المختلفة الحلقات من معدني الفضائل والرذائل فيرى فيها حلقة الصدق مقرونة بالكذب والامانة بالخيانة والقناعة بالطمع والصبر بالجزع والشراسة بالحلم واقتحام الاخطار بالاستسلام للاقدار الى غير ذلك من الاطوار المتناقضة ويرى ان الانسان واحد لا يتغير في كل عصورهِ سواء كان على السهل او على الجبل او كان في البداوة او الحضارة فلا تطمعن باكتشاف شيء جديد فيهِ غير ما رأيت منهُ في قومك ولقد يعجبني ما قالهُ الفيلسوف الفرنساوي "انك اذا شئت ان تعرف العالم فانظر الى اهل بلدك وان شق عليك ذلك فانظر الى اهل بيتك" لان ما تراهُ في اختلاف اطوار واميال اهلك لهو صورة العالم المصغَّرة فلا يغرنك الظن بان سكان اوربا المتمدنة بلغوا منتهى الكمال المرجو من الانسان الناطق او انهم خلوا من شوائب العيوب البشرية لانهم ما داموا ينقسمون الى امم واجناس متحائدة وكل امةٍ لا تعتد الاَّ بذاتها ولا تبحث الاَّ عمَّا ينيلها الفوز على ما سواها فلا امل من تسود الانسانية وتآخي البشر ولا رجاء بالوصول الى يوم تتفرق فيهِ تلك المجاميع الانسانية الى افرادٍ كل فردٍ منهم يحسب نفسهُ انهُ جزء من اجزاء العالم الانساني يؤلمهُ ما يؤلمهم ويؤلمهم ما يؤلمهُ يعيشون تحت ظل شرع واحد

يوصيهِ لهم الكتاب المنزل من لدن رب الانسانية كما انبأ عنهُ السيد المسيح ولكن تلك غاية لا تُنال على ما اظن الاَّ قبيل نهاية العالم او قبيل يوم لا تبقى الارض فيهِ صالحة لسكنى الانسان ثم ودعني ومضى على وعد العودة

بيلربك

فلبثت في المنزل الى ما بعد الظهيرة ثم خرجت منهُ لزيارة صديق مقيم في بيلربك على الشاطئ الاسيوي وكان ذهابي اليهِ برفق صاحب كريم فلما وصلتُ الى ذلك الشاطئ استأنست اني وطئتُ ذيلاً من قارة بلادي وزاد استئناسي لما وصلتُ دار الصديق فاقمت عندهُ ساعة حسبتها لحظة بالنسبة الى كثرة اشواقي اليهِ ثم ركبت ورفيقي صندلاً رفيعاً من الصنادل المألوفة في خليج الاستانة لنرجع فيهِ الى الشاطئ الاوربي فلما توسطنا اللجة كبرت الامواج لهبوب هواء من جانب البحر الاسود فاصبحنا ونحن ركوب في ذلك الصندل الخفيف كريشة في مهب الريح نتوازن بالاَّ يميل الواحد منا يمنة او يسرة وامتنعنا حقيقة عن البصاق والسعال خيفة ان يميل الصندل بالحركة ويلقينا في قاع البحر حتى اذا بلغنا البر فرحتُ بالسلامة كأني راجع من احدى سفرات السندباد ثم ركبنا في الشاطئ الاوربي الباخرة الماخرة الى البسفور بين البرين فلذ لي المنظر البديع الذي لم ارَ مثلهُ في غير بحيرات وجنات سفيسرا فظلت الباخرة تقوم بنا من محطة الى اخرى على شواطئ قرن الذهب كأنها تسير في حوض مستطيل بين رياض نضرة وروابٍ مخضرة النبات والاغراس وبين سرايات وقصور زاهيات يتلو بعضها بعضاً الى ان اشرفنا على افق البحر الاسود لكن لما امست الشمس على اهبة المغيب لم نرد التوغل في الاسود بل رجعنا من حيث اتينا

الاهتمام بالعودة

في الثاني عشر من تموز اصبحت مهتماً بالعودة الى الوطن مع الباخرة الروسية المسافرة بعد غدٍ الى سوريا فطفقت اودع دار السعادة والاقليم

الغربي وهواءه السريع التقلب بين البرد والحر فقد كان منذ حلولي في الاستانة حتى امس صباحاً حر شديد كاد يكون غير محتمل فتغير في ضحاه فجأة فشعرت منذئذٍ الى اليوم كأني في فصل الشتاء السماء غائمة والماء والهواء باردان مما اضطرني الى الثوب السميك انما كان لي منذ يمتها استئناس لم ادرك اقله في عواصم اوربا لاني شممت فيها ريح عوائد ومشارب اوطاني

اخلاق الاتراك

ولقيت فيها من انس الاتراك ما حبب اليَّ اطالة مدة الاقامة فهم قوم يلينون لكل كلام لطيف ولو كانوا في اشد حالات الغيظ يكرمون النزيل والجار ولا يأنفون من تحية الغريب عنهم اذا جمعتهم واياه المجالس يغضون الطرف عن هفوات لا يغض عنها غيرهم من الامم المتمدنة الاَّ اذا كان لها مسيس في الشأن الملي . لشيوخهم نزق الشباب ولشبانهم صبر الشيوخ يتعلم النازل في حماهم خلال الصبر حيث لا نهاية عندهم الى غدٍ وبعد غدٍ لا يُحسبون كسالى ولا نشيطين يطيعون رؤساءهم ويكثرون من التزلف اليهم يحبون المال للبذل لا للادخار لا يعتنون بالصنائع ولا يرقون فيها كثيرو المناداة في الاسواق على سلعهم كما هو الحال في سائر المدن الشرقية يُرى على هيئة اجتماعهم هيئة العيشة البدوية من حيث ان كلاً منهم يقول ويعمل في وجوه المعيشة والمأكل والملبس كأنهُ غير مقيد بقيد يمشي عليهِ خلافاً لما في مدن اوربا حيث يُرى على ظواهر عيشة اهاليها صورة التقيد بشؤون واحكام ربما توارثوها عن ايام سلطة الاعيان في بلادهم كمنعهم السوقة عن ازعاج الآذان بالمناداة او تكدير العين بالازياء المخالفة ما تقرر لبسهُ منها واحتقارهم من يلبس على اهوائهِ او من يكتسي بالقفطان ولو في دارهِ او بالفروة امام زائر ومنعهم من يحمل شيئاً على منكبهِ او ظهرهِ — احكام لا تنطبق قط على مبادىء الحرية الشخصية

اهمال البلدية

فالقصور الذي لحظتهُ في الاستانة انما هو على بلدياتها من حيث اهمالها قواعد النظافة في الاسواق والشوارع واكتفائها برش الماء دون ازاحة الاوساخ فقد رأيتَ مرةً في احدى اسواقها انبوبة تقذف بالماء على غير هدًى كان يلطم مائها الارض ويرتد عنها على سيداتٍ كنَّ وقوفاً امام حانوتٍ حتى جعل مآزرهنَّ باقل من لمح البصر مصبوغاتٍ باقذر انواع السباخ المنشور على الارض

بيت عاديات الاستانة

وفي الثالث عشر من تموز رحتُ منذ صباحهِ اطوف مودعاً اصحابي فمررت ببيت عاديات الاستانة فدخلتهُ كيما اجعل زيارتهُ خاتمة المشاهدات الاثرية فوجدتهُ جامعاً لآثار مهمة واهمها ما وُجد منها في القسم الشرقي من الامبراطورية البائدة وما وُجد من آثار الدول الاسلامية والآثار الفينيقية وآثار ترواده حتى اذا حان اصيل النهار رحت برفق اكثر اصحابي الى جنينة عثمان بك لاتزوَّد من شميم عرارها فلبثنا فيها بين الرياض والوتر الى الهزيع الاول من الليل ثم جئنا الى النزل وتناولنا عشاء الوداع

ولما اصبح الرابع عشر من تموز جمعتُ متاعي وغدوت اترقب حلول وقت سفر الباخرة الروسية لازاروف التي لا تمر قبل وصولها الى طرابلس الأعلى اساكل قليلة اهمها ما سيأتيك ذكرهُ .

لا بدع اذا جاهرت وانا على اهبة السفر من هذه العاصمة بامتناني لرجالٍ تكاملت فيهم شيم اللطف ومناقب الانس اولئك الذين اولوني بصحبتهم جميلاً لا انساهُ ومن طاب لي بهم المقام في دارِ سعدت بظل الله الظليل في عاصمةٍ افرغت عليها الطبيعة اجل ما في مخبئاتها من حلى المحاسن وجواهر الجمال على اني ابارحها الآن وابارح القارة الاوربية باسرها متزوداً

بمعلومات من رأى وسمع وسعى على قدم واستنهض عزيمة واهنة وهمة ساقطة حتى حصلت على نزر قليل من معرفة معاهدها ووقفت على شيء يسير من آثارها العتيقة والجديدة ولقيت من العي والكلال ما لا القاهُ لو زرتها للتمتع واللهو فان وجدت مادحاً مستحسناً كان ذلك فوق مأمولي لاني على بضاعتي المزجاة لستُ بالطامع في وجدانهِ وان وجدتُ منتقداً او لائماً فلستُ بالمنكر عليهِ اللهمَّ اذا عدل وانصف وتذكر اني طرقت طريقاً في الوصف والانتقاد قل مَن طرقهُ مِن رحالة الاعراب

ولما حان وقت السفر نزلتُ الى الباخرة فوجدت فيها عائلة كريمة من دمشق استأنست بصحبتها كثيراً لمحاسن اخلاقها وفي الرابعة بعد الظهر اقلعت بنا من مرفإِ الاستانة وكان البحر رهواً والهواء هادئاً

مدلي

وفي الخامس عشر من تموز وصلت بنا الباخرة الى مدينة مدلي فرأيت على هضبة واقعةٍ في شماليها قلعةً كبيرة متداعية الاطراف بنتها الجمهورية الجناوزلية في القرن الثالث عشر للميلاد مرفوعاً عليها العلم العثماني يبلغ سكان المدينة اثني عشر الف نفس ذات بيوت متفرقة يمتد طولها على ما اظن اكثر من مسافة ميلين ثم اقلعت الباخرة منها فوصلنا في منتصف الليل الى مدينة ساقص حيث ترسو الباخرة في مرساها ساعة واحدة ثم سارت ولما اصبح اليوم السادس عشر اشرفنا على جزيرة باطموس المشهورة بسفرة بولص الرسول ورأينا على اليمين والشمال جزراً كثيرة يسمى مجموعها بالارخبيل اليوناني

رودس

ثم مررنا بجزيرة رودس اكبر هذه الجزر واهمهنَّ موقعاً واحسنهنَّ هواءً وهي التي قال عنها المؤرخ سترابو انها فاخرت في عظمتها رومة والاسكندرية وكانت مقرّاً لطائفة الهيكليين المنسوبين الى مار يوحنا

احدى الطوائف المنشأة في فلسطين ايام الحروب الصليبية فتفقدتُ القلعة التي شيدتها هذه الطائفة فوجدتها مندثرة ولم يبقَ من اثرٍ لها غير بعض ابراج ضخمة متداعية ما برحت بقاياها واقفة على شاطئها واما التمثال الذي كان محسوبًا احدى العجائب السبع فلم يبقَ لهُ من اثرٍ وقد كان لاجلاء الهيكليين واخراجهم منها حروب شعواء مدة خلافة السلطان سليمان طال امدها اربعة شهور كاملات فانزاحوا عنها باسرهم بعد ما تملكوها ثلاثة قرون ونصف

قبرص

وفي عصارى السابع عشر من تموز اطللنا على جزيرة قبرص التي عمرتها جالية فينيقية قبل الميلاد بالف وثماية سنة ومن مدنها مدينة سيتيوم المذكورة في نبوات حزقيا

وفي الثامن عشر من تموز وهو اليوم الاخير من سفري جلستُ على ظاهر الباخرة اتوقع ظهور ساحل سوريا الشمالي فلم يكن بعد ظهيرتهِ حتى بدت امامنا طرابلس الفيحاء فنزلت اليها والقيت عصا الترحال والحمد لله اولاً وآخرًا . انتهى






Princeton University Library
32101 106067307